

الإسلام تحدى

(مدخل عيسى إلى الإيمان)

وحيد الدين خان

مراجعة وتحقيق

دكتور عبد الصبور شاهين

تعريب

ظفر الإسلام خان

الإسلام تحيى
(منقول من كتاب الإسلام)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مشخّمات کتاب

نام کتاب : الاسلام يتحدی

مؤلف : وحیدالدین خان

ناشر : دارالجيل المسلم

تیراژ : ۳۰۰۰ نسخه

چاپ : نمونه

ایران / قم

حق چاپ محفوظ است

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »
(فاطر : ٢٨)

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . »
(فصلت : ٥٣)

وَحِيدُ الدِّينِ خَان

الإسلام تحدى

(مدخل على الحق الإيمان)

مراجعة وتحقيق

دكتور عبد الصبور شاهين

تأليف

ظفر الإسلام خان

This is an Arabic translation of «Ilmê Jadêed Ka Challenge» by the Indian muslim thinker and reformer: Waheeduddin Khan (Editor, Weekly Aljamiat, Delhi-6, India), published in Urdu (1966) by Academy of Islamic Research & Publications, Nadwatul Ulema, Lucknow, India. It has been rendered to Arabic by Mr Zafarul Islam Khan, revised by Prof Dr Abdussabur Shaheen of Cairo University and published by « Scientific Research House, P.O.Box 2857, Kuwait.

هذه ترجمة كتاب
« علم جديد كاجيلنج »
كتبه بالأردية الأستاذ وحيد الدين خان ونشره عام
١٩٦٦ « المجمع العلمي الإسلامي » التابع لندوة العلماء ،
لكنؤ ، بالهند .
وتمت الترجمة بإذن من المؤلف

الطبعة الاولى ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م
الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م
جميع الحقوق محفوظة
لدار البحوث العلمية

تقديم الطبعة الأولى

بقلم الدكتور عبد الصبور شاهين

ما أكثر ما يكتب عن الإسلام والمسلمين في مطبوعات هذا العصر في العربية ، وغير العربية ، وما أقل غناء أكثره .

قليل جداً من الكتابات الإسلامية هو الذي يعد إسهاماً في معالجة مشكلات عالمنا الإسلامي ، إسهاماً جاداً مخلصاً من أجل عودته ، وتقديره .

وكثير جداً ما نقروء من تلك الكتابات التقريرية ، أو الرثائية الوعظية ، التي تخطها أفلام ، إن كانت تتاجر بالدين ، فلا غرابة ، في عالم يقوم على المتاجرة حتى بالقيم ، فأما إذا كانت معروفة بالعلم وبالذكاء ، فذلك هو داعي الحسرة والإشفاق في أنفسنا على علمائنا الأذكياء .

أيمكن أن تصور عالم الفكر الإسلامي مجرد أقاصيص تحكى للبهر ، أو مقالات يجتهد أصحابها في تلييج مقلّماتها وسياقاتها ، لنتهى بعد قراءتها إلى هز الرءوس ، ولوك عبارات الثناء والإعجاب ؟

هنا على حين يتشاغل كتاب الفلاسفة المادية برسم تطلعات العصر ، وعلاج مشكلات التطبيق على مستوى عالمي ، حتى ليحس المرء بعد مطالعة بحث من هذه البحوث بحاجة إلى أن ينزوي نفسياً في ركن من أركان اليأس والقنوط ، لأنه غائب تماماً عن المعركة الحاضرة !! .

تلك محنة الوجدان والعقل المسلم ، الذي ينشد لدى كتابه ومفكره مستوى من المبادرة والجد والإخلاص ، ولوناً من الكتابة المباشرة التي تعيش عصرها وأفكاره وتطلعاته ، فإذا هم لا يزيدون على مضغ حكايات الأولياء ، واجترار بضعة خيالات حلقة في سبائك التيه ، ومجابهة الواقع الصارخ الملح بما يبعثه في وهي الجماهير ، ثم يسرح بها بعيداً بعيداً ، في أحلام الماضي وتصوراته .

ومن البله أن نظن أن أخبار السلف هدف ثقافى ، يقصد للثاء كتمة عقلية ، دون أن يكون من وراء ذلك مشروع إنهاض ، وخطة توعية من أجل صنع الحاضر ، والتأثير فى الأجيال القادمة ، حسب هؤلاء السلف أنهم كانوا أمثلة مسهمة فى صنع عصرهم ، وتوجيه معاصريهم ، ثم مضوا ، عليهم من الله رضوان ، ومن الناس سلام .

وجاء من بعدهم خلف ، أصبح بعد حين سلفاً ، بعد أن مضى إلى الرفيق الأهل ، خلفاً كذلك تركه من السلوك ، ومن الكفاح ، هى جزء من تاريخ أمنا .

وجاء جيلنا ليتوهم ، أو ليرادله أن يتوهم ، أنه مجرد وارث لأجيال سابقة ، عليه أن يستغل تركتها فى خلق مللته ، فإذا ما جوبه بتحديات عصره لجأ إلى المبالاة بترائه ، المبالاة وحدها ، الممثلة فى أكثر الكتابات المنشورة ، التى لا تحمل أن تحكى وتحكى ، حكايات فى حكايات ، وتقف أحياناً مستعيلة من فوق منبر ، تنظر على الحضور وعظاً فى وعظ ، دون أن تبلغ فى ظن الجماهير أن تهز وجداناً ، أو حتى تحرك قشة .

إن أنخص صفات عصرنا هى أنه ينتج من الأفكار بقل ما ينتج من الأشياء ، وليس من الضرورى أن تتطلب من الأفكار المنتجة أن تكون نافعة دائماً كالأشياء ، فإن المجمعات التى تصدر إلينا أشياء الحضارة ترى فى الأفكار سلعة ينبغي أن تتغير كل يوم ، كما تتغير طرز الأشياء ، ولذلك يقف مثقفونا مبهوتين أمام موجات الفكر الواردة من الخارج ، ماذا يأخذون ، وماذا يبدون ؟ بل قل : ماذا يقرعون ، وماذا يترجمون ؟ .. ولاشئ أكثر من هذا ... يكفهم أن يستطيعوا ملاحقة الأفكار ، دون أن يكون عليهم أن يواجهوها ، أو يتقدموها ، فهم إلى أن يصوغوا نقداً معيناً لأحد الاتجاهات الجليدية نسبياً يكون الوقت قد فات ، وتقدم بمرور الزمن ما يتقدمون ، وغطت عليه أفكار أخرى أشد لعناً ، وأكثر جاذبية وإشعاعاً .

وما لا شك فيه أن العالم الإسلامى هدف ثمين من أهداف - نصليح - الأفكار ، نظراً إلى موقعه ، وخطورة موقعه بين الكتل المتصارعة ، أو بعبارة أخرى : مراكز الإنتاج ، والمهدف من وراء التصليح واحد لدى كل هذه المراكز : أن يبقى هذا العالم مفتقراً إليها ، على اختلافها ، وأن يحال بينه وبين أفكاره الأصيلة ، التى يمكن أن تنبئ عن الاستمرار ، وتحقق له الاكفاء الدائى .

ومن المعروف فى دوائر الاقتصاد أن الاحتكار إذا تحقق لمركز إنتاجى فى سوق معينة فإن من المتوقع أن يبدأ المنتج فى إفساد السلعة ، بتقليل جودتها ، اعتماداً على الاحتكار المتاحة له ، وطمعاً فى ربح أوفر .

وسوق الأفكار أعظم أسواق المنتجات ، وأكثرها تجلباً لتزييف والإفساد ، ومن ثم خلت أسواقها بما هو أشد فساداً من السموم ، وأعظم انتشاراً من المراء ، يتخلل كل غلبة ، وينغرف

كل بناء .. أفكار ترتدى أثواباً ، أو تحمل شعارات ، أو ترفع مشاطل ، ليس الثوب فيها ،
أو الشعار ، أو المشعل ، إلا قناعاً يستر الزيف والخطر .

وليس من الممكن أن تفهم موجات السيطرة الخارجية على مجتمعاتنا إلا إذا لاحظنا مثلاً
تبعية الفتاة المسلمة في كثير من بلاد الشرق العربي لكل ما يظهر في أوروبا أو أمريكا من أزياء ،
فإن ترتدى الثرى إحدى (المانيكان) قصيراً بمقلد ستيشنر واحد ، حتى تبادل فتياتنا إلى
تقصير أثوابهن بمقلد شير واحد !!

ليس المهم ملاحظة أن تقصر الفتاة أو تطول ثوبها بحكم (الموضة) الشائعة ، فإذا لم تفعل
حدثت متخلفة بولما المهم ملاحظة هذه السيطرة التي توفرت للملك الأزياء ، وأكثرهم صهيونيون ،
على فتياتنا المثقات بخاصة ، حتى كأنهن جميعاً أعضاء في جوقة موسيقية واحدة ، وأمامهن
(مايسترو) كلما أشار بإصبعه أو بصاه تحرك العازفون والعازقات في اتجاه العصا ، كالقطيع .
ودلالة هذه تتبعية أخطر مما قد يبدو في ظاهر الأمر ، لأن تأثيرها يشمل كل القيم التي
يقلسها المجتمع في شخص المرأة ، قيم الحياة ، والأنوثة الواحية ، والجسد غير المتعرض للذباب
الآعين ، وقيم التمسك ، والالتزام في تربيتها ، وقيم الجيل الناشئ على يديها ، وهو الذي نشده
لقد هذه الأرض ، ومستقبل هذا الدين ، وبكلمة واحدة ، وبلا مغالاة : نحن هكذا محكومون
من حق نجسنا للملك الأزياء ، ودولة المانيكان .

ومع ذلك ، قد يقال : إن مسألة الثرى أقل خطراً من غيرها ، فهي على أية حال مسألة
خلاف ... أما غيرها ، كقضية المعتدلات التي تزيّف للأجيال الناشئة ، وجورها تخطيم
لديها ...

وقضية الروح المتمزعة أمام انتصارات العلم في غير بلاد الإسلام ، الروح التي تقف
متنصتة مبهورة أمام منجزات الإنسان الأوروبي أو الأمريكي .

وقضية الحرية الفكرية المملومة في فلسفة التربية ، حتى أصبح كل هم المدارس إنتاج
نماذج مصبوبة في بوقنة التبعية والتقليد .. وقضايا أخرى كثيرة ، كلها أهم من قضية المني
جيب ، أو الميكروجيب .

ويرغم ذلك لا نكاد نلمح أدنى فاصل بين هذه القضايا جميعاً ، فالمصنع المتج واحد ،
وهلف التصدير واحد ، والمستهلك المستهلك واحد أيضاً ، هو الإنسان المسلم .

والمشكلة بالإضافة إلى هذا كله أن أكثر كتابنا أصبحوا يرون في قيام هذه الحالات
شيئاً مألوفاً غير جدير بالناقشة ، إما زهداً في الدنيا ، ولها يأساً من الإصلاح ، وإما تعوداً
على المشاهدة اليومية ، كما يعود الممن تأثير المخدر . وكأنهم المعنيون بقول الشاعر :

من يأن يسهل المسوان عليه ما لجرح يبيت لإسلام

وأقول: (أكثر كتابنا) ، لأن هنالك (قلة) نصبت أقلامها للذود عن المستقبل، والدفاع ضد التيار المخرب، متحملة في ذلك عنت الفساد وسلطانه، ومتحدية في المجتمع مراكر استيراد الأفكار، وعناصر اللامبالاة ، وهؤلاء القلة لا تكاد - والحمد لله - تخلو منهم أرض الإسلام ، يكتبون بكل لغة، ويحاربون في كل معركة ، إيماناً منهم بوحدة المقاتلين أمام الخطر الزاحف . ومن هؤلاء القلة مؤلفنا هذا، الذي يدخل اسمه لأول مرة حقل اللغة العربية ، بنشر ذلك الكتاب : (الإسلام يتحدى) ، وإن كان لاسمه رنين مدو في شبه القارة الهندية ، باعتباره ثالث اثنين، يتولون قضية الإسلام المعاصر في وجه الزحف الفكري: أبو الأعلى المودودي ، وأبو الحسن الندوي ، ووحيد الدين خان .

والحق أن علماء باكستان والهند المسلمين قد أتيح لهم أن يتصلوا اتصالاً مباشراً بمصادر المعرفة الحديثة، حتى أصبحوا من أعلامها، وهم في هذا يضارعون أكثر علمائنا العرب اتصالاً بثقافة الغرب، مع فارق جوهري، في رأينا، هو أن الأولين الذين نشير إليهم لم يفرقوا أنفسهم في المعرفة الأكاديمية ، لتستولى من بعد على عقولهم وأقلامهم ، وليصبحوا مجرد ناشرين ، أو مفسرين ، أو حتى معلقين ، على ما يقدمون من فكر الغرب وعلومه .

لقد وقف هؤلاء عمالقة في وجه التيار، وانغمسوا في مشكلات الجماهير، وحاولوا أن يقدموا لهم تصوراتهم من أجل المستقبل، ومن أجل تحريك الثورة الفكرية في كيان الإنسان المسلم ، فهم في الحقيقة كتاب ثوريون ، ذوو أصالة ووعي وإيمان .

وليس من السهل أن نقول : إنهم جميعاً يمثلون طريقة واحدة في الأداء، برغم أن هدفهم واحد ، فإن لكل منهم أدائه الخاص ، وطريقته الفذة التي عرقت بها الجماهير المسلمة . وحسبنا أن نقرأ هذا الكتاب الجديد ، لنترك أنه يمثل عقلاً، وثقافة، ومنهجاً ، يختلف بها مؤلفه عن جميع من عرفنا من الكتاب المعاصرين .

ولعل من المناسب أن أورد هنا ما كتبه المؤلف في صحيفته (الجمعية الأسبوعية) في عدد ٧ من فبراير ١٩٦٩ ، موضحاً الدور الذي يحاول أن يقوم به ، قال :

« إن المشكلات التي يواجهها الإسلام في هذا العصر ، منها ما هو علمي ، يوجه إليه بلغة العلم ومصطلحاته، ولذلك كان لزاماً أن نضع إجاباتنا في مواجهة هذه الحملات المسعورة بنفس المصطلحات العقلية والعلمية التي يستخدمها المعارضون للدين . ولا زال هذا الميدان ، منذ أمد طويل مجالاً لنشاطي وإهتمامي ، حتى كان آخر ما كتبت : (الإسلام يتحدى) .

« والميدان الثاني لنشاطي هو ما نسميه بميدان بناء الأمة الإسلامية وتعميرها، والعمل على نهضتها ، وطينتها في هذا المجال أن تكشف الملل ، ونحصر الأسباب السياسية والاجتماعية التي

أدت إلى سوء أحوال المسلمين ، ثم وضع خريطة للمستقبل ، بعد الوقوف على أسباب النكسة التي أصابتنا ، وتقوية الشعور القوي لدى المسلمين (في شبه القارة الهندية) ، ليربط بين مختلف أنشطتهم ، فيجعلها مجموعة معنوية متكاملة ، وحثهم على مواصلة الجهد لتكون منهم أمة قوية جامعة في العالم .

« وبكلمة أخرى ، نحن نصبو إلى بعث الأحلام التي رآها أسلافنا خلال كفاحهم وتحقيقها ، لإعلاء شأن الأمة المسلمة ، وهي الأحلام التي لم تتحقق ، لسبب أو لآخر .

« وهذه هي المهمة الفكرية التي تضطلع بها صحيفتنا (الجمعية الأسبوعية) ، ويمكننا أن نقول بحق : إن هذه المهمة قد أصبحت أكبر ميزة خاصة لمريلدتنا في المجال الصحفي ، في هذا العصر ، على حين أصبحت الصحافة الإسلامية علماً على الرءاء ، بل إن آخر ما نستطيعه هذه الصحافة هو مجرد التعليقات السياسية على الأحداث العامة ، وتقديم بعض المعلومات الطريفة التي يفتشون إليها العامة من القراء . ففي هذا المنزخ الصحفي تعتبر (الجمعية الأسبوعية) الصحيفة الوحيدة التي تعمل على إحياء وتقوية الشعور القومي لدى المسلمين ، باحثه عن مواطن الخطأ في كفاحهم الحضاري ، ونحن لا نجد كلمات نشكر الله بها ، على أنه — سبحانه — اختارنا بمشيئته لسد هذا الفراغ .

فالرجل كما نرى صاحب دعوة ، يريد إبلاغها إلى ضمير الأمة المسلمة بلاغاً يحركها نحو أهدافها ، ويوحدها أمام الأخطار ، وهي دعوة ذات شقين ، أحدهما يستنفذ العمر كله ، ولكنه يعمل لتحقيق كليهما بوسائله المتاحة : أن يكتب كتباً ، وأن يسخر مجلة أسبوعية .

والواقع أن كتابه هذا يعتبر تحقيقاً لحلم طالما راود كتاب العقيدة والمدافعين عنها ، فقد كانت محاولات السابقين للبرهنة على وجود الله ، وإثبات الرسالة ، وما يتصل بهما من حقائق ميتافيزيقية — قد وقفت عند جهود علماء الكلام ، باستخدام الأقيسة المنطقية ، التي بليت لطول مالاكتها الألسن ، وأصبح مجرد التحدث بها داعية إلى الملل منها ، بل إن لغتها لم تعد مفهومة لشباب الإسلام ، الذي يعيش في هذا العصر ظروفاً تتغير من يوم لآخر ، وتطالمة ثقافات ذات جدلية ماهرة ، ومناهج علمية تجريبية ، لم يعد العقل يقنع بدونها .

لقد أصبح كل شيء موضع شك . وبذلك سقطت القضايا القائمة على المسلمات المنطقية ، لأنه لا شيء في العقل الحديث بمسلم منطقياً ، إلا وله نقيض منطقي يمكن أن يحتمله العقل . أما التجربة فهي الدليل الذي لا يدفع على قضيتها ، وما ينتج عن التجربة ليس مسلماً منطقياً ، ولكنه حقيقة نسبية موضوعية ، وهذا شأن العلم . ومن هنا كان لابد من تغيير المناهج الكلامية ، لإشباع رغبات متجددة في اليقين ، تريد أن تؤسس موقعها على أرض من المعرفة الجديده التي اخترقت الآفاق ، وقاست أبعاد النجوم ، وتغلقت في أسرار المادة ، حتى حطمتها واستخرجت منها طاقات لا حدود لها .

وإذا قيل : إن قضايا علم الكلام هي قضايا الغيب المطلق المحجوب الأسرار ، ولا يعقل أن يكون للتجربة دور في معالجتها . تذكرنا في رد هذا الرأي ما قاله عربي يعيش على فطرته ، وينطق على صميمته ، دون أن يكون قد ألم بشيء من منطق أرسطو : « البكرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ، فسما ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك كله على الله اللطيف الخبير ؟ » .

وكلمات هذا الأعرابي الصق بالمتنج التجريبي ، القائم على الملاحظة ، وأقرب إلى التأثير في النفس ، وأقدر على إقناع العقل ، من أية صيغة قياسية - ما في ذلك شك .

لقد أصبح سيئا للغاية أن ينطق رجل الدين أمام الناس ، أو أمام الطلاب بقضايا متقدمة ، قال بها الأولون ، دون أن يحاول مزج المعرفة التقليدية بالحديد ، وأكثر ما تتجلى هذه المعرفة التقليدية في علم التوحيد أو الكلام ، أو مباحث العقيدة ، على اختلاف المصطلحات ، حيث يصر بعض الأساتذة على حكاية التزاح بين المعتزلة وأهل السنة ، والفرق بين الأشاعرة والماتريدية ، ووجهة نظر الخوارج والشعة ، والخلاف بين الجبرية وغيرهم ، وتناقض ما بين العقل والنقل أو تساندهما ، وكل ذلك دائر في حلقة مفرغة ، بعيدة عن مجال تفكير الشباب المتحول ، لأن هذا الكلام كله قد أدى وظيفته على خير وجه ، حين كان جزءاً من صراع عصره حول المفاهيم والقيم ، فلما مضى عصره أصبح جزءاً من تاريخ الفكر ، لا أساساً من أسس النقاش الحى النابع من التجربة المعاشة .

ولذلك يعجز هذا الكلام عن إقناع ملحد حديث بنخته ، لأن أسباب إلحاده ليست من موضوعات الكلام ، فالجلد الحديث لا يتناقص حول الجوهر والعرض ، ولا حول القدم والحدوث ، وإنما هو يتناقص حول حتمية المادة ، ووجود المادة الواقعية والمادة العقلية ، والعلاقة بين المادة والحركة ، حين يتبى كل موجود مادي في حقيقته إلى حركة ، والاحتمالات الرياضية لتأثير الصدقة في نشأة الكون ، وامتداده ، وحتمية التطور . وحقيقة الوجود في ضوء الإدراك الجديد لتسوية الظواهر الكونية ، وأهمها الزمان ، ذلك البعد الرابع الذى كشفه أينشتاين ، والتوفعات العلمية لوجود حوامل أخرى غير عالمنا ، في سماتنا ، وفي السماوات الأخرى ، التى يتركها العلم ، أو يحبس بوجودها ، ويحاول معرفة شيء عنها... إلخ.

فإذا لم تكن هذه القضايا الجديدة هي محور النقاش في قاعات الدرس الجامعى . الذى يصوغ حقول الشباب فعنى ذلك أن جامعاتنا تعمل في فراغ إيديولوجى ، وتخرج للمجتمع نماذج خربة ، واهنة ، أو مشوشة ، أو يائسة من جدوى العقيدة في بناء المجتمع الجديد ، نماذج تحس في أعماقتها بالجفاف الروحى ، فهم لم تنظر بأرضية من الفكر الدينى وقف عليها مطمئنة في مواجهة رياح التغيير العاصفة ، إما لأنها محرومة من هذا اللون من الدراسة ،

وإما - وهو الأخطر - لأنها غير مقتنعة بما عرض عليها من موضوعاته . ويتبقى الأمر بهذه النماذج إلى أن تتبصر في الفراغ ، ونحس باللامبالاة تجاه مسائل العقيدة ، لأن أسلم الطرق ألا تبالي ، فالهرب أسلم المسالك .

والغريب أن هذه الحال قد طمعت على سطح المجتمع منذ أوائل القرن التاسع عشر ، حين بدأ اللقاء والاصطدام بين ثقافتى الشرق والغرب يواجه مبعوثينا إلى أوروبا ، على عهد محمد علي - في مصر ، وتعرضت أعمال روائية ، منذ ذلك العهد ، وحتى يومنا هذا ، لتصوير التفرق الفكرى ، الذى يمانية هؤلاء المبعوثون ، من أمثال : تخلص الإبريز - لرفاعة الطهطاوى ، وعلم الدين - لعل مبارك ، وحديث عيسى بن هشام - لمحمد المويلحى ، وقنديل أم هاشم - ليحى حتى ، وعصفور من الشرق - لتوفيق الحكيم ، ومليم الأكبر - لعادل كامل فانوس ، أى أن المشكلة نائرة وملحة من قديم ، دارت حولها روايات قيمة . ومع ذلك لم يبحث لها المتكرون الدينيون عن حل ، ولم يعرضوا لها بمناقشة لاستكناه أسبابها ، على حين اكتفت الأعمال الروائية بالتقاطها وتصويرها . والخطر بهذه السلبية إلى تقادم ، والخراب إلى استفعال ، والضحية دائماً هو الإنسان المسلم .

ليس غريباً أن يكون بعض عتاة الملاحدة في مجتمعاتنا ممن يمتنون إلى أسر ذات اتصال بالدراسة الدينية ؟ ! ! وأن تنشر مجلة أسبوعية أن إحدى الماينيكان تمثل جامعة الأزهر الشريف ، ثم تأتى بصورتها فإذا هي ترتدى ما ترتديه بنات باريس^(١) ! ! ودعك من أن تكون إحداهن فتاة غلاف ، تنشر لها صورة عارية ، أشبه بصور السابحات القاتنات ، وهى من بنات العلماء ؟^(٢) ! ! إنهم جميعاً ، وأضرابهم ، نتاج هذا الانقسام بين الفكر الدينى وقضايا العصر ، بحيث لم يأخذ هذا الفكر شكل ثقافة حية تجمع بين المعرفة والسلوك ، أى أن هناك عجزاً شائعاً في الثقافة المستخلصة للإفتتاح ، على حين استطاعت الثقافات الأخرى أن تحتازهم لمسكرها ، لأنها صادفت فراغاً ضمنت ، بصرف النظر عن جدية الأشخاص أو هزلتهم وتفاهمهم ، وأحد أسباب هذا الانقسام أيضاً أن من يتولون سداة الفكر الدينى لم ينهضوا لمواجهة تحدى العصر ، ربما لأنهم فعلاً غير فاهمين لرسالاتهم ، إلا على أنها استحضار لماض أثرى لا علاقة له بمحاضر ، وربما لتوهمهم أنه لا تحدى أصلاً ، بل كل شئ هادئ على الجبهة ! ! والدنيا بخير والحمد لله ! ! . فالمشكلة من هذه الوجهة أزمة في الشعور الذى يودى حين يكون سويًا إلى الأرق المنتج ، والقلق الخلاق ، فأما حين لا يكون هناك شعور فإن الدين يتحول عند بعض رجاله إلى باب مكنى للوجهة والارتراق ، وعند بعضهم إلى سلبية قاتلة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) أنظر البلد الصادر من جريدة أخبار اليوم في ٢٩ من نوفمبر ١٩٦٩ .

(٢) أخبار اليوم ٢٥ / من أكتوبر ١٩٦٩ .

ولست أنكر أن محاولات جادة قام بها بعض العلماء الثققلين على مصير الإنسان ، في الشرق والغرب ، من أجل البرهنة على وجود الله على أساس علمي ، ولكن قضية الدين ليست هي قضية (وجود الله) فحسب . لا مراء في أن الإيمان بوجود الله سبحانه أساس ومنبع ، ولكنه يستتبع الإيمان بقيم أخرى ومبادئ ، دعا إليها الرسل . وحثت عليها الأديان ، وأهمها ضرورة الإيمان بوجود كائنات غير الإنسان والملائكة (الملائكة) الملهمين الخير ، وكائنات أخرى غير الإنسان والملائكة دل عليها الدين ، وسماها الجن ، ومنهم (الشياطين) - التازغون بالشر ، وضرورة الإيمان بالغيب ، وباليوم الآخر . وما يتصل به من جنة ونار ، وحساب ، وثواب وعقاب ، بل ما يسبق ذلك من قيامة ، هي في حقيقتها دمار للعالم ، ونحط للكواكب والنجوم ، وضرورة التزام شريعة الله ، التي جاء بها الرسل ، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، متى صح الإيمان بوجود الله ، مالك الملك ، ومنزل التشريع بالحلال والحرام ، وفي كلمة واحدة : ضرورة إقرار ما علم من الدين بالضرورة . وهكذا نجدنا أمام كل مترابط ، لا يمكن انفصام أجزائه ، إلا على طريقة بني إسرائيل ، الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

ولقد وجد في المجتمع الإسلامي فعلاً هذا الصنف من الناس ، الذين يحدثونك بأنهم مؤمنون بالله ، وكفى ، ولا داعي لمطالبتهم بأكثر من هذا ! ! وهم يواجهون من يدعوهم إلى الالتزام بأوامر الله ونواهيه : بأن الهدف من هذه هو تركية النفس ، وعدم إيلاء العباد ، فإذا تحقق هذا الهدف بوسيلة أخرى كالتقافة مثلاً كان في ذلك غنى عن الالتزام بالتكاليف ، لأن هذه هي روح الدين ! ! .. وغاب عنهم ، أو تجاهلوا ، أن العبادة في حقيقتها ثمرة الإيمان بالله ، وتأكيده لعبودية الإنسان له ، وأن الله سبحانه قد اختار لعباده أن يخاطبوه ويقبلوه بكيفية معينة ، لا خيار لهم فيها ، بصرف النظر عن تحقيق مصلحة معينة لهم من العبادة أو عدم تحقيقها : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)^(١) فصلحة الإنسان العليا في أن يرضى خالقه بإخاض أمره ، والتزام طاعته .

فهذا صنف من الناس يمتزئ من الدين بما لا يقتضيه بكلفة : أن يقول : آمنت بالله - فحسب ، وهو يستعمل مسألة تسليمه بوجود الله - جل وعلا - ذريعة إلى التحلل والانتهاق من سائر قضايا الدين ، والصلود عنها ، وهو أمر ينبغي أن يلاحظ على أنه من صميم أزمة الدين في أنفُس المتقنين المعاصرين ، لأن الثقافات الإلحادية قد انحلت لنفسها خطة لثيمة ، فحاروا أن دعوة المسلم إلى الكفر تلقى نقوراً في المجتمع الإسلامي ، ويكاد يكون من المحال لإحراز تقدم فيه باعتناق هذه الدعوة ، ولذا ينبغي أن تكون الخطوة - أولاً - تجريد شخص المسلم من الالتزام بالتكاليف ، وتعليم قيم الدين الأساسية في نفسه ، بدعوى العلمية والتقدم ،

دون مساس بقضية الإلهية موثقاً ، لأنها ذات حساسية خاصة ، وبمرور الزمن ، ومع إلف المسلم لهذا التجريد يسهل في نهاية الأمر تحطيم فكرة الإلهية أساساً في عقله ووجدانه - وإذا بقيت اقترافاً ، فلا ضرر منها ، ولا خطر ، لأنها حينئذ لن تكون سوى بقايا دين ، كان موجوداً ذات يوم بعيد .

وهكذا يحكم أعداء الإسلام مخططاتهم ، ويدبرون لتدمير الدين ومبادئه ، ابتداء من أبسط السنن والواجبات ، و انتهاء إلى قضية القضايا : وجود الله ذاته .

فإذا أفرد بعض العلماء مسألة وجود الخالق بالعلاج العلمي فقليل منهم - فيما أعلم - من تصدى لعلاج هذه القضايا جميعاً ، وبخاصة هذا الكتاب : (الإسلام ينحلى) . وأحسب أنه من هذه الناحية سوف يصبح - متى بلغ عمق المجتمع - دستور الإقناع الديني ، أو كما يحبر العنوان القرعى الذى تخبرناه له : (مدخلا علمياً إلى الإيمان) .

وقد كان المؤلف منطقياً مع عصره إلى أبعد الحدود ، فإذا كان أقطاب الإلحاد في الفلسفة الحديثة قد وضعوا لضحاياهم مدخلا علمياً إلى الكفر ، فلا مناص من أن يحاول هو بحسه الصادق ، ووعيه بحاجة المسلمين - وضع مدخل علمي إلى الإيمان ، يعتبر أساساً لعلم كلام ، أو علم توحيد جديد . وهذا هو الاعتبار الذى كان من وراء الحماس المخلص ، بذله مترجم الكتاب الأستاذ ظفر الإسلام خان ، نجح المؤلف ، واقتضانى أن أعكف شهوراً ببلغ سنوات على مراجعته ، وتحقيق نصوصه الدينية .

ولذلك سوف نجده يعرض (قضية معارضى الدين) بكل حيطة وأمانة ، حتى لا ينهم من أول لحظة بمخالفة المنهج العلمى ، ثم يبدأ في مناقشتها معتمداً في الأساس على الإنتاج الفكرى الغربى ، من باب (وشهد شاهد من أهلها)^(١) ، مرجعاً مسألة استخدام الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية في آراء الأعداء قبل الأصقاء .

ولا يتبادرن إلى ذهن القارئ أن المؤلف رجل دين متحمس ، يبشر بدعوة الإسلام بأسلوب جديد ، إنه مفكر مصلح يعمل بالصحافة ، رئيساً لتحرير مجلة (الجمعة الأسبوعية) وما عرضه هنا هو نتيجة تأمل واهتمام مؤرق بمشكلات الشباب المسلم ، حتى أصدر كتابه هذا عام ١٩٦٦ ، وما زال وفياً لقضيته ، مجاهداً في سبيلها .

ولئن كنا قد ألحنا قبل بضعة أسطر إلى بعض ملامح منهجه ، فإن تنظيم هذا المنهج قد اقتضاه أن يضع قضاياها في ترتيب منطقي :

فهو قد وضع كتابه علاجاً للمشكلات العقلية التى تواجه البشر ، ولما كان المتوارد

على مسرح الأحداث ، مبدأ الدين ، ومبدأ الإلحاد ، وكان هو من معسكر الدين - وجب عليه أن يدلف إلى هدفه من خلال دعاوى الخصوم ، حتى لا يتهم بتجاهلها ، فرض فكرة معارضى الدين وبين أسسها البيولوجية والنفسية والتاريخية . ومعنى ذلك أنه يعرض جوهر فلسفات ثلاثة : للداروينية ، والفرويدية ، والماركسية ، وهى المبادئ التى قادت فى مجموعها قطعانا من البشر فى وادى الإلحاد ، وإنكار وجود الله ، وتأليه المادة .

فإذا بدأ بمناقشة هذه المبادئ سلك نفس السبيل التى سلكتها . فاستنى أدلته من الطبيعة ، ومن البحوث النفسية ، والتاريخية .

وإذا كان أعظم قضايا الدين . بعد الإيمان بالله ، الإيمان باليوم الآخر ، حقيقة غيبية ، لا مرأى فيها ، وكانت أهم دعاوى الإلحاد قائمة على إنكار هذا التقاء مع الخالق - فلن إثبات إمكان الآخرة ، بالأدلة الطبيعية ، والبيولوجية والتاريخية - هو أيضاً من الأدلة القاطعة بصحة الدين ، وبوجود الله ، ومن ثم نجاهه متألقاً فى تبيان الحاجة إلى الآخرة نفسياً ، وأخلاقياً ، وسلوكياً ، حتى إذا استقر فى وعى القارئ ضرورة الآخرة كان ذلك طريقاً إلى إقرار ضرورة الإيمان بالله من جانب آخر . فالآخرة إذن قضية وبرهان فى آن .

والمؤلف لا يكتفى فى هذا الباب بدليل واحد ، بل هو يقدم بحثاً قيمة فى ضرورة الآخرة من الناحية الكونية ، ويسوق شهادات تجريبية ، وبحوثاً نفسية وروحية ، تؤكد هذه الضرورة ، كما يزيد القارئ ثروة فى المفاهيم ، ويفسح له آفاق الاقتناع .

ويأتى بعد ذلك دور الرسالة ، وهى الدليل التاريخى على الحقيقتين السالفتين ، لأن الرسل هم الذين دلوا عليهما ، قبل أن يخطو الإنسان هذه الخطوات الجبارة فى ميدان العلم والتجربة .

ومن الضرورى أن نلفت النظر هنا إلى أن المؤلف لا يعنى بكلمة (الدين) إلا ما عناه الحق سبحانه بها فى قوله : (إن الدين عند الله الإسلام) (١) ، فإذا تناول قضية الرسالة فقصده قطعاً رسالة الإسلام ، وكتابه المعجز : القرآن .

ويعقد فى هذا الباب عدة فصول يتحدث فيها عن إعجاز القرآن التاريخى ، والعلمى ، ويورد لمحات كثيرة عن تنبؤات القرآن ، وما تضمنته آياته من حقائق لم يكشف عنها إلا فى العصر الحديث ، فى الفلك ، وطبقات الأرض وغيرهما .

فإذا انتهى من إثبات هذه الصفة العلوية للقرآن ، وأكد به الحقيقة الأولى ، وهى وجود الله ، عقد باباً خاصاً بعلاقة الدين بمشكلات الحضارة ، فتناول فى جانب منه مشكلات

التشريع ، وعناصره الأساسية ، وتحديد الدين لمفهوم الجريمة ، وعلاقة القانون بالأخلاق ، وبالفرد ، وبالعدل .

ولا يفوته أن يتحدث عن بعض مشكلات الحضارة الحديثة ، كمشكلة المرأة ، والتمدد ، والملكية ، مقلناً في كل ذلك نظام الإسلام بنظام الحكم المعاصرين : الرأسمالية والشيوعية . ويأتى أخيراً حديثه عن مستقبل هذا العالم الإسلامى ، وما ينشده أبنائه من أهداف سامية ، وما ينبغى أن يكون لهم من رسالة في هذا العالم الحائر ، بين مذاهب الإلحاد الروحية المتهاوية ، ودين الفطرة الذى جعله الله ختام الأديان ، وجعل نبيه خاتم المرسلين ، مبيناً كيف أدى الإلحاد في المجتمعات الأوروبية إلى التحلل ، وانتزق الأسرى ، وتكون طبقات من المجرمين والشواذ ، وانتشار أعصى الأمراض النفسية والعصبية ، جراء الحرمان من الإيمان بالله ، خالقنا ومالكنا ، ويختار لختم كتابه كلمة قبسها عن الأستاذ أ. كريسي موريسون ، إذ قال :

إن الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الأخلاق ، والقيم والمشارع السامية ، وكل ما يمكن اعتباره نفحات إلهية — لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد ، فالإلحاد نوع من الأكلية حيث يحلس (الإنسان) على كرمى (الله) .

« سوف تقضى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين » . .

« سوف يتحول النظام إلى فوضى » . .

« سوف يتعلم التوازن وضبط النفس والتحكم » . .

« سوف يغشى الشر في كل مكان » .

« إنها لحاجة ملحة أن تقوى من صلتنا وعلاقنا بالله » .

فهذا هو منهج الكتاب في إيجاز شديد ، وهو منهج يشدنى إلى ملاحظة هامة أحب أن أضعها بين يدي القارئ : ذلك أن خطوات هذا المنهج ، بنفس الترتيب تكاد تكون طبق الأصل من كتاب أخرجه من قبل مترجماً عن الفرنسية ، هو كتاب « الظاهرة القرآنية » ، للمفكر الجزائري مالك بن نبي ، وهي ملاحظة غريبة في المنهج ، لا تنصرف إلى مادة الكتابين ، لأن المؤلفين مختلفان في عقليتهما ، وثقافتهما ، وطريقة معالجتهما لهذه القضايا الدقيقة ، حتى إنى أكاد أقطع بأن المحاولتين من حيث المصادر والمادة والأسلوب متباعدتان تماماً ، لإحداهما عن الأخرى ، بعد ما بين الجزائر والمند ، ولم يحدث أن التقى الرجلان في صعيد واحد ، فها أعلم . وتفسير هذا التوافق ينحصر في توارد الأفكار على مشكلة واحدة . يد أن ذلك لا ينعنى من أن أقرر أن كلا الكتابين صادر عن نفس الإحساس بضرورة

وضع منهج جديد للإقناع الديني ، وكلاهما توفرت فيه المنهجية الحديثة ، وموضوعهما مشترك كذلك ، والروح الكامنة في مضمونهما روح ناثرة ، مؤمنة .

وحسب الشباب المسلم من هذه الملاحظة دليلا على أن روح الإسلام طاقة لا يمكن أن تنمذ ، وستظل تصنع المعجزات ، برغم التفوق المادي الذي حققت مجتمعات الملاحدة المعاصرين .

نعم . . إن هذا التوافق العجيب بين مفكرين من أكابر مفكرينا يكاد أن يكون من بدائع الروح الخالدة ، روح الإسلام ، وأقول : الخالدة ، لأن الروح طاقة ، والطاقة لا تنفد ، وذلك وعد الله : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (١) .
والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

وصلى الله على محمد خاتم النبيين .

عبد الصبور شاهين

الكويت - ديسمبر ١٩٦٩

تمهيد

الموضوع الذى سندرسه فى الصفحات التالية ليس يجديد بالنسبة إلى اللغة الأردنية . ولكن المؤلف يشعر بأنه لا يزال ناقصاً ، رغم الجهود الطيبة التى بذلها بعض الكتاب .

والعصر الحديث يسمى : « عصر الإلحاد » ، لإنكاره الدين . وهذا الإلحاد ليس محض ادعاء . بل يرى أصحاب نظريته أنها طريقة بحث ودراسة ، اهتدى إليها الإنسان ، بعد التطور الحديث فى مبادئ العلم المختلفة ، وهذه « الدراسة التطورية » لا تهدف إلى إثبات نظرية ما أو إنكارها ، وإنما هى منهج خالص فى البحث ، أثبت لأصحابه أن الدين باطل ؛ ويمكن أن نفهم هذه الطريقة الجديدة فى ما قاله ت. ر. مايلز :

« إن الدراسة الجديدة هى تكنيك ومنهج ونمط معين لمواجهة الأسئلة ، وهى لا تستهدف وضع إجابات قطعية . وهو — من هذا الوجه — تغير هام طرأ على الفلسفة فى النصف الأخير من هذا القرن ، وسوف يبقى هذا التغير مستمراً ، دون أمل فى توقفه على المدى ^(١) البعيد » . ولا بد لباحثينا إذا ما أرادوا البحث فى العلوم الحديثة ، دفاعاً عن الدين ، ألا يغيب عن أذهانهم هذا التفسير ، سواء اعتبرناه تفسيراً علمياً محضاً توصل إليه المفكرون المحدثون ، أو اعتبرناه مجرد ملجأ جميل : ركنوا إليه . حين أخفقوا فى البحث عن التفسير المادى للكون ، بعد إنكار الدين .

وعلى سبيل المثال : إن الأعمال التى قام بها علمائنا لإثبات النبوة ، تفترض مقدماً أن العصر الحديث يدعى : أن محمداً صلى الله عليه وسلم « كان نبياً كاذباً » ، فيبدؤون فى جمع كليات كبيرة من المواد التى تثبت أن محمداً « كان نبياً صادقاً » . ومزى القول : « كان محمد نبياً كاذباً » ، هو أن هناك أنبياء آخرين صادقين ؛ على حين يشك الإنسان الجديد فى المبدأ نفسه ، فهو لا يؤمن بالنبوة أصلاً . فأما « النبي الكاذب » ، False Prophet فهو اعتراض قديم جاء به اليهود والنصارى ، الذين يؤمنون بأنبيائهم ، وينكرون نبي الإسلام . وأما العقل الحديث ، فلا يبحث عما إذا كان محمد نبياً « صادقاً أو كاذباً » ، وإنما يبحث عن

منع كلامه النبوى ، ويتبى ، اعتماداً على المتاحج المعروفة ، إلى أن مصدر هذا الكلام الغريب هو : « الاشعور » . . . وهو يرى أن التعبير عن كلام الاشعور بالوحي والإلهام يصلح أن يكون استعارة جميلة ، ولكنه يستحيل اعتباره واقعاً حقيقياً .

ولذا ، فإن مهمتنا لا تنتهى عند إثبات صدق نبوة رسول الإسلام ، بل علينا أن نضطلع بالبحث عن الوحي والإلهام ، وتثبت أن الوحي ينزل على أناس معينين ، من بينهم نبي الإسلام .

. . .

كان هذا موقف من يتصدى اعتمد الفكر الحديث ، دون فهم موقفه من القضية . وهناك نوع آخر من علمائنا يتركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين . ولكنهم ، لشدة تأثرهم بالفكر الحديث ، يرون أن كل ما توصل إليه أئمة الغرب يعد من (المسلمات العلمية) ، ومن ثم تقتصر بطولتهم على إثبات أن هذه النظريات ، التى سلم بها علماء الغرب ، هى نفس ما ورد فى القرآن الكريم : وكتب الأحاديث الأخرى . وهذه الطريقة فى التطبيق والتوفيق بين الإسلام وغيره ، هى نفس الطريقة التى تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة . وأية نظرية تقدم على هذا النحو ، يمكنها أن تكون تافهة ، ولكنها لا يمكن أن تكون رائدة ! ولو خيل إلى أحدنا أنه يستطيع أن يغير مجال الفكر فى العالم بمثل هذه المحاولات التوفيقية ، ليشرق على البشرية نور الحق ، فهو هائم ولا شك فى عالم خيالى ، لا يمت إلى الحقائق بسبب . . فإن تغيير الأفكار والمعتقدات لا يأتى من طريق التلقيق ، بل عن طريق الثورة الفكرية .

وهذه الحالة تورطنا بصورة أكبر عندما تتعلق المسألة بجانب أساسى وهام من أفكار الدين ، فلا بأس بأن يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة « الشهاب الثاقب » التى وردت فى القرآن ، حين يجد كشفاً جديداً فى علم الفلك الحديث ، ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة ، وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التى تثار حول الدين ، فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكل فى هيكल الفلسفة الدينية نفسه .

وأوضح مثال فى هذا ، هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا « نظرية التشو والارتقاء » ، لأن علماء الغرب أعلنوا اختراعهم الكامل بصلفها ، بعد دراساتهم ومشاهداتهم . . واضطروا ، بناء على هذا ، إلى تفسير جديد للإسلام فى ضوء النظرية الجديدة ، وحين احتاجوا إلى لباس جديد ، قاموا بتفصيل ثوب الإسلام مرة أخرى ، ولكنه ثوب مشوه الملم ، لا أثر فيه من روح الإسلام ، التى ضاعت مع الأجزاء المقطعة فى عملية التلقيق الجديدة .

إن نظرية النشوء والارتقاء تستهدف إقرار فكرة التطور بصفة مستمرة بحيث تبلغ الحياة أوجها عند النهاية . وبناء على هذا : لابد من أن تحدث الأحوال السيئة في الماضي ، لا في المستقبل . ويروق لهذه النظرية حياة الخلود في الجنة ، ولكنها لا تقبل الخلود في نار الجحيم . ولذا ، ادعى العلماء المسلمون ، الذين قبلوا هذه النظرية ، أن الجحيم ليست مكاناً للعذاب ، وإنما هي مركز للتربية والتزكية . فالحياة تواصل مسيرتها في مواجهة الصعاب والمشكلات . والذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرتهم بسبب عوائق الذنوب ، سوف يبرون بأحوال الجحيم الصعبة ، حتى يواصلوا رحلتهم التطورية خلال الحياة القادمة . ومن هنا ترى هذه الطائفة أن قوانين الملكية - مثلاً - في الإسلام : ليست إلا « أحكاماً مؤقتة » ، فإن هذه القوانين لا تتفق ونظرية التطور الاجتماعي

. ويمكن فهم نوعية الأعمال التي قام بها بعض علمائنا من المثاليين المذكورين ، فهي أعمال ناقصة ، رغم الجهود التي بذلت في صوغها . ولا يدعى المؤلف أن محاولته تخلو من النقائص . ولكنه يقول : إن المحرك الحقيقي لمحاوكة هو شعوره بأن عملاً من هذا القبيل كان لابد أن يكون .

. . .

إن الطريقة التي يتبعها الكتاب للدفاع عن الدين ذات وجهين : فكرية وتجريبية ؛ وبعبارة أخرى : فلسفية وعلمية ، إن صح التعبير . وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية ، وهي التجريبية أو العلمية . والسبب في ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من الكتب التي وضعت على المنهج الأول ، على حين يوجد نقص شديد في الكتب من المنهج الثاني . ولأنني لأشعر بأن المضمار الفسيح الذي هيأته الدراسات العلمية الحديثة لإثبات الدين ، هو تصديق لما جاء في القرآن ، في سورة النمل : « وقل الحمد لله ، سيريكم آياته فتمرغونها » . وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الإمكانيات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة .

. . .

وهذا الكتاب ليس دراسة موضوعية ، بل هو دراسة ذاتية ، بناء على التقسيم الجديد للكتب . وهذا الواقع ، كما يرى العقل الحديث ، هو ، من تلقاء نفسه ، صوت ضد الكتاب ! فكيف يمكن الاعتماد على دراسة ذاتية ، قدمها عقل يستهدف اتجاهها معيناً ؟ وجواباً على هذا الاعتراض ، الذي قد يثار ، أقول هنا عبارة للمستشرق النموسي المسلم محمد أسد في مقدمة أحد كتبه :

« إن هذا الكتاب لا يستهدف مسحاً محايداً للمسائل بل هو عرض لقضية هي قضية الإسلام في مواجهة الحضارة الغربية » (١) .

وعلى الرغم من الأحكام التي قدمها علم النفس حول إمكان أن يكون المرء محايداً في أبحاثه ، أو لا ، فإنني أسلم - نظرياً - بأنه لا بد لكل مؤلف أن يبذل قصارى جهده ، لكي يكون محايداً ، من أجل الوصول إلى نتيجة ما ، وهذا هو ما يقصده كل كاتب أمين . لكن هذا الكاتب نفسه ، عندما يجلس إلى مكتبه - في الواقع - لا نجده باحثاً عن الحقيقة أثناء كتابته ، بل يكون قد توصل إلى أحكام محددة المعالم .

وهناك طريقة أخرى ، هي أن يسرد المؤلف قصة بحثه بجميع مراحلها ، غير أن اعتبار مثل هذا الكتاب محايداً لا يعدو أن يكون قناعاً مزركشاً تختبئ تحته أهداف المؤلف . فليس هناك من كاتب يبدأ دراسته عندما يبدأ الكتابة ، وإنما هو يعرض نتائج بحثه في كتابه . فالكتاب إنما يكون ذاتياً أو موضوعياً ، بالنظر إلى طريقة ترتيبه للموضوعات ، ولا علاقة لهذا الترتيب ببناء البحث أو موضوعيته .

. . .

لقد وردت كلمة « الدين » كثيراً في هذا الكتاب ، وليس لأحد أن يغالط في هذا الموضوع . فإن الكتاب يدور حول موضوع عام ، ولذلك كان لاستعمال الكلمة العامة أهميته . أما ذهن المؤلف ، فإنه لا يقصد بالكلمة شيئاً وهمياً ، وإنما يعني (الدين) المعتمد عند الله تعالى الآن - وهو دين الإسلام . وأنا حين أطالب مواطناً هندياً بمراعاة القانون ، فليس معنى ذلك أنه تكفيه مراعاة قانون ما ، أو أى جزء من دستور الهند ، وإنما عليه مراعاة ذلك القانون الذي يعتبر دستور البلاد الرسمي . وهكذا ، فالمراد بالدين العمل اليوم هو الإسلام ، مع أنه من الممكن إطلاقه على أى شيء عرف في التاريخ بذلك الاسم ، ولكن للدين الذي يجلب رضا الله تبارك وتعالى ، والذي يكفل لمعتبيه نجاة الآخرة ، هو الإسلام لا غير . .

. . .

لقد تعرضت لسؤال بعد محاضرة ، ألقىتها في إحدى الجامعات ، ذات مرة ، وكنت أشرت في محاضرتي إلى مقال لفرويد ، فوقف أستاذ في علم النفس ، أثناء فترة الأسئلة ، وقال : « لقد أشرتم إلى مقال لفرويد ، تأييداً لنظرية دينية ، هل حين يعارض (فرويد) معارضة كاملة تلك النظرية التي تمثلونها » .

ومن الممكن إثارة هذا السؤال ، حول هذا الكتاب ، على نطاق أوسع . فهناك اقتباسات كثيرة وردت فيه ، ومن الجائز ألا يوافق أصحابها على النتائج التي توصلت إليها . وعلى منبيل المثال : الاقتباس الذي ورد في آخر الباب الخامس « دليل الآخرة » . ولكن هذا الاعتراض غير ذي موضوع ، لأن المؤلف لا يدعى أن هذه الشخصيات تؤيد قضاياه .. وبكلمة أخرى ، لم يقل المؤلف : إن هذه القضية ، أو تلك ، صادقة لأن فلاناً يصدقها أو

يؤيدها . وعلى العكس من ذلك ، فإن جميع هذه الاقتباسات قد استعملت توضيحاً للدليل أو قضية ، فقد يعبر المؤلف عن قضية معينة بالقاطعة تارة ، وقد يستعمل ألفاظ الآخرين حتى يبين الموضوع ، تارة أخرى . .

والانجاءات التي تمثلها هذه الاقتباسات ليست بآراء ذاتية لأصحابها ، وإنما هي كشوف علمية ، يمنحها الملحدون معاني مختلفة . أما نحن فقد جمعناها حين شعرنا أنها في صالح الدين . وأما الاقتباسات التي تؤيد الدين صراحة ، فأكثرها لعلماء يدينون بالمسيحية ؛ ولا عجب ، فهم يشاركوننا في كثير من العقائد السماوية .

. . .

وواضح من عنوان الكتاب ، أنه يهدف إلى إثبات أحقية الدين أمام الفكر المادى الجديد . وهذا الإثبات يتخذ لنفسه أسلوبين ، أولهما : أن نستدل بأن الدين ليس (مادياً) ، بل فوق المادة ، وبناء على ذلك ليس للعلوم المادية أن تعترض طريق الدين . وقد أصبح هذا الاستدلال في غاية القوة ؛ حيث إن العلماء قد اعترفوا في هذا القرن : « بأن العلوم المادية لا تعطى إلا علماً جزئياً عن الحقائق » . ومغزاه أنه ، بناء على اعتراف هذه العلوم نفسها ، هناك حقائق أخرى ، لا تستطيع العلوم المادية الوصول إليها ، ومنها حقائق الدين . ويعتبر كتاب « ج. و. ن . سوليفان » خير محاولة في هذا الموضوع ، وسوف نستعرضه في الباب السابع من هذا الكتاب .

وأما الطريقة الأخرى لإثبات حقائق الدين ، فهي اتباع نفس الطرق العلمية التي يتبعها العلماء الملحدون لإثبات معتقداتهم . وقد ذكر المؤلف أهمية أكثر على هذا الجانب . . فهو يرى : أنه لا بد من اتباع نفس أساليب الاستدلال التي يستغلها الملحدون ، حتى يمكن إثبات حقبة الدين .

. . .

وهناك ناحية أخرى لا بد من توضيحها هي أن الأسلوب الذي سلكه الكتاب قد يكون غريباً على بعض الأذهان ، من علماء الدين . وإذا كان الأمر كذلك ، فلن أقول : إنه لا بد من مراعاة حقيقة ؛ هي أن هذا الكتاب لا يستهدف تفسير الدين ، بل هو وليد ضرورة كلامية ؛ فالأسلوب الذي يسلك عند تفسير الدين أمام أصحاب القطر الدينية المؤمنة ، غير الأسلوب الذي يستعمل عندما يكون الحاضرون ممن يزعمون أن الدين خدعة وأضحوكة وتخدير للشعوب ، فكلما أردنا مواجهة الأسئلة التي تثار ضد الدين ، كان لا بد من تغيير لمجتنا ولغتنا ، بتلك التي يستغلها الأعداء ، حتى نستطيع أن نقف أمام العواصف . وعلينا ألا ننسى أن طريقة

رى براما على أن أعترف بجميل زميلين من الرفاق - مهدياً
.. «حساب - وهما من الشخصيات اللامعة التي عرفت بخدمة الإسلام في الربع الأخير
من هذا القرن . . وهما : مولانا أبو الأعلى المودودي ، ومولانا السيد أبو الحسن علي الحسيني
الندوي . فالفضل يرجع إلى الأستاذ المودودي في أنه كان المحرك الذي حثني - بطريقة غير
مباشرة - على أن أضحي بحياتي لخدمة الإسلام منذ خمسة عشر عاماً ، في أدق مرحلة
من مراحل حياتي . . وأما الأستاذ الندوي فهو الذي حملني على القيام بهذا العمل ، فجزاهما الله
خير جزاء . .

وحيد الدين خان

لكتاؤ

في ٢٦ أغسطس ١٩٦٤

الباب الأول

قضية معارضى الدين

« تعتبر التطورات العلمية التي حدثت في القرن الماضي ، انفجاراً معرفياً ، Knowledge Explosion في وجه جميع الأساطير الإنسانية عن الآلهة والدين كما تفجرت الأفكار القديمة عن المادة ونسفت بمجرد تفجير الذرة » . . . هذه هي قضية العلم الحديث الموجهة إلى الدين كما يقول البروفيسور جوليان هكسلي^(١) . وتعتبر الصفحات التالية رداً على هذا التحدي ؛ فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين ، ولم تنجح من أية ناحية في الإساءة إليه . بل إن جميع ما وصل أو سيصل إليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما أسماه الإسلام : « بالحقيقة الأخيرة » قبل أربعة عشر قرناً من الزمان :

« سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »^(٢) .

• • •

والدين ، كما يزعم الملحدون من العلماء : شيء « لا حقيقة له » ، وهو مظهر للفريزة الإنسانية الباحثة عن حقائق الكون ، والتي تحاول تفسيره . إن هذه الفريزة الإنسانية ن ذاتها شيء « مستحسن » ، ولكن المعلومات والوسائل المحدودة قد انتهت بأجدادنا إلى إجابات غير صحيحة ، وهي التي تحتويها الآن أفكارهم عن الإله والدين . أما اليوم ، وبعد ما توفرت لدينا الوسائل العلمية ، وأصلحت المعلومات الحديثة شيئاً كبيراً من معتقداتنا الاجتاعية والحضارية ، فقد حان الوقت لتعيد النظر في جميع ما وصل إليه أجدادنا من أفكار .

• • •

ويلهب الفيلسوف الفرنسي « أوجست كوت » - الذي نشأ في النصف الأول من القرن التاسع عشر - إلى أن تاريخ تطور الفكر الإنساني ينقسم إلى ثلاث مراحل :

Hindustan Times, Sunday Magazine, Sept 24, 1961. (١)

(٢) فصلت / ٥٣ .

الأولى : المرحلة اللاهوتية (Theological Stage) وهي التي فسرت الأحداث فيها باسم الإله .

والثانية : المرحلة الميتافيزيقية : وفيها فسر الإنسان الأحداث باسم « عناصر خارجية » ، لا يعلمها ، ولكنه لا يذكر اسم الإله .

والثالثة : المرحلة الوضعية (Positive Stage) : التي أخذ الإنسان يفسر فيها الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة ، يمكن إدراكها بالمطالعة ، أو بالمشاهدة العلمية . وفي هذه المرحلة لا تذكر « الأرواح والآلة والقوى المطلقة » . ونحن ، بناء على هذا ، نعيش في المرحلة الثالثة التي تسمى في الفلسفة الحديثة بالوضعية المنطقية (Logical Positivism) . إن نظرية « الوضعية المنطقية » أو التجريبية العلمية (Scientific Empiricism) لم تعرف كحركة علمية عالمية إلا خلال العقد الرابع من القرن الحاضر ، ولكنها ، كفكرة ، نشأت قبل ذلك بسنين طويلة . وعلى ظهور هذه الفكرة نجد أسماء كبار العلماء والفلاسفة من أمثال : هيوم ، وميل ، إلى برتراند رسل . وقد أصبحت هذه الفكرة اليوم ، بفضل العدد الكبير من المؤسسات العلمية التي تقوم بدور فعال في الدعاية لها ، من أهم الحركات العلمية الحديثة . ويقول أحد الباحثين :

« كل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب . بحيث يمكن فحصها أو إثباتها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة »^(١).

وبناء على هذا يدعى معارضو الدين أن التطور الذي بلغ به الإنسان اليوم أعلى مستوى من الإنسانية ، هو نتى للدين من تلقاء نفسه . . . والسرى ذلك أن الأفكار المتطورة الحديثة تؤكد أن « الحقيقة » ليست إلا ما يمكن فحصه وتجربته علمياً . وقد قام الدين على « حقيقة » لا سبيل إلى مشاهدتها وفحصها علمياً ، وبعبارة أخرى : إن التفسير اللاهوتى للأحداث والوقائع لا يمكن إثباته بالوسائل العلمية ، فهو باطل لا حقيقة له . ويترب على هذا القول بأن : « الدين تفسير زائف لوقائع حقيقية » ؛ ذلك أن علم الإنسان القديم المحدود لم يقدم التفسير الحقيقى للأحداث ، على حين أن القانون العام للتطور أتاح لنا أن نبحث عن الحقائق بالوسائل التجريبية الصحيحة .

ويمكن أن نقول هذا الكلام بأسلوب آخر : إن موقف علماء الأديان القديمة أشبه برجل يكتب « شيكاً لا رصيد له في المصرف » ، فهم قد صاغوا عبارات ليس وراءها حقائق علمية ، فعبارة (الحقيقة العليا غير المتغيرة) صحيحة نمحراً ، ولكن ليس لها أى أساس علمى^(٢).

Dictionary of Philosophy, N.Y., p. 285. (١)

Religion And The Scientific Outlook, p. 20. (٢)

« لقد أثبت (نيوتن) أنه لا وجود لإله يحكم النجوم . وأكد (لابلاس) بفكرته الشهيرة أن النظام الفلكي لا يحتاج إلى أى أسطورة لاهوتية . وقام بهذا الدور العالمان العظميان (دارون) و (باستور) في ميدان البيولوجيا . وقد ذهب كل من علم النفس المتطور والمعلومات التاريخية الثمينة التي حصلناها في هذا القرن بمكان الإله ، الذي كان مفروضاً أنه هو مدير شئون الحياة الإنسانية والتاريخ »^(١) .

لقد قامت قضية معارضى الدين على أسس ثلاثة :

الأساس الأول : بطل هذا الانقلاب في البيولوجيا هو (نيوتن) ، الذي عرض على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة : تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية . ثم جاء بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالاً علمياً أوسع ، حتى قيل : إن كل ما يحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم : سموه « قانون الطبيعة » . فلم يبق للعلماء ما يقولون ، بعد هذا الكشف ، غير أن الإله كان هو المحرك الأول لهذا الكون . وضرب (والثير) مثلاً في هذا الصدد : أن الكون كالساعة يرتب صانعها آلياتها الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها ، ثم تنقطع صلتها بها . ثم جاء (هيوم) فتخلص من هذا الإله الميت ، وعلى حد قوله : « لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع ، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع ، فكيف نسلم بأن له صانعاً ؟ »

• • •

لقد جلى التطور العلمى للإنسان كثيراً من سلسلة الأحداث التي لم يشاهدها من قبل . فهو لم يكن على علم بأسباب شروق الشمس وغروبها ، حتى زعم أن هناك قوة فوق الطبيعة تجعلها تشرق وتغرب . وما قد عرفنا اليوم أن شروق الشمس وغروبها يحدث لدوران الأرض حول نفسها ، وبذلك انتهت ضرورة القول بهذه الطاقة تلقائياً ، بعدما عرفنا الأسباب المؤدية إلى هذه الحركة الكونية . « فإذا كان قوس قزح مظهراً لانكسار أشعة الشمس على المطر ، فإذا يدعونا إلى القول بأنها آية الله في السماء » .

من أجل هذا كله ، وغيره ، قال هكسلي :

« إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة »^(٢) .

• • •

Religion Without Revelation, N.Y., 1958, p. 58. (١)

Religion Without Revelation, N.Y., 1958, p. 58. (٢)

والأساس الثاني : وقد ازداد العلماء يقيناً بعد البحوث العلمية في ميدان علم النفس ، حين توصلوا إلى نتائج تثبت أن الدين نتاج اللاشعور الإنساني ، وليس انكشافاً لواقع خارجي . ويقول عالم كبير من علماء النفس :

« God is nothing but a projection of man on a cosmic screen »

« ليس الإله سوى انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون » . وما عقيدة الدنيا والآخرة إلا صورة مثالية للأمانى الإنسانية ، وما الوحي والإلهام إلا إظهار غير عادي لأساطير الأطفال المكبوتة (Childhood Repression) (١) .

• • •

ويرى علم النفس الحديث أن العقل الإنساني مركب من شيئين هما : (الشعور) ، وهو مركز الأفكار التي تخطر على قلوبنا في ظروف عادية ، و (اللاشعور) وهو مخزن الأفكار التي مرت بنا ونسيناها ، ولا تظهر إلا في أحوال غير عادية ، كالجنون والهستيريا . وهذا القسم الثاني أكبر بكثير من الأول . ويمكن أن نمثل لهما بجبل من الجليد ، فلو قسمناه تسعة أجزاء لكان منها ثمانية في جوف البحر ، ولظهر جزء واحد على السطح .

اكتشف فرويد بعد جهد طويل أن اللاشعور قد يقبل أفكاراً في الطفولة ، وتؤدي إلى أعمال غير عقلية . وهذا ما يحدث بالنسبة إلى العقائد الدينية : فإن فكرة الجحيم والجنة ترجع إلى صدى الأمانى التي تنشأ لدى الإنسان إبان طفولته ، ولكن لم تسنح له الفرصة لتحقيقها ، فتبني دفينه في اللاشعور ، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياة أخرى يتيسر له فيها تحصيل ما كان يتمناه ، شأن الرجل الذي قد لا يظفر بما يجب في الواقع فيحصله في المنام . وهكذا خرجت عقلة الضرفة بين الصغير والكبير (Father complex) - من الجرائم الاجتماعية ، فصاغوا منها نظرية على مستوى الكون والسماء .

ويقول رالف لتون :

« إن عقيدة القادر المطلق الظالم في نهاية الأمر ، الذي لا يرضى إلا بالطاعة الكاملة والوفاء ، كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامى . لقد خلق هذا النظام جيروناً غير عادي . وكانت نتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم ضخمة مفصلة عن المحرمات في كل مجال من الحياة الإنسانية . وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين كانوا يتقبلون أحكام آبائهم العمياء ويطيعونها . وما للتصور الإلهي (اليهودي) إلا خيال مثالي لأب سامى ، مع شيء من المبالغة والتجريد في الأوصاف والطاقت » (٢)

Iqbal Review, April, 1962. (١)

Tree of Culture, Ralph Linton. (٢)

والأساس الثالث : لقضية معارضى الدين هو : (التاريخ) . يقولون : إن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالإنسان ، فلم يكن في استطاعته أن يقلت من السهول والأعاصير والطوفانات والزلازل والأمراض ، فأوجد (قوى فرضية) يستقيها ، لتقله من البلايا النازلة . وهكذا ظهرت الحاجة إلى شيء يجمع الناس حوله ، ولا يفرقون ، فاستغل اسم (الإله) الذى تفوق قوته قوة الإنسان ، ويهرع الجميع إلى رضاه) .

يقول محرر دائرة المعارف العلوم الاجتماعية تحت اسم «الدين»
« وبجانب المؤثرات الأخرى التى ساعدت في خلق الدين ، فإن إسهام الأحوال السياسية والمدنية عظيم جداً في هذا المجال . إن الأسماء الإلهية وصفاتها خرجت من الأحوال التى كانت تسود على ظهر الأرض . فعبدة كون الإله « الملك الأكبر » صورة أخرى للملكية الإنسانية ، كذلك الملكية السايوية صورة طبق الأصل للملكية الأرضية . وكان الملك الأرضى القاضى الأكبر ، فأصبح الإله يحمل هذه الصفات : ولقب « بالقاضى الأكبر الأخير » ، الذى يجازى الإنسان على الخير والشر من أعماله . وهذه العبادة القضائية التى تؤمن بكون الإله محاسباً ومجازياً لا توجد في اليهودية فحسب ، وإنما لها مقامها الأساسى في العقائد الدينية ، المسيحية والإسلامية »^(١) .

• • •

« لقد خلق العقل الإنسانى الدين ، وأتم خلقه : في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية » . ويضيف جوليان هكسلى إلى هذا قوله :
« فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته »^(٢) . ويقول أيضاً :

« إن هذه البيئة قد فات أوانها أو كاد ، وقد كانت هى المسئولة عن هذا التعامل ، فأما بعد فاتها وانتهاء التعامل معها فلا داعى للدين » ، ويضيف : « لقد انتهت العبادة الإلهية إلى آخر نقطة نفيدنا ، وهى لا نستطيع أن نقبل الآن أية تطورات ، لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين ، جاء بالسحر ، ثم بالعمليات الروحية ، ثم بالعبادة الإلهية ، حتى اخترع فكرة (الإله الواحد) . وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته . ولاشك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا ، بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ، ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور »^(٣) .

• • •

Encyclopaedia of Social Sciences, 1957, Vol. 13, p. 233. (١)

Man in the Modern World, p. 130. (٢)

Ibid. p. 131. (٣)

وترى الفلسفة الشيوعية أن الدين « خدعة تاريخية » ، وهى تركز الأسباب فى عوامل اقتصادية ، لأنها تنظر إلى التاريخ فى ضوء الاقتصاد . وهى ترى أن العوامل التاريخية التى خلقت الدين هى النظام البورجوازي الاستعماري القديم . وهذا النظام القديم يلقى اليوم حتفه . فلندع الدين أيضاً يذهب معه .

يقول فيلسوف الشيوعية انجلز :

« إن كل القيم الأخلاقية هى فى تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية »^(١)
فالتاريخ الإنسانى هو تاريخ حروب الطبقات التى امتص فيها البورجوازيون دماء الفقراء ، وقد كانت الغاية من وضع الدين والأسس الأخلاقية حماية حقوق البورجوازيين .

ويقول البيان الشيوعى : (Communist Manifesto) :

« إن الدستور والأخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية ، وهى تتستر وراءها من أجل مطامعها » .

ويقول لينين فى خطاب له ألقاه فى المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعى فى أكتوبر سنة ١٩٢٠ :

« إننا لا نؤمن بالإله ، ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبورجوازيين لا يحاطبونا باسم الإله إلا استغلالاً ، ومحاظفة على مصالحهم ، إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التى صدرت عن طاقات وراء الطبيعة ، غير الإنسان ، والتى لا تتفق مع أفكارنا الطبقيّة ، وتؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال ، لصالح الاستعمار والإقطاع ، ونعلن أن نظامنا لا يتبع إلا ثمرة النضال البروليتارى ، فبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقيّة البروليتارية »^(٢).

كانت هذه هى قضية معارضى الدين ، التى يزعم بعض العلماء الجدد بناء عليها ما يمكن تلميحاً فى كلمة أستاذ أمريكى فى طب الأعضاء :

« Science has shown religion to be history's crueliest and wickedest hoax. »

« لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة فى التاريخ »^(٣) .

ولسوف ننظر فى مدى صحة هذه القضية على أسس علمية فى الباب الآتى ، إن شاء الله .

• • •

Anti Duhring, Moscow, 1954, p. 131.

(١)

Lenin, Selected Works, Moscow, 1947, Vol. II, p. 667.

(٢)

Quoted by CA Coulson, Science & Christian belief, p. 4.

(٣)

الباب الثاني

نقد قضية المعارضين

عرضنا في الباب الأول قضية المعارضين : الذين يزعمون أنه لا داعي لأن يبقى الدين في عصرنا الحاضر . والحقيقة أن هذه القضية لا تقوم على أساس : ولسوف نتناول في الأبواب الآتية ، أفكار الدين الأساسية ، واحدة واحدة : لننظر في مدى حقيقتها ، كما كانت قبل العصر الحديث .

واليكم نقداً عاماً لقضية المعارضين :

أولاً : حقيقة الطبيعة :

لنتكلم أولاً في الدليل الذي يعرض باسم البيولوجيا ، وهو أن الحوادث تحدث طبقاً (لقانون الطبيعة) . فلا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلماً مجهولاً . إن أحسن ما قيل في هذا الصدد ما قاله عالم مسيحي : « Nature is A Fact, Not An Explanation. » « إن الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيراً (له) » . لأن ما كشفتم ليس بياناً لأسباب وجود الدين . فالدين يبين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التي تدور « وراء الكون » . وما كشفتموه هو الميكل الظاهر للكون . إن العلم الحديث تفصيل لما يحدث ، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع . فكل مضمون العلم هو إجابة عن السؤال : « ما هذا ؟ » ، وليس لديه إجابة عن السؤال : « ولكن لماذا ؟ » . وإن التفسير الذي نحن بصدده هنا يتعلق بالأمر الثاني .

لنفهم هذا من مثال بسيط . فالكوكوت يعيش أيامه الأولى . داخل قشرة البيضة القوية : ويخرج منها بعد ما تنكسر مضغطة لحم ، كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخذه . ولكننا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه في اليوم الحادى والعشرين يظهر قرن صغير على مقار الكوكوت : يستعمله في تكسير البيضة : لينطلق خارجاً منها : ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة .

هذه المشاهدة ، كما يزعم المعارضون ، أبطلت الفكرة القديمة القائلة : بأن الإله يخرج الكتكوت من البيضة ، إذ قد رأينا بيقيناً أن قانوناً لواحد وعشرين يوماً يحدث هذه العملية . والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا إلا على حلقات جديدة للحدث ، ولا تكشف عن سببه الحقيقي ، فقد تغير الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن تكسر ' بيضة ' بل عن (القرن) ؟ . إن السبب الحقيقي سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن ، العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة ، فحين لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلا أنه « مشاهدة للواقع على نطاق أوسع » ، ولكنه ليس تفسيراً له .

يقول البروفسور (سيسيل بايس هامان) ، وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا :

« كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءاً من البدن تنسب من قبل إلى الإله ، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلاً كيمياوياً ، هل أبطل هذا وجود الإله ؟ فإلى القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلاً مفيداً ؟ . . . إن الغذاء بعد دخوله في الجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي ، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض . فقد صار حتماً علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة ؟ » . (١)

كان الإنسان القديم يعرف أن السماء تمطر ، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر ، حتى نزول قطرات الماء على الأرض ، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع ، وليست في ذاتها تفسيراً لها ، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين ؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المبهمة المدهشة ، حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية ؟ والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون - ليس سوى خدعة لنفسه ، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة .

ويضيف العالم الأمريكي سيسيل قائلا :

« Nature does not explain, she is herself in need of explanation. »

« إن الطبيعة لا تفسر شيئاً (من الكون) ، وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير . »

فلو أنك سألت طبيياً : ما السبب وراء احمرار الدم ؟

لأجاب : لأن في الدم خلايا حمراء ، حجم كل خلية منها يساوي حجم البوصة !

— حسناً ، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء ؟

— في هذه الخلايا مادة تسمى (الهيموجلوبين) وهي مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين في القلب .

— هذا جميل . ولكن من أين تأتي هذه الخلايا التي تحمل الهيموجلوبين ؟

— إنها تصنع في كبدك .

— عجيب ! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها ، بعضها ببعض ارتباطاً كلياً ، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة ؟
— هذا ما نسميه بقانون الطبيعة .

— ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا ، يا سيدى الطيب ؟

— المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكأونية .

— ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائماً إلى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظم نشاطها ، حتى تطير الطيور في الهواء ، ويعيش السمك في الماء ، ويوجد إنسان في الدنيا ، بجميع ما لديه من الإمكانيات والكفاءات العجيبة المثيرة ؟

— لا تسألنى عن هذا ، فإن علمى لا يتكلم إلا عن : (ما يحدث) ، وليس له أن يجيب :
(لماذا يحدث ؟) .

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون . ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء التي لم تكن على معرفة بها ، ولكن الدين جواب لسؤال آخر ، لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلمية ، فلو أن هذه الكشوف زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الإنسانية بحاجة إلى الدين ، إن جميع هذه الكشوف « حلقات ثمينة من السلسلة » ، ولكن ما يحل محل الدين لابد أن يشرح الكون شرحاً كلياً وكاملاً . فما الكون على حاله هذه إلا كتل مأكينة تدور تحت غطائها ، لا نعلم عنها إلا أنها (تلور) ، ولكننا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه المأكينة بدوائر وتروس كثيرة ، يدور بعضها ببعض ، ونشاهد حركاتها كلها . هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه المأكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها ؟ هل يفهم منطقياً أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن المأكينة جاءت من تلقاء ذاتها ، وتقوم بدورها ذاتياً ؟ لو لم يكن هذا الاستدلال منطقياً فكيف إذن تثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون — أنه جاء تلقائياً ، ويتحرك ذاتياً ؟ . .

لقد استغل البروفيسور هريز (A. Harris) هذا الاستدلال حين نقد فكرة داروين عن النشوء والارتقاء ، قال :

« إن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسر عملية (بقاء الأصلاح) ، ولكنه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الاصلاح : (١) .

ثانياً : الاشعور ودليل علم النفس :

لنعالج الآن الدليل الذى يقدمه علم النفس والقاتل بأن الإله والآخرة قياس للشخصية الإنسانية وأمانها على مستوى الكون . ولست بمستطيع أن أدرك نقطة الاستدلال فى هذا الدليل . ولو أنني ادعيت - بدورى - أن الشخصية الإنسانية وأمانها موجودة فعلا على مستوى الكون فليست أدري ما عسى أن يطل ادعائى هذا من منطق المعارضين ؟ !

نحن نعرف أن مادة (الجنين) التى لا تشاهد إلا بالمنظار تنبئ فى ذاتها عن إنسان طوله ٧٢ بوصة ، وأن (الذرة) التى لا تقبل المشاهدة تحتوى نظاما رياضيا كونيا يدور عليه النظام الشمسى ، فلا عجب إذن أن يكون النظام الذى نشاهده على مستوى الإنسان فى الجنين ، وعلى مستوى النظام الشمسى فى الذرة موجوداً أيضاً ، وبصورة أكمل على مستوى الكون . إن ضمير الإنسان وفطرته يشدان عالماً متطوراً كاملاً ، فلو كان هذا الأمل صدى لعالم حقيقى فليست أرى فى ذلك أى ضرب من ضروب الاستحالة ! !

(١) لاشك فى قول العلماء: إن الذهن الإنسانى يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد فى صورة غير عادية . ولكن سوف يكون قياساً مع الفارق أن نعتد على هذه الفكرة كى نبطل الدين . فهو قياس فى غير محله ، وهو يعتبر استدلالاً غير عادى من واقع عادى . فهو أشبه بمن يشاهد مثلاً يصنع صنفاً فيصرخ : هذا هو الذى قام بعملية خلق الإنسان .

ومن معاييب الفكر الحديث أنه يستنبط من حادث عادى دليلاً غير عادى ، فهذا الدليل لا وزن له من الناحية المنطقية ، ولو افترضنا أن رجلاً يسير فى شارع أخذ بهذى بكلام غريب نتيجة لأفكار مخترنة فى ذهنه ، فهل يمكن أن نستغل هذا الحادث فى البحث فى كلام الأنبياء ، وهو الكلام الذى يكشف سر هذا الكون . ؟ ؟ سوف يكون هذا الاستدلال غير علمى ، وغير منطقى ، وسوف يدل على أن صاحبه ينتقل إلى القيم حتى يستطيع التفرقة بين كلام رجل الشارع وكلام الأنبياء ، فلا يدعى أن هذا الهذيان هو المسئول عما جاء به الدين .

فالقيم تتغير ذاتياً بتغير الأوضاع ، ومن الخطأ الظن بأنها لا توجد إلا عند أصحاب الفكر الحديث .

ولتخيل أن رهطاً من سكان بعض النجوم هبط الأرض ، وهم يسمعون ، ولكنهم لا يقدرّون على الكلام ، ولتصور أنهم يذهبون فيبحثون عن الأسباب المؤدية إلى تكلم الإنسان ، وبينما هم في طريقهم إلى هذا البحث هبت الرياح ، واحتك غصنان ، أحدهما مع الآخر ، فتج صوت ، وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح ، وإذا بهم يعلن كبيرهم : لقد عرفنا سر كلام الإنسان ، وهو أن فيه يحتوى على فكين من الأسنان ، فإذا احتك الفك الأعلى بالأسفل صوت ! ولا شك أنه إذا احتك شيء بالآخر يحدث صوتاً ، ولكن هذا الواقع لا يكشف عن سر الكلام الإنسانى ، كما لا يصح تفسير أسرار النبوة بكلام غريب - كهذيان رجل الشارع ، في حال الجنون أو الهستيريا .

(ب) واللاشعور الإنسانى - من الوجهة العلمية - فراغ في أصله ، لا شيء فيه قبل مولد الإنسان ، وإنما يستقر فيه عن طريق الشعور ما يشغله الآن ، لأن (اللاشعور) ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التي شاهدها الإنسان في حياته ، ولو مرة ، ومن المستحيل أن يحتزن حقائق لم يعلمها من قبل . والذي يثير الدهشة أن الدين الذى جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تحظر على بال أحد من الناس في أى زمان ، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات ، فمن أين يأتى بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلى العلم بها ؟

إن الدين الذى جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة - الطبيعة ، والفلك ، وعلم الحياة ، وعلم الانسان ، وعلم النفس ، والتاريخ والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرها من العلوم ، وكل حديث في التاريخ الإنسانى مصدره (الشعور) ، فضلاً عن اللاشعور ، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة . أما الكلام النبوى فإنه برى ولا شك من كل هذه العيوب ، رغم اتصاله بجميع العلوم ، ولقد مرت قرون إثر قرون ، أبطل فيها الآخرون ما ادعاه الأولون ، ومازال صدق كلام النبوة باقياً على الزمان ، ولم يستطع أحد أن يدل على باطل جاء به ، وكل من حاول ذلك أخفق .

وإليكم مثالا من هذا القبيل اعتمد عليه فلكى كبير ، حتى ادعى أنه كشف غلطة علمية في القرآن الكريم .

يقول (جيمز هنرى بريستد) :

« لقد راج التقوم القمرى في الدنيا لكثرة تداوله في غرب آسيا ، ولغلبة الإسلام سياسياً بوجه خاص ولقد مضى محمد (صلى الله عليه وسلم) بالاختلاف بين التقوم القمرى والشمسى إلى أقصى حد من العبث يمكن تصوره ، حتى إنه أبطل إضافة الشهور الكييسة

(Intercalary months). إن السنة القمرية المزعومة تشتمل على ٣٥٤ يوماً ، وتقل أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية. وهكذا تزيد السنة القمرية سنة واحدة كل ٣٣ سنة ، وثلاث سنين في كل قرن. فلو حل رمضان في يونيو في هذه السنة فسوف يحل بعد ست سنين في أبريل .

لقد مضى ١٣١٣ عاماً منذ^(١) الهجرة ، حيث إن قرننا (الميلادي) هو بمثابة مائة سنة وثلاث سنين في تقويم المسلمين ، وقد سجل تقويمهم واحداً وأربعين عاماً زائداً في هذه المدة من قرننا . وقد ألغت كنيسة اليهود الشرقية هذه السخافة واختارت طريقة إضافة الشهور (Intercalation) لتجعل تقويمها مثل التقويم الشمسي ، وهذا هو السبب في أن غرب آسيا يعاني حتى الآن لعنة هذه الطريقة القديمة - التقويم القمري^(٢).

لسنا هنا بصدد مناقشة الفرق بين التقويم القمري والشمسي ، ولكن لابد من توضيح أن ما نسبته المؤلف إلى رسول الإسلام هو في الحقيقة غفلة شديدة ترجع إلى المؤلف نفسه ، ولم يمنع القرآن الكريم إضافة (الشهور الكيسية) ، وإنما حرم النسي^{*} (التوبة : ٣٨) ، ومعناه في اللغة : (التأخير) ، ومنه : (نساء الدابة) عن الخوض لكي تشرب الأخرى ، ومعناه في الاصطلاح : (تأخير شهر وتقديم شهر آخر عليه) .

لقد كان من بين العادات الكريمة التي دعا إليها إبراهيم عليه السلام العرب تحريم أربعة أشهر لا قتال فيها ولا جدال ، وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والحرم ، ورجب ، وقد كان العرب يسافرون في هذه الأشهر بكل حرية ، لكي يؤدوا فريضة الحج والعمرة . وحين دب الفساد في بعض القبائل ، اخترعوا بدعة (النسي^{*}) ، وهي أن يضعوا شهراً غير حرام محل الشهر الحرام ، كأن يجعلوا صفر في مكان المحرم ، وذلك لكي يجاربوا قبيلة يلزم قتالها في الشهر الحرام . وهذه هي البدعة المقيتة التي وصفها القرآن الكريم بأنها : (زيادة في الكفر) .

وقال العلماء : إن الشهور الكيسية كانت رائجة في العرب ، وكانوا يضيفون عدد الشهور في السنة للتقويم .

وقال مفسر للقرآن الكريم في هذا الموضوع ، وهو مولانا شبير أحمد عثمان في تفسيره : « إن بعض القبائل تضيف الشهور الكيسية كل ثلاثة أعوام ليستقيم التقويم القمري ، ولا يدخل هذا العمل في النسي^{*} » .

إن ما قاله رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم في عهد الظلام لم يكن من الجهالة ، ولا يدخل

(١) كان ذلك في عام ١٩٣٥ م .

(٢) Time and its Mysteries, N.Y., 1962, p. 56.

قطعا في نطاق ما أورده (جيمز هنرى بريستد) طعناً عليه ، ولو كان كلامه صلى الله عليه وسلم صادرا عن الشعور أو اللاشعور لوقعت فيه أخطاء ، ما من ذلك بد .

• • •

ثالثاً : الاستدلال بالتاريخ والاجتماع :

إن الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع خطاهم الأساسي أنهم لا يدرسون الدين من وجه صحيح ، ولهذا يبدو لهم الدين شيئاً غريباً ، ومثال ذلك أن ترى شيئاً مربعا من زاوية منحرفة فيترامى لك مثلاً . إن الخطأ الذي يقعون فيه هو أنهم يتناولون الدين على أنه « مشكلة موضوعية Objective Problem » ، فهم يجمعون في سلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم (الدين) ، من رطب ويابس ، في أى مرحلة من التاريخ ، ثم يتأملون في ضوء هذا المحصول حقيقة الدين !! إن موقفهم ينحرف من أولى مراحل ، فيبدو لهم الدين - جراء هذا الموقف الفاسد - عملاً اجتماعياً ، لا كشفاً لحقيقة ، ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقة من الحقائق مثلاً أعلى ، ولا بد عند البحث عن هذه الحقائق أن تدرس مظاهرها وتاريخها في ضوء مثله الأعلى . أما الأمور التي تأتي بها أعمال اجتماعية فليس لها مثل أعلى . وبقاؤها رهن بحاجة المجتمع إليها .

والدين يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليس من الممكن البحث عن حقائقه ، كما يبحث عن تطورات فنون العبارة والنسيج والحياكة والسيارات ، لأن الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها ، أو يقبلها في شكل ناقص ، ويبقى الدين في جميع هذه الأحوال حقيقة واحدة في ذاتها ، وإنما يختلف في أشكاله المقبولة ، ولهذا لا يمكن أن تفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الأشكال الموجودة في المجتمعات باسم الدين .

ولنأخذ - على سبيل المثال - لفظ (الجمهورية) . فهي قيمة سياسية لنظام خاص بالحكم ، وفي ضوء هذه القيمة نستطيع أن نحكم على بلاد بأنها جمهورية ، أو بأنها ليست كذلك . لكننا لو ذهبنا نبحث عن معاني (الجمهورية) في النماذج السياسية التي توجد عبر القارات ، ولتصن بها لفظ (الجمهورية) ، ثم زعمنا أن كل هذه البلاد قائمة (على أسس جمهورية) . سوف تصبح كلمة «الجمهورية» بلامعنى . ففي هذه الحالة ستختلف (جمهورية) الصين عن (جمهورية) الولايات المتحدة الأمريكية ، وستعارض (جمهورية) إنجلترا (الجمهورية) العربية المتحدة ، كما أن (جمهورية) باكستان ستصطدم (بالجمهورية) التي تلتزم بها الهند . وإذا تأملنا كل هذه المشاهدات في ضوء (فلسفة التطور) فإن هذه الكلمة سوف تفقد معناها حتماً ، لأن فرنسا التي أنجبت النظام الجمهوري سوف تبرهن على أن (الجمهورية) بعد (نشوتها وارتقائها) تتمثل في ديكتاتورية ديحول العسكرية .

وهذا النهج في التناول يؤدي إلى نتيجة غريبة ، هي أنه لا حاجة إلى (الإله) في الأديان !!

لذ يوجد مثال لهذا في تاريخ الأديان وهو مثال البوذية ، التي تخلو تماماً من فكرة (الإله) . ومن ثم آمنت جماعة من الناس بضرورة البحث عن دين مجرد من الإله ، ولو أننا سلمنا بالفكرة القائلة بأن شيئاً مثل (الدين) لابد منه للإنسان ، لحاجته إلى الوعي الخلقى والتنظيم الاجتماعى ، فلا داعى إذن للإله أن يوجد ، وربما قيل : « إن الدين الذى يصح لهذا العصر يلزم أن يكون مثل البوذية ، فإن إله العصر الحاضر هو (مجتمعه وأهدافه السياسية) ، ورسول هذا الإله هو (البرلمان) الذى يوجه الشعب إلى ما يرضيه ، ومعابد هذا الإله العصرى ليست المساجد أو الكنائس القديمة ، وإنما هي المصانع الكبيرة والسلود العظيمة »^(١)

إن لهؤلاء الباحثين الاجتماعيين المزعومين قدرة كبيرة على خلق هذه الأفكار الجديدة ، التي تنتقل من (دين الإله) إلى فكرة (الدين بغير الإله) . وذلك ناشئ عن الطريق الموجهة التي سلكها بحسبهم ، وهم ينمضون أعينهم عن جميع النواحي العلمية الأخرى التي تلقى ظلالاً من الشكوك حول جدالهم الارتقائية . ومثاله أن علماء الاجتماع والإنسان قد توصلوا بعد أبحاثهم الفنية الدقيقة إلى أن (نظرية الإله) شكل ارتقائى لفكرة تعدد الآلهة ، غير أن هذا الارتقاء ضل طريقه واتجه إلى طريق غريبة ، وحير العلماء كما شوش أمره على نفسه ، بارتقائه الباطل من فكرة تعدد الآلهة إلى فكرة الإله الواحد .

إن فكرة تعدد الآلهة كانت تحمل قياً اجتماعية مؤداها أن يعيش مؤمنو الآلهة المختلفة فى سلام باعتراف متبادل ما بينهم ، « ولكن فكرة الإله الواحد أبطلت حتماً هذا الإمكان ، بخلفها نظرية الدين الأعلى (Higher Religion) ونتيجتها أن بدأت حروب ضارية لانهائية لها بين شعوب الدنيا ، وهكذا سعت فكرة الإله الواحد إلى حتفها بظلفها ، بارتقائها فى اتجاه مافاض ، وهذا هو قانون النشوء والارتقاء »^(٢)

ولكننا - فعلاً - قد تركنا الواقع الحقيقى فى هذا الجدول ، فالتاريخ المعلوم يثبت أن أول رسول معلوم كان سيدنا نوحاً عليه السلام ، وكان يدعو إلى الله الواحد . كما أن تعدد الآلهة (Polytheism) ليس فى درجة واحدة ، وإنما معناه : أن يشرك الإنسان مع الإله الأكبر آلهة آخرين . يقربونه إليه ، ويشفعون له . وفى وجود هذه الحقائق تتحول نظرية النشوء والارتقاء إلى ادعاء لا دليل عليه .

• •

وفكرة (ماركس) هي أكثر نظريات هذه المجموعة عبثاً ، فهي تقول : إن الأحوال الاجتماعية هي التي تقوم ببناء الإنسانية وتكليفها ، ومن ثم كان العصر الذى وجد فيه الدين

Religion without Revelation, Julian Huxley. (١)

Man in the Modern World, p. 112. (٢)

عصر الإقطاع والرأسمالية ، وهو عصر الاتهازين المصوص ، كما أن الأفكار الدينية والأخلاقية التي تولدت في هذا العصر تحمل نفس الطابع الاتهازي الاستعماري .
والحق أن هذه الفكرة ليست لها قيمة من الناحية العلمية ، كما أنها عند التحليل العلمي والتجربة العملية لا طريق إلى تصديقها .

فالفكرة الماركسية تنبئ بشدة إرادة الإنسان ، وهي تحيل الأحداث إلى تأثير عوامل الزمن الاقتصادية ، ومعنى ذلك أن الإنسان لا شخصية له ، فهو يصاغ في مجتمعه ، كما يصاغ الصابون في المصنع ، ولا طريق أمامه كى يشق أفكاراً وطرقاً جديدة ، وإنما هو ينطلق مفكراً على النهج الذى سمحت له به حياته الاقتصادية ، فإذا كانت هذه القضية صحيحة ، فكيف تمكن كارل ماركس - وليد النظام الرأسمالى - من أن يفكر ضد العوامل الاقتصادية الرائجة في عصره ؟ هل صعد القمر لكى يبحث في أحوال الأرض ؟

وبعبارة أخرى : لو صح أن الدين وليد عصر مخصوص فكيف لم تكن الماركسية وليدة النظام الاقتصادي لعصرها ؟؟ .. وإذا لم نسف هذا الوضع فيما يتعلق بالماركسية فكيف نسيغه بالنسبة إلى الدين ؟ .. الحق أن هذه الفكرة عبث مثير لا يحمل على ظهوره أى دليل علمى أو عقلى .

هذا وقد انتضحت أخطاء هذه الفكرة بالتجارب العملية . وحسبنا روسيا ، هنالك حيث سادت الماركسية نصف قرن من الزمان ، ادعت روسيا خلاله أن أحوال البلاد المادية قد تغيرت تماماً ، وأن النظام الزراعى ، والمبادلة ، وتقسيم الأموال ، قد جرت على أسس غير استغلالية ، ولكننا وجدنا حين مات ستالين أن قادة الروس أنفسهم قد أقروا بأن الظلم والفساد كانا رائجين في عهده ، وأنه كان يستغل الشعب كما يستغل الحكام في البلاد الاستعمارية . ولو وضعنا في اعتبارنا واقع الرقابة الشديدة على الصحف ووسائل الإعلام ، وهى التى تمكن بها ستالين من أن يذيع على العالم أن عهده هو عهد العدل والإنصاف ، فلا ريب أن هذه الرقابة موجودة هناك اليوم أيضاً ، ومن هنا نستطيع أن نفهم أن الأمور تجري وراء ستائر الدعاية الجميلة على ما كانت عليه في عهد ستالين . وإن كان المؤتمر العشرون (١٩٥٦) للحزب الشيوعى الروسى قد أثنى مظام ستالين ، فلا غرابة أن يجمع المؤتمر الأربعون للحزب الشيوعى بإفتشاء أسرار حكام روسيا اليوم (١) .

إن هذا النظام الذى استغرقت تجربته نصف قرن من الزمان ليدلنا على أن الإنسان لا يتغير بتغيير نظام الزراعة والمبادلة المزعوم ، ولو كان العقل الإنسانى تابعا للنظام الاقتصادى فلماذا نجد الظلم والفساد والاستغلال في نظام روسيا الشيوعى ؟

إن قضية العصر الحاضر لا تبدو أن تكون «سفسطة علمية Scientific Sophism» ذلك أن علماء هذا العصر يعالجون قضاياهم في ضوء العلم الحديث ، غير أن هذه المعالجة لا تنجس نقما ، لأنها قائمة على العلم المحض وحسب ، على حين لابد من احتيار أشياء أخرى ، ومثال ذلك : أن نشرع في دراسة علمية لأشياء علمية ناقصة ، فسوف تؤدي هذه المطالعة العلمية إلى نتائج غير علمية ، ناقصة ، باطلة .

لقد عقد في دلي في يناير ١٩٦٤ مؤتمر دولي للمستشرقين ، اشترك فيه ألف ومائتان من العلماء من جميع أنحاء العالم . وقدم أحدهم في هذا المؤتمر بحثا يدعى فيه مآثر كثيرة لمسلمي الهند ليست من عمل المسلمين ، وإنما هي من عمل الملوك الهندوس . وضرب لذلك مثلا بمثارة قطب في دلي المنسوبة إلى الملك قطب الدين أيلك ، على حين بناها الملك الهندوسي سامودرا جويت نبل ٢٣ قرنا ، وقد أخطأ المؤرخون المسلمون فنسبوها إلى الملك قطب الدين . ويستدل هذا البحث بأن في المنارة المذكورة بعض أحجار قديمة تحت قبل عصر الملك قطب الدين .

وهذا — كما يبدو — استدلال علمي ، إذ أن بعض أحجار المنارة فعلا من الصنف الذي ذكره العالم ، ولكن هل يكفي مشاهدة بعض أحجار المنارة لبت في أمر بانها ؟ أو أنه لابد من نواح أخرى كثيرة لنشاهدها في هذا الصدد. ومن هنا فإن هذا التفسير لا يصدق على منارة قطب — ككل . هذا تفسير . وهناك تفسير آخر ، هو أن هذه الأحجار القديمة التي يوجد بعضها في المنارة . إنما جاءت من أنقاض أبنية قديمة ، كما هو معروف في كثير من الأبنية التاريخية الحجرية . ولا مناص من أن تقبل هذا التفسير الثاني حين نشاهد منارة قطب للدين في ضوء طابعها المعماري ورسومها وتصميمها . والمسجد الناقص بجوارها ، والمنارة الثانية التي لم تكمل ، ثم تنتهي إلى أن التفسير الأول ليس إلا قياسا خاطئا قائما على المغالطات .

• • •

وهذا هو أمر قضية المعارضين ، فلنهم نظروا إلى حقائق ناقصة وجزئية ، لا يتصل بعضها بالموضوع مطلقا ، واعتقدوا أن الدراسة العلمية الحديثة قد أبطلت الدين ، على حين أننا لو نظرنا إلى الواقع جملة وتفصيلا فسوف نصل إلى نتيجة تختلف عن الأولى كل الاختلاف .

والدليل الذي يقنعني بصدق الدين هو أن عقولا مثالية منا — بعد أن تركت الدين — قد أدخلت تهلى بكلمات لا حقائق وراءها ، وتعمه في تيه الظلام ، ذلك أن الإنسان بعد أن يفقد أساس (الدين) لا يجد أساسا آخر لأفكاره . والأسماء التي تأتي في قوائم المعارضين أكثرها من عقولنا الكبيرة ، ولكنهم بعد أن غفلوا عن الدين راحوا يكتبون ضروبا من الغفوة غاية في الإهمال والتمزق ، حتى إنني أتخير — أحيانا — فلا أفهم كيف صدرت هذه الكلمات عن قلم رجل من العلماء ؟ .. وإن السجل الذي أنتجه هؤلاء ليشتمل على خرافات وآراء

متناقضة ، واعترافات يجهل الحقيقة ، كما يشتمل على أدلة أشبه بالسفسطة . فبطولة هؤلاء تكن في أنهم أمحضوا أصحهم من الحقائق الظاهرة، وشادوا قناطر خيالية من الادعاء، كما تتمثل في استدلالهم بالشاذ من الأمور . وذلك من سمات القضايا الباطلة ، أما القضايا الصحيحة فلها تقوم على أسس علمية ثابتة ، لا على الشواذ .

• • •

وتجلى حقيقة الدين وسفسطة قضية المعارضين أكثر من ذلك حين نطالع صورة أخيه الإنسانية في ضوء الدين ، إنها صورة جميلة لطيفة ، تتوافق مع أفكار الإنسان السامية . كما يتوافق الكون المادى مع القوانين الرياضية، بعكس تلك الصورة التي يرسمها المعارضون، فهي صورة جد قبيحة، وهي لا تتفق أبداً مع ذهن الإنسان، وانظر إلى ما يقوله برتراند رسل: « والإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف ، إن بدأه ونشوءه ، وأمانه ومخاوفه ، وجهه وعقائده ، كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضى اتفاقى فى نظام الذرة ، والقبر ينهى حياة الإنسان . ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى . إن هذه المجهودات الطويلة . والتضحيات ، والأفكار الجميلة ، والبطولات العبقريّة ، كلها سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسى . إن الكفاح الإنسانى كله سوف يدفن حتماً مع الأرض تحت أنقاض الكون ، ولو لم تكن هذه الأفكار قطعية فلها أقرب ماتكون إلى الحقيقة ، حتى إن أية فلسفة تحاول إنكارها ستلقى فناءها تلقائياً » (١)

ويكاد هذا الاقتباس أن يكون خلاصة الفكر المادى ، فالكون فى ضوء هذا الفكر المادى — يكاد يفقد أهدافه ، ولا يبقى غير الظلام الحالك ؛ الظلام الذى تلاشى فيه معايير الخير والشر ، حتى إن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلماً ، لأنهم سوف يلقون حتفهم على أية حال يوماً ما . أما الفكر الدينى فهو فكر الضوء والأمل . الموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة ، وكل القيم والأفكار الإنسانية السامية تجسد لها مكاناً فيه ، وإن كان بعض العلماء بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره ، يطمئن إلى أنه قد توصل إلى الحقيقة ، فإن تصديق العقل الإنسانى الفكر الدينى دليل قطعى على أنه هو الحقيقة التى طالما بحث عنها الفطرة الإنسانية ، وعندئذ لا نجد أساساً واقعياً لإنكار قيمة الفكر الدينى ، هذا وهو « المقياس » العلمى الذى يشير إليه الرياضى الأمريكى البروفيسور (ارل تشستر ريكس) قائلاً :

« إننى أستخدم فى أبحاثى ذلك المقياس العلمى المسلم ، الذى يستخدم فى ترجيح إحدى فكرتين مختلفتين أو أكثر ، عن حقيقة واحدة . وهو المقياس الذى نرجح بناء عليه الفكرة التى تفسر المسائل المتنازع فيها بطريقة أكثر بساطة وسهولة . لقد استخدم العلماء هذا المقياس

لاختيار إحدى نظريتي بطليموس وكوبرنيك : كانت الأولى تزعم أن الأرض هي مركز النظام الشمسي ، على حين أكدت الثانية أن النظام الشمسي هو مركز الأرض . وكانت نظرية بطليموس غالبة في التعقيد حتى رفضها العلماء (١)

ولابأس من الاعتراف بأن هذه الأدلة لن تمنع بعض الناس ، فإن أبواب عقولهم المادية موصدة دون أى كلام — مهما يكن علميا — عن الإله أو الدين . ومن المؤكد أن موقفهم هذا ليس لأن استدلالنا ضعيف ، وإنما هو راجع إلى تعصّبهم المقيت ضد الأفكار الدينية ، ولقد صدق عالم بريطانيا العظيم سير جيمس جيز — الذى يعتبر ولاشك أعظم علماء العصر الحديث — حيث قال فى كتابه الشهير (عالم الأسرار) .

« إن فى عقولنا الجديدة تعصبا يرجع التفسير المادى للحقائق » (٢)

وذكر (وينكر شامبرز) فى كتابه (الشهادة) Witness حادثا كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول فى حياته . ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره ، فأخذ يفكر فى أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق ، كهذه الأذن ، بمحض اتفاق ، بل لابد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة . لكن (وينكر شامبرز) طرد هذه الوسوسة عن قلبه ، حتى لا يضطر أن يؤمن — منطقيا — بالذات التى أرادت قدبرت ، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة .

ويقول الأستاذ الدكتور (تامس ديود باركس) بعد أن يذكر هذا الحادث :

« إننى أعرف عددا كبيرا من أساتذتى فى الجامعة . ومن رفقاء العلماء الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر ، وهم يقومون بعمليات كباوية وطبيعية فى المعامل (٣) .
لقد أجمع علماء هذا العصر على صدق نظرية النشوء والارتقاء.. وقد بدأت هذه النظرية . تسود فعلا جميع فروع العلوم الحديثة . فكل مشكلة تحتاج « إلها » فى تفسيرها توضع مكانه هذه النظرية بغير تردد .

هذا جانب من النظرية ، وأما الجانب الثانى — وهو الجانب المظلم منها — الذى يقرر (فكرة التطور العضوى) Organic Evolution الذى استنبطت منه فكرة الارتقاء ، فقد بقى إلى يوم الناس هذا بلا براهين ، وبلا أدلة علمية ! ! حتى قال كثير من العلماء : « إنهم لا يؤمنون بهذه النظرية ، إلا لأنه لا يوجد أى بديل لها سوى الإيمان بالله مباشرة » .

The Evidence of God, p. 179. (١)

Mysterious Universe, p. 189. (٢)

The Evidence of God, pp. 73 - 74. (٣)

وكتب سير آرثر كيث يقول :

« إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الإيمان بالخلق الخاص المباشر) ، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه ^(١) !!

إنني أقر هنا بعجزى عن إقناع أولئك الذين ينطوون على التعصب الأعمى للتفسير المادى ، بحجة الدين ، ولهذا التعصب جذور عميقة ، كما يقول عالم أمريكى : « إن كون العقيدة الإلهية معقولة ، وكون إنكار الإله مفسدة لا يكتفى ليختار الإنسان جانب العقيدة الإلهية. فالتناس يظنون أن الإيمان بالانسوف يقضى على حريتهم ، تلك الحرية العقلية التى استعبدت عقول العلماء ، واستهوت قلوبهم ، فأية فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم ^(٢)

وبناء على هذا يدعى جوليان هكسلى أن فكرة النبوة « هى إظهار للتفوق بطريقة شاذة لا يمكن احتمالها » ؛ إذ أن معنى الإيمان بنبي أن نؤمن بكلامه على أنه كلام الإله ، ثم نمتثل - طوعا أو كرها - لكل ما يأمر به .

ولكن إذا كان الإنسان مخلوقا وليس خالقا ، عابدا وليس معبودا . فكيف يستطيع أن يقضى على الحقائق بمجرد أفكار نبئت فى عقله ؟ .. إننا لا نستطيع أن نغير الحقائق ، وإنما نستطيع أن نعتزف - أو نؤمن بها - فحسب . وإذا كنا لا نحب أن نكون عاقبتنا عاقبة النعامة ، فأفضل خيار لنا أن نسلم بالحقيقة قبل أن تفوت الفرصة نهائيا .

إن كفرنا بالحقيقة لن يمسى إلى قضيتها ، ولكن الحسرة أن كله سوف يكون من خطتنا فى الآخرة .

الباب الثالث

طريقة الاستدلال العلى

إن قضية العصر الحاضر ضد الدين هى قضية طريقة الاستدلال ، أعنى الطريقة الجديدة التى كشفها العلم الحديث بعد التطورات فى ميادينه العديدة ، بحيث لم تعد تقف أمامها دعوى الدين وعقائده . هذه الطريقة الجديدة هى معرفة الحقيقة بالتجربة والملاحظة ، على حين تتصل عقائد الدين بعالم ما وراء حواسنا ، ولا يمكن إخضاعها للتجربة . (فالدين كله مبنى على قياس واستقراء)^(١) ، وهذا هو ما يجعله باطلا ، لأنه ليس له أساس علمى .

وقضية العصر الحاضر باطلة ، لأنها لا تقوم على أسس علمية ، فالطريقة الجديدة لا تنفى وجود أشياء لم تجرب مباشرة ، كما لا تنفى قياس أشياء لم نشاهدها على أشياء شاهدها تجربينا وهو ما يسمى « قياسا علميا » ، ويعتبر كالتجربة المباشرة ، فالتجربة لا تعد حقيقة علمية لجرد أنها شوهدت ، كما أن القياس ليس باطلا لجرد أنه قياس . فإمكان الصحة والبطلان موجود فيهما على سواء .

كان الناس فى القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب . اعتقادا منهم أن الماء لا يحمل إلا ما يكون أخف منه وزنا ، وحين قال بعضهم : إن السفن الحديدية سوف تطفو على سطح الماء كالتى من الخشب . أنكر الناس عليه مقالته واتخذوه هزواً ، وجاء نحاس فأتى بنعل من حديد فى دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه القطعة الحديدية تبدل أن تطفو على سطح الماء - استقرت فى القاع . كان هذا العمل تجربة . ولكننا جميعا نعتقد اليوم أنها كانت تجربة باطلة ، فلو كان النحاس قد ألقى بطبق من حديد لشاهد بعينه صديق ما قبل من طفو السفن الحديدية .

(١) ومثاله أن أصحاب الدين إذا أرادوا إثبات وجود الإله لا يقدرّون على ذلك باستعمال التلصكوب ، ولكنهم يستدلّون بأن نظام الكون وروحه العجيبة تدلان على أنه يوجد عقل إلى وراءها . وهذا الدليل لا يثبت وجود الإله مباشرة ، وإنما هو يثبت قرينة تستلزم الإيمان بالله بعد الإيمان بها .

في بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوبا ضعيفا ، فلما شاهدنا السماء بهذا المنظار وجدنا أجراما كثيرة كالنور ، فاستنبطنا أنها سحب من البخار والغاز ، تمر بمرحلة قبل أن تصبح نجوما . ولكننا حين تمكنا من صناعة منظار قوى ، وشاهدنا هذه الأجرام مرة ثانية ، علمنا أن هذه الأجرام الكثيرة المضيئة هي مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب ، نتيجة البعد الهائل بينها وبين الأرض .

وهكذا نجد أن التجربة والملاحظة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين ، وأن العلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة . لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة النطاق ، ولكن الأشياء التي نلاحظها بهذه الوسائل كثيرا ما تكون أمورا سطحية ، وغير مهمة نسبيا . أما النظريات التي يتوصل إليها بناء على هذه المشاهدات فهي أمور لا سبيل إلى ملاحظتها ، والذي يطالع العلم الحديث ، يجد أن أكثر آرائه « تفسير للملاحظات » وأن هذه الآراء لم تجرب مباشرة ، ذلك أن بعض الملاحظات يحمل العلماء على الإيمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعا ، فأى عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو خطوة دون الاعتماد على ألفاظ مثل : « القوة » Force ، و « الطاقة » Energy ، و « الطبيعة » Nature ، و « قانون الطبيعة » Law of Nature ، وما إلى ذلك . ولكن هذا العالم لا يدري ما « القوة والطاقة والطبيعة وقانونها » ؟ فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة ، لكي يبين عن علل غير معلومة . وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ ، تماما كرجل الدين ، لا يستطيع تفسير صفات الإله ، وكلاهما يؤمن - بدوره - بعلل غير معلومة .

يقول الدكتور (الكيس كيرل) :

« إن الكون الرياضي شبكة عجيبة من القياسات والفروض ، لا تشتمل على شيء غير « معادلة الرموز » ، الرموز التي تحتوى على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها »^(١)

والعلم الحديث لا يدعى ، ولا يستطيع أن يدعى ، أن الحقيقة عسيرة فيما علمناه من التجربة المباشرة ، فالحقيقة أن « الماء سائل » . ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة . ولكن الواقع أن كل (جزئ) من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين ، وذرة من الأوكسجين وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب في العالم ، غير أنها ثبتت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال المنطقي .

ويقول البروفيسور اى . ماندير :

« إن الحقائق التى نتعرفها مباشرة تسمى « الحقائق المحسوسة Percieved Facts ، بيد أن الحقائق التى توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر فى « الحقائق المحسوسة » ؛ فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ، ولكننا عثرنا عليها على كل حال ، ووسيلتنا فى هذه السبيل هى الاستنباط ، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه « بالحقائق المستنبطة Inferred Facts والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين ، وإنما الفرق هو فى التسمية ، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة ، وعلى الثانية بالواسطة ، والحقيقة دائماً هى الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط »^(١)

ويضيف ماندير قائلاً :

« إن حقائق الكون لا ندرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر ؟ .. هناك وسيلة وهى الاستنباط أو التعليل . وكلاهما طريق فكري ، نبتدئ به بوساطة حقائق معلومة ، حتى نتبني نظرية : أن الشيء الفلانى يوجد هنا ولم نشاهده مطلقاً^(٢) وهنا نتساءل : كيف يصح الاستنباط المنطقي لأشياء لم نشاهدها قط ؟ وكيف يمكن أن نسمى هذا الاستنباط بناء على طلب العقل : حقيقة علمية ؟ ويوجب ماندير بنفسه عن هذا السؤال :

« إن المنهج التعليلي صحيح ، لأن « الكون » نفسه عقلى .

فالكون كله مرتبط بعضه بالآخر ؛ حقائقه متطابقة ، ونظامه عجيب ، ولهذا فإن أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها — هى دراسة باطلة . ويقول ماندير فى هذا الصدد :

« إن الوقائع المحسوسة هى أجزاء من حقائق الكون ، غير أن هذه الحقائق التى ندركها بالحواس قد تكون جزئية ، وغير مرتبطة بالآخرى . فلو طالعناها فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقاً . فأما إذا درسناها فى ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة ، فإننا سندرك حقيقتها » .

ثم يأتى بمثال سليم يفسر ذلك فيقول :

« إننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض ، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ، ويتطلب جهداً ، ونلاحظ أن القمر يدور فى الفلك ، ونعلم أن الصعود

في الجبل أشق من النزول منه . وتلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهرا ، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية — هي « قانون الجاذبية » ، وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق ، فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل النظام . وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة ، فلن نجد بينها أى ترتيب ، فهي متفرقة ، وغير مترابطة ، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صورة منظمة للحقائق (١)

...

إن قانون « الجاذبية » لا يمكن ملاحظته قطعا ، وكل ما شاهدته العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية ، وإنما هي أشياء أخرى ، اضطروا لأجلها — منطقيا — أن يؤمنوا بوجود هذا القانون .

واليوم يلقي هذا القانون قبولا علميا عظيما ، وهو الذى كشف عنه نيوتن لأول مرة ، ولكن .. ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية ؟ .. ها هو ذا نيوتن يتحدث في خطاب أرسله إلى (بنتلي) فيقول :

« إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهي تؤثر على مادة أخرى ، مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما » (٢)

...

فنظرية معقدة غير مفهومة ، ولا طريق إلى مشاهدتها ، تعتبر اليوم ، بلا جدال ، حقيقة علمية !!! لماذا ؟ .. لأنها تفسر بعض ملاحظتنا ، فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هي ما علمناه مباشرة بالتجربة ، ومن ثم نمضى إلى القول بأن العقيدة الغيبية التي تربط بعض ما نلاحظه ، وتفسر لنا مضمونه العام — تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة ! ..

...

يقول البروفيسور ماندير :

« القول بأننا عرفنا الحقيقة يعنى : أننا عرفنا معناها ، وبعبارة أخرى : أننا بحثنا عن وجود شيء ، وعن أحواله ، ففسرناه ، وأكثر عقائدنا تتخلل في هذا النطاق ، فهي في الحقيقة : تفسيرات للملاحظة » .

ويستطرد ماندير فيتكلم عن « الحقائق الملحوظة » :

Clearer Thinking, p. 51. (١)

Works of W. Bently, III, p. 221. (٢)

« عندما نذكر » ملاحظة » فإننا نقصد شيئا أكثر من الملاحظة الحسية المحضة ، فمتاها :
« الملاحظة الحسية » و « التعرف » بما يشمل جانب التفسير »^(١)

نظرية التطور العضوى :

هذه هى القاعدة العلمية التى على أساسها وافق العلماء على حقيقة نظرية (التطور العضوى)
كما قال ماندبير : « لقد ثبت صدق هذه النظرية ، حتى إننا نستطيع أن نعتبرها » أقرب شيء
إلى الحقيقة »^(٢)

ويقول سمبسن فى هذا الصدد :

« إن نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيرا وكليا ، وليست بقياس ، أو (فرض
بدليل) صيغ للبحث العلمى »^(٣)

ويعتقد محرر دائرة المعارف البريطانية (١٩٥٨) : « أن نظرية الارتقاء فى الحيوانات
« حقيقة » ، وأن هذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء والمتقنين بعد داروين .

وقال ر. س. لل :

« ظلت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد ، يوما بعد يوم ، بعد داروين ، حتى إنه
لم يبق شك لدى المفكرين والعلماء فى أن هذه هى الوسيلة المنطقية الوحيدة التى تستطيع أن
تفسر عملية الخلق وتشرحها »^(٤)

• • •

هذه النظرية التى أجمع العلماء على صحتها ، هل لاحظها أحدهم أو جربها فى معمله ؟ ..
والجواب : لا ! فذلك ضرب من المستحيل ، إن مزعومة الارتقاء مقيدة ، وهى تتعلق
بماض بعيد جدا ، حتى إنه لا سؤال عن تجربتها وملاحظتها . وهى على ما أكله (لل) فى
كلمته السابقة : « وسيلة منطقية » لتفسير مظاهر الخلق ، وليست بملاحظة واقعية . ولأرى أن
هذا هو السبب الذى دفع « السير آرثر كيث » — الذى يعتبر محاميا متحمسا لنظرية الارتقاء —
أن يسلم بأن هذه النظرية ليست بملاحظة أو تجربة ، وإنما هى مجرد عقيدة . ومن كلماته :
« إن نظرية الارتقاء » عقيدة أساسية » فى المذهب العقلى »^(٥)

Clearer Thinking, p. 56. (١)

Ibid, p. 113. (٢)

Meaning of Evolution, p. 127. (٣)

Organic Evolution, p. 15. (٤)

Revolt against Reason, p. 112. (٥)

وعرف أحد المعاجم العلمية نظرية داروين بأنها « نظرية قائمة على تفسير بلا برهان » (١) .

• • •

فما الذى يجعل شيئا غير ملاحظ وغير قابل للتجربة « حقيقة علمية » ؟ يذكر (ماندير) أسباب ذلك فيقول :

١ - هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

٢ - فى هذه النظرية تفسير لكثير من الوقائع ، لا يمكن فهمها إلا من طريقها .

٣ - ولم تظهر بعد نظرية تناسب وتوافق الحقائق بهذه الدقة (٢)

فإذا كانت هذه الأدلة كافية لتصبح نظرية الارتقاء حقيقة علمية فهى كذلك موجودة فى جانب الدين على وجه أتم وأكمل . والقول بصحة نظرية الارتقاء وإبطال الدين فى نظر الذهن العلمى لا يعنى مطلقا أن قضية المعارضين هى قضية الاستدلال العلمى ، وإنما هذه القضية تتعلق « بالنتيجة » ، فلو أثبت نفس الاستدلال أمرا « طبيعيا محضاً » فسيقبله المعارضون ، وسيرفضونه لو أثبت أمرا إلهيا - لأنه غير مرغوب فيه عندهم .

• • •

مشكلة تعيين حقائق الأمور :

وبهذا لا ينبغى القول بأن الدين هو « الإيمان بالغيب » ، وبأن العلم هو الإيمان « بالملاحظة العلمية » : فالدين والعلم كلاهما يعتمد على الإيمان بالغيب . غير أن دائرة الدين الحقيقية هى دائرة «تعيين حقائق الأمور» نهائيا وأصليا، أما العلم فيقتصر بحثه على المظاهر الأولية والخارجية، فحين يدخل العلم ميدان تعيين حقائق الأمور تعيينا حقيقيا ونهائيا - وهو ميدان الدين الحقيقى - فإنه يتبع نفس طريق الإيمان بالغيب . الذى يتهم به الدين . ولا بد من هذا السلوك فى « الميدان الثانى » : كما قال سير آرثر أدنجتون : « إن عالمنا فى العصر الحاضر يعمل على منضدتين فى وقت واحد : إحداهما : المنضدة العامة التى يستعملها الرجل العادى ، التى يمكن لمسها ورؤيتها . وأما الأخرى : فهى « المنضدة العلمية » ، وأكثرها فى الفضاء ، وتجربى فيها إلكترونات لا حصر لها ولا تشاهد ، ويستطرد سير آرثر أدنجتون قائلا : « وهكذا نجد لكل شئ صورة ذات وجهين ، أحدهما : (ملحوظ) ، والآخر : (صورة فكرية) لا سبيل إلى مشاهدتها بأى ميكروسكوب أو تلسكوب » (٣)

Ibid, p. 111. (١)

Clearer Thinking, p. 112. (٢)

Nature of the Physical World, pp. 7-8. (٣)

أما الوجه الأول فيشاهد العلم ، ويشاهده لدى بعيد جدا ، ولكنه لا يستطيع أن يدعى أنه يشاهد الوجه الآخر . وطريقة العلم الحديث أنه يقدم رأيا عن شيء بعد مشاهدة مظهره . وأما الميدان الثاني ، فهو ميدان معرفة حقائق الأشياء وتعيينها ، و « العلم » في هذا الميدان هو البحث عن حقائق غير معلومة ، بوساطة حقائق معلومة .

وعندما يجتمع لدى عالم من العلماء قدر مناسب من « الحقائق الملحوظة » فإنه يحس بضرورة وضع نظرية أو فرض علمي . وبعبارة أدق : ضرورة فكرة اعتقادية ووجدانية ، تقوم بتفسير الملاحظات ، وربط بعضها ببعض ، فإذا نجحت هذه الفكرة الاعتقادية في تفسير الحقائق تفسيراً كاملاً عدت حقيقة علمية ، رغم أنها لم تلاحظ قط كما لوحظت الحقائق الأخرى التي نعرفها بالملاحظة ، أو بالملاحظة العلمية .

ومعنى ذلك أن العالم يؤمن بوجود شيء غائب بمجرد ظهور نتائجه وآثاره ، فكل حقيقة يؤمن بها تكون دائماً (فرضاً) في أول أمرها ، إلى أن تكشف حقائق جديدة تدعم صحتها ، فزداد يقيناً بها . حتى تبلغ حق اليقين : وإذا لم تؤيدها الملاحظات اللاحقة تخليت عنها . ومن أمثلة هذه « الحقائق » : حقيقة « الذرة » التي لا سبيل إلى إنكارها ، برغم أنها لم تشاهد قط بالمعنى المعروف ، ولكنها تعتبر أكبر حقيقة علمية كشفت في هذا العصر . وهذا هو السبب الذي دفع أحد العلماء أن يعرف (النظريات) العلمية بالألفاظ التالية :

« Theories are Mental Pictures, That Explain Known Laws »

« النظريات صور ذهنية تفسر القوانين المعلومة » .

• • •

حقيقة النظريات العلمية :

إن الحقائق التي تعرف في العلم باسم « الحقائق الملحوظة » ليست بحقائق شوهدت فعلاً ، وإنما هي تفسيرات لبعض المشاهدات ، لأن الملاحظة الإنسانية لا يمكن أن توصف بأنها (كاملة) ، ولذا فإن جميع هذه التفسيرات تعد « إضافية » ، ومن الممكن أن تتغير بتطور الملاحظة .

ويقول البروفيسور سوليفان بعد نقد وجهه إلى النظريات العلمية :

« هذا العرض للنظريات العلمية يثبت أن معنى « نظرية علمية صحيحة » أنها « فروض علمية ناجحة » Successful Working Hypothesis ، ومن الممكن تماماً أن يكون سائر النظريات العلمية باطلاً ، ذلك أن النظريات التي نعتبرها اليوم (حقيقة) ليست إلا « قياساً

على وسائلنا المحدودة للملاحظة ، ، ولا تزال قضية الحقيقة في عالم العلم « قضية عملية نفعية
Pragmatic Affair » (١)

• • •

ولا يزال العلماء بعد هذا يعتبرون أن الفرض الذي يفسر ملاحظاتهم لا يقل في قيمته
عن « الحقيقة الملحوظة » نفسها ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا : إن الحقائق الملحوظة هي
وحدها « العلم » ، وإن ماسواها من النظريات الشارحة لا تدخل في نطاق (العلم) ، لأنها غير
ملحوظة . . والحق أن هذا هو ما نسميه « الإيمان بالغيب » ، وهو بالنسبة إلى المؤمنين ليس
سوى الإيمان بحقائق غير ملحوظة ، فهو ليس بعقيدة عمياء ، وإنما هو خير تفسير للحقائق
التي يشاهدها العلماء . .

• • •

وكما رفض العلماء نظرية الضوء التي قدمها نيوتن وتعرف باسم Corpuscular Theory
of Light لأنها لم تنجح في تفسير مظاهر حديثة للضوء ، فإننا نرفض أفكار الفلاسفة
الملاحدين ، لأنها فشلت في تفسير مظاهر الطبيعة .

إن مأخذ حقائق الدين هو نفس المأخذ الذي يستقي منه العلم الحديث ملاحظاته ، لكي
يثبت نظرية علمية . ولقد اتهمنا بعد دراسة الحقائق الملحوظة إلى أن تفسير الدين للطبيعة
هو عين الحق ، حتى إن هذا التفسير لم يتغير ، ولن يتغير على مر الدهور ، على حين أن كل
نظرية صاغها الإنسان منذ قرن ، أو أكثر أو أقل ، قد رفضت ، أو أصبحت موضع شك الآن .
وإن صدق الدين ليتجلى بعد كل خطوة نخطوها في الملاحظة ، حتى ليصبح كل كشف
علمي جديد تصديقاً لحقائق الدين !

ولسوف نطالع أفكار الدين من هذه الناحية في الأبواب التالية .

• • •

الباب الرابع

الطبيعة تشهد بوجود الإله

أصدرت الكنيسة المسيحية في كيرالاجنوبي الهند كتاباً بعنوان :

« Nature and Science Speak about God »

« الطبيعة والعلم يتحدثان عن الله » . . . وأعتقد أن هذه الكلمات هي أفضل عنوان لهذا الباب .

إن أكبر دليل على وجود الإله هو مخلوقه ، هذا الذى نجده أمامنا ، وأوثق ما علمنا من حقائق الطبيعة يدعوننا إلى الإيمان بأنه لا ريب أن لهذه الدنيا لهماً واحداً . ونحن لا نستطيع أن نفهم أنفسنا وأن نفسرها ، بله الكون كله - مجردين من الإيمان بوجود الإله .

إن وجود الكون ، والنظام العجيب الذى اشتمل عليه ، وأسرار الدقيقة ، لا يمكن تفسير ذلك كله إلا بأنه قد خلقته (قوة) ، وأن هذه القوة (عقل) لا حدود له ، وأنها ليست بقوة عمياء .

أولاً - نظرية التشكيك في الوجود :

هناك جماعة من المفكرين هزيلة العدد جداً ، «تشك» في مجرد وجود مثل هذه القوة . وتعتقد هذه الجماعة أنه لا وجود للإنسان ، ولا للكون ، وأن الوجود عبارة عن عدم محض ، ولا شيء غير ذلك .

فلو سلمنا بهذه الفكرة لالتبس علينا أمر الإله دون شك . . . ولكننا حين نؤمن بأن الكون موجود نضطر تلقائياً أن نؤمن بالإله ، أو بالقوة الخالقة - كما نسميها ، فليس بمعقول أن نؤمن بالوجود من العدم المحض ، ذلك قياس باطل ! !

فهذا التشكيك في وجود الكون ، والذى يتخذ أحياناً شكل نظرية الـ « لا أدري » (١) - يمكن أن يعد نكتة فلسفية ، لا علاقة لها بالحقيقة . فتحين تفكر يكون فكرنا هذا دليلاً

(١) هذا مصطلح مستعمل في اللغة الأردية مأخوذ من عبارة « لا أدري » ، يشير إلى الاتجاه الذى ينكر معرفة شيء عن الكون ، لأن الكون لا وجود له على الحقيقة - المراجع .

قاطعاً في ذاته على أن لنا وجوداً^(١). وحين نصطدم في الطريق بحجارة ثم نتألم فهذا الواقع دليل في ذاته على أن هناك عالماً موجوداً وجوداً ذاتياً خارج وجودنا . وهكذا تترك حواسنا في كل وقت أشياء كثيرة ، من الفرح والألم والتذوق ، فهذا الاحساس والشعور دليل لكل شخص على أنه موجود في كون ، وعلى أنه يملك وجوده الذاتي ، وحينئذ فلو قام أحد يشكك نفسه في وجوده الذاتي ووجود الكون فسوف نعتبر ذلك حالة استثنائية مفردة ، لا ترتبط بتجربة الملايين من جماهير الناس . وسوف نقول عن هذا الرجل القذ : إنه قد غاب في عالمه الذهني ، حتى نسي نفسه . . .

بلى إننا لو سلمنا - جدلاً - بأنه ليس للكون في ذاته وجود خارج ذاتنا ، فلست أعتبر هذا دليلاً ملزماً بأنه لا وجود للإله .

وعلى كل حال فهذه هي الفكرة الوحيدة التي نرى وجود الإله مشكوكاً فيه ، بكل ما تتضمن من السفسة والجهالة وانعدام الواقعية ، وهي فكرة لا معنى لها في ذاتها ، وليست مفهومة لدى جمهور الناس ، كما أنها لم تحظ بقبول في دنيا العلم .

. . .

الوجود والخلق :

إن الإنسان العادي ، والعالم العادي يؤمن على كل حال بأن « له » وجوداً ، وبأن للكون أيضاً وجوداً ، وعلى هذا الأساس من العلم والإيمان تقوم جميع ألوان النشاط العلمي والحيوي . فإذا آمننا بوجود الكون فلا بد أن نؤمن بإله هذا الكون منطقياً . إذ لا معنى لأن نؤمن بالخلق ونرفض وجود خالقه ، ونحن لا نعلم شيئاً جاء إلى الوجود من العدم ، دون أن يخلق ، فكل شيء مهما بلغ حجمه ، عظم أو صغر ، جل أو دق ، وراءه علة ، فكيف بنا نؤمن بأن كوناً عظيماً - مثل كوننا - جاء إلى الوجود ذاتياً ، دون خالق ؟؟

ذكر (جون ستيوارت ميل) في سيرة حياته : أن أباه قد علمه أن سؤال « من الذي خلقني ؟ » لا يكتفي لإثبات وجود الإله ، إذ ينجم تلقائياً سؤال : « فمن ذا الذي خلق الإله ؟ » ، وقد اعتد (برتراند رسل) هذا الاعتراض الثاني كافياً لرفض مدلول السؤال الأول^(٢).

ونحن نعرف أن هذا الاستدلال قديم جداً لدى الملحدين ، ومقتضاه : أننا لو افترضنا خالقاً للكون فسوف نضطر أن نتصوره أزلياً ! !

(١) يستخدم المؤلف هنا تلك العبارة الفلسفية الشائعة : « أنا أنكر ، إذن فأنا موجود »

(المراجع) .

(٢) Morton White, The Age of Analysis, pp. 21 - 22.

الأزلى : الخالق أم المادة ؟

وإذا كان لا مناص من اقتراض أزلية هذا الخالق ، فلماذا لا نؤمن بأزلية هذا الكون ؟ وهذا الكلام لا معنى له ، لأننا لم نعر على صفات للكون ، أية كانت ، تثبت أنه خالق نفسه . ولقد كان لهذا الاستدلال حسنه ورواؤه حتى القرن التاسع عشر ، ولكننا اليوم ، وبعد كشف « القانون الثانى للحرارة الديناميكية » Second Law of Thermo Dynamics نجد أن هذا الاستدلال قد كل أساس كان يقوم عليه .

وهذا القانون الذى نسميه « قانون الطاقة المتاحة » أو « ضابط التغير » Law of Entropy يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزلياً ، فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائماً من (وجود حرارى) إلى (عدم حرارى) ، والعكس غير ممكن ، وهو أن تنتقل هذه الحرارة من (وجود حرارى قليل) أو (وجود حرارى عدم) إلى (وجود حرارى أكثر) . فإن ضابط التغير هو التناسب بين « الطاقة المتاحة » و « الطاقة غير المتاحة » .

وبناء على هذا الكشف العلمى الهام فإن « عدم كفاءة عمل الكون » يزداد يوماً بعد يوم ، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات ، وحينذاك لا تبقى أية طاقة مفيدة (للحياة والعمل) ، وسيترتب على ذلك أن تنتهى العمليات الكيماوية والطبيعية ، وتنتهى — تلقائياً — مع هذه النتيجة « الحياة » .

• • •

وانطلاقاً من هذه الحقيقة القائلة بأن العمليات الكيماوية والطبيعية جارية ، وأن الحياة قائمة ، يثبت لدينا قطعاً أن الكون ليس بأزلى ، إذ لو كان الكون أزلياً لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد ، بناء على هذا القانون ، ولما بقى فى الكون بصبص من الحياة . يذكر هذا التحقيق العلمى الحديث عالم أمريكى فى علم الحيوان ، هو الأستاذ (ادوارد لوثر كسيل) فيقول :

« وهكذا أثبتت البحوث العلمية — دون قصد — أن لهذا الكون « بداية » فأثبتت تلقائياً وجود الإله ، لأن كل شئ ذى بداية لا يمكن أن يبتدىئ بذاته ، ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأول — الخالق الإله » (١) .

وقد قال نفس الكلام السير جيمس : « تؤمن العلوم الحديثة بأن (عملية تغير الحرارة) Entropy سوف تستمر حتى تنتهى طاقاتها كلية ، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها ، لأنه لو حدث شئ مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض ، حتى نفكر

فيها . إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ، ومن ثم لا بد لها من بداية ، ولا بد أنه قد حدثت عملية في الكون ، يمكن أن نسميها « خلقاً في وقت ما » حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً ^(١) .

• • •

وهناك شواهد طبيعية كثيرة تثبت أن الكون لم يكن موجوداً منذ الأزل ، وأن له عمراً محدوداً ، وعلى سبيل المثال ، نجد « علم الفلك » يقرر أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم ، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مذهشة ، بعضها عن بعض . ويمكن أن نفسر هذه الحالة تفسيراً جيداً إذا نحن سلمنا بوقت للبدء ، كانت فيه كل الأجزاء التركيبية مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض ، ثم بدأت الحركة والحرارة . ويقدر العلماء أن هذا الكون قد وجد نتيجة « لانفجار » فوق العادة ، وقع منذ ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة . فالإيمان بهذا الكشف العلمي ، وهو أن للكون عمراً محدوداً يتعارض مع إنكار موجدته ، ومثل من يؤمن بمحدث الكون مع إنكاره لوجود خالقه ، كمثل من يزعم أن « تاج محل » قام بنفسه من غير بنائين ومهندسين ، مع تسليمه بأنه بنى في القرن السابع عشر الميلادي ، ولم يكن موجوداً منذ الأزل .

• • •

ثانياً — الكشف الفلكية

يدلنا علم الفلك على أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا كلها ، منها ما هو أكبر بقليل من الأرض ، ولكن أكثرها كبير جداً ، حتى يمكن أن نضع في واحد منها ملايين النجوم ، في مثل حجم الأرض التي نعيش عليها ، ولسوف يبقى فيه مع ذلك مكان خال ! ! .

إن كوننا هذا فسّيح جداً . ولكي نفهمه نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة (١٨٦,٠٠٠) ميلاً في الثانية الواحدة ، وأن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن . إن هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة ، يضاف إلى ذلك أن هذا الكون ليس بمتجمد ، وإنما هو يتسع كل لحظة ، حتى إنه بعد (١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين ! ! وهكذا لن نستطيع هذه الطائرة الخارقة في سرعتها الخيالية أن تكمل دوراتها حول هذا الكون أبداً ، وإنما سوف تظل تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع الدائم في الكون ^(٢) .

(١) The Mysterious Universe, p. 133.

(٢) هذه هي نظرية أينشتاين عن الكون . ولكنها ليست إلا « قياساً رياضياً » ، والحقيقة أن الإنسان لم يستطع حتى الآن أن يفهم سعة هذا الكون ! !

عندما تكون السماء صافية نستطيع أن نرى بالعين المجردة خمسة آلاف من النجوم ، ولكن هذا العدد يتضاعف إلى أكثر من (٢,٠٠٠,٠٠٠) من النجوم حين نستعمل تلسكوباً عادياً . وأقوى تلسكوب في العالم هو الذي يوجد في مرصد (ماونت بالومار) في الولايات المتحدة الأمريكية ، ويستطيع أن يشاهد بلايين من النجوم .

إن الفضاء الكوني فسيح جداً ، تتحرك فيه كواكب لا حصر لها ، بسرعة خارقة ، بعضها يواصل رحلته وحده ، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى ، ومنها ما يتحرك في شكل مجموعات . ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذي يدخل غرفتك من الشباك ، فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار تتحرك وتسير في الهواء ، فلو استطعت أن تتخيل هذا في شكل أعظم لأمكنك أن تحظى من الفهم بشئ عن السيارات والكواكب في الكون ، مع الفرق المائل المتمثل في أن ذرات الغبار تتحرك ، ويتصادم بعضها مع بعض ، ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى . ومثلها مثل بواخر عديدة تمشي في أعالي البحار متباعدة ، حتى إن إحداها لا تعرف شيئاً عن الأخرى . إن هذا الكون يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم ، تسمى « مجاميع النجوم » وكلها تتحرك دائماً . . .

. . .

وأقرب حركة منا هي حركة القمر التي تبعد عنا (٢٤٠,٠٠٠) ميلاً ، وهو يدور حول الأرض ، ويكمل دورته في مدة تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم . وكذلك تبعد أرضنا هذه عن الشمس (٩٣,٠٠٠,٠٠٠) ميلاً ، وهي تدور في محورها بسرعة ألف ميل في الساعة ، في دائرة (١٩٠,٠٠٠,٠٠٠) ميلاً ، وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة في سنة كاملة . وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض ، وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة . وأبعد هذه الكواكب السيار « بلوتو » الذي يدور في دائرة (٧,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ميلاً حول الشمس . وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمرًا أخرى ، وتوجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفاً من « النجيات » ، وآلاف من النجوم ذوات الأذنان ، وشهب لا حصر لها ، وكلها تدور ، وفي وسطها ذلك السيار العملاق الذي نسميه « الشمس » ، وقطرها (٨٦٥,٠٠٠) ميلاً وهي أكبر من الأرض (١,٢٠٠,٠٠٠) مرة ! !

ثم إن هذه الشمس ليست بثابتة ، أو واقفة في مكان ما ، وإنما هي بدورها ، مع كل هذه السيارات والنجيات ، تدور في هذا النظام الرائع ، بسرعة (٦٠٠,٠٠٠) ميلاً في الساعة . . . وهناك آلاف من الأنظمة ، غير هذا النظام الشمسي ، يتكون منها ذلك النظام الذي نسميه « مجاميع النجوم » ، أو المجرات ، وكأنها جميعاً طبق عظيم تدور عليه النجوم والكواكب

منفردة ومجتمعة ، كما يدور الخدروف الذى يلعب به الأطفال . ومجرات النجوم هذه تتحرك بدورها أيضاً ، والمجرة التى يقع فيها نظامنا الشمسى تدور على محورها بحيث تكمل (دورة واحدة) فى (٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة ضوئية .

• • •

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم ، مضروباً هذا العدد فى (٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ، من الملايين ، وفى كل مجموعة منها يوجد (مائة مليار) من النجوم ، أو أكثر أو أقل ، ويقدر أن أقرب مجموعة من النجوم ، وهى التى نراها فى الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيزاً مداه مائة ألف سنة ضوئية . ونحن — سكان الأرض — نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية ، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة ، وفطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونان من السنين الضوئية .

ومع هذا الدوران تجرى حركة أخرى ، وهى أن هذا الكون يتسع من كل جوانبه ، كالبالون المتخذ من المطاط ، حين ينفخ فيه الأطفال ، وشمسنا هذه — وهى تدور حول نفسها — تدور بنا أيضاً على الحاشية الخارجية للمجرة ، وهى تتباعد عن هذه الحاشية الخارجية بمقدار اثني عشر ميلاً ، كل ثانية ، كما تتبعها فى هذه العملية جميع النجوم الداخلة فى النظام الشمسى . وهكذا جميع السيارات تسير إلى جانب أو آخر ، مع دورانها الخاص طبقاً لنظامها ، فمنها ما يسير بسرعة ثمانية أميال فى الثانية ، ومنها ما يسير بسرعة ثلاثة وثلاثين ميلاً فى الثانية ، ومنها ما يسير بسرعة أربعة وثمانين ميلاً فى الثانية . وجميع النجوم ، على هذا النحو ، تتباعد فى كل ثانية ، بسرعة فائقة عن مكانها . هذه الحركة المدهشة تحدث طبقاً لنظام وقواعد محكمة ، بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ، ولا يحدث اختلاف فى سرعتها .

• • •

إن حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط ، بحيث لا يمكن أن يحدث أدنى تغير فى سرعة دورانها ، حتى بعد مرور قرن من الزمان . وهذا القمر ، الذى يقع فى حركته الأرض ، يدور فى فلك مقرر ومنضبط ، مع تفاوت يسير جداً ، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عاماً ونصف عام ، بدقة فائقة ، وتلك هى حال جميع الأجرام السماوية . ويرى علماء الفلك أن مجرات النجوم يتداخل بعضها فى بعض ، فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة ، فى مجرة أخرى مثلاً (وتتحرك سياراتها هى الأخرى) ، ثم تخرج منها بسياراتها جميعاً ، دون أن يحدث أى تصادم بين سيارات المجرتين .

وإن العقل : حين ينظر إلى هذا النظام العجيب ، والتنظيم الدقيق الغريب ، لا يلبث

أن يحكم باستحالة أن يكون هذا كله قائماً بنفسه ، بل إن هنالك طاقة غير عادية هي التي تقم هذا النظام العظيم ، وتبين عليه .

• • •

الأنظمة المعقدة

إن هذا النظام الذي يوجد في العوالم الكبرى ، نجده - في صورته الكاملة - في أصغر عالم عرفناه ، فنحن نعرف - طبقاً لأحدث معلوماتنا - أن الذرة أصغر عالم ، وأنها قد تناهت في صغرها حتى لا يمكن أن نشاهدها بالمنظار الذي يكبر الأشياء ملايين المرات ، فهي - بناء على هذا - ليست شيئاً ، بل إنها « لا شيء » بالنسبة إلى أدنى ما يستطيع البصر الإنساني أن يراه ، ولكن هذه الذرة - مع ما وصفناها به - تحتوى بصورة رائعة على نظام الدوران العجيب : الموجود في النظام الشمسي ، فالذرة اسم لمجموعة من الإلكترونات ، وهذه الإلكترونات لا يتصل بعضها ببعض ، وإنما يوجد بينها فراغ كبير الحجم (نسبياً) . ولنأخذ مثلاً قطعة من الحديد التي توجد فيها الذرات ، متصلاً بعضها ببعض اتصالاً شديداً . وسنجد

أن هذه الإلكترونات لا تشغل أكثر من $\frac{1}{1,000,000,000}$ من مساحة الذرة ، وبقيّة المجال

يكون خالياً . ولو أننا أخذنا صورة مكبرة لجزئيتين من الإلكترون والبروتون فسوف يكون الفاصل بينهما ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين ياردة . ولقد نتصور الذرة ، من حيث هي في الغبار ، غير مرئية ، ومع هذا فإن حجم دوران الإلكترون داخلها يبلغ حجم كرة قدم قطرها ثمانية أقدام .

والإلكترون - الذي هو الجزء السلبي في الذرة - يدور حول البروتون - الذي هو الجزء الإيجابي فيها - وهذه الجزئيات التي لا حقيقة لها أكثر من نقط وهمية ساذجة في الشعاع ، تدور حول مركزها ، بنفس النظام الذي تتبعه الأرض في مدارها حول الشمس ، بحيث لا يمكن تصور وجود الإلكترون في مكان محدود لسرعة دورانه ، وإنما هو يتخيل فقط موجوداً على طول مداره في وقت واحد . وذلك لأنه يدور حول مداره بلايين المرات في الثانية الواحدة ! !

هذا النظام الذي يستحيل قيامه بنفسه ، ولا طريق إلى مشاهدته ، ولا يمكن تفسير عمله داخل الذرة بغير العلم ، أما وقد تبناه العلم فعلاً ، فلماذا لا تأخذ منه دليلاً على وجود منظم قائم على هذا التنظيم ؟ إنه يستحيل قيام هذا التنظيم في الذرة دون منظم قائم عليه .

• • •

إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون ، وتتحير إذا وجدنا أن مكالمات من

لندن إلى ملبورن باستراليا تم في بضع ثوان ؛ فإذا كان تعقيد نظام أسلاك التليفون يوقعنا في هذه الحيرة ، فما بالنا بنظامنا العصبي ، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيداً ؟ ! إن ملايين الأخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي - الذي أوجدته الطبيعة - من جانب إلى آخر ، ليل نهار . وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقها ، وفي حركتها ، وتحكم في حركات الأعضاء المختلفة ، وتحكم في الحركات الرئوية . ولو لم يكن هذا النظام موجوداً في أجسامنا لصارت الأجسام تلقياً لأشياء مبعثرة تسلك كل منها مسلكها الخاص .

ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الإنسان ، وفي هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية ، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر الجسم ، وتسمى هذه الأسلاك « الأنسجة العصبية » ، وفي هذه الأنسجة يجري نظام استقبال وإرسال للأخبار ، بسرعة سبعين ميلاً في الساعة . وبوساطة هذه الأنسجة تتذوق ، ونسمع ، ونرى ، ونباشر سائر أعمالنا ؛ بل إن هنالك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة وتسمى Taste Buds . ولكل منها سلك عصبي خاص متصل بالمخ . وبوساطة هذه الشعيرات يحس بالمذاقات المختلفة . وتوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية . ومن خلال نظام معقد ، يسرى من هذه الخلايا ، يسمع مخنا . وفي كل عين مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا المتلصقة بالضوء Light Receptors ، وتقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ ، وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدهنا ، فإذا قربنا إلى الجلد شيئاً حاراً ، فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا المتلصقة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فوراً إلى المخ . وإذا قربنا إلى الجلد شيئاً بارداً ، فإن ربع مليون من الخلايا ، التي تلتقط الأشياء الباردة ، تحس به ، وعندئذ يمتلئ المخ بأثرها ، ويرتد الجسم ، وتتسع الشرايين الجلدية ، فيسرع مزيد من الدم إليها ويزودها بالحرارة . وإذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة ، فإن مخابرات الحرارة توصلها إلى الدماغ ، حينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية - تلقائياً - عرقاً بارداً إلى خارج الجسم .

والنظام العصبي يشتمل على عدة فروع . منها : « الفرع المتحرك ذاتياً » Autonomic Branch ويقوم بأعمال تحدث ذاتياً في الجسم ، كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب . ويندرج تحت هذا الفرع نظامان : أحدهما : « النظام الخالق للحركة » Sympathetic System والآخر : هو المانع لها Payasympathetic . وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع . ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه ، ولو سيطر النظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفاً تاماً . وأقسام هذين النظامين تباشر أعمالها في دقة فائقة ، وفي توازن عام ، ولكن هنالك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين ، فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة ، وعندئذ تزيد سرعة عمليات القلب والرفة ، والنظام الثاني يتغلب عند النوم . فيسود السكون لجميع الحركات الجسمية .

تقليد الطبيعة :

إن أحسن الآلات من صناعة الإنسان لا يمكن أن تقف أمام النظام العجيب الذى يوجد فى الكون . ولهذا فإن تقليد نظام الطبيعة قد أصبح اليوم موضوعاً خاصاً فى العلم ، يولى أهمية خاصة للسير بالآلات الميكانيكية وفق ذلك النظام . وأصبحنا نرى علما جديداً يسمى « بيونيكس » Bionics لهذه الدراسة . وكانت مقتصرة من قبل على اكتشاف القوى الكامنة فى الطبيعة واستغلالها .

واليوم يسلك النظام البيولوجى سبلا كثيرة للحصول على معلومات تساعد على حل مسائل الهندسة .

ومن أمثلة استغلال نظام الطبيعة فى الصناعة آلة التصوير ، وهى فى الواقع تقليد ميكانيكى لعين الإنسان ، فعلمسة الكاميرا Lens هى كالشبكة الخارجية للعين ، والحجاب الحاجز Diaphragm هو قرنية العين Iris والقلم الذى يتأثر بالضوء . إنما هو شاشة العين التى توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية ترى الأشياء معكوسة^(١) .

لقد ابتكرت جامعة موسكو آلة نموذجية لالتقاط وقياس « الذبذبات تحت الصوتية » Infra-Sonic Vibrations . وهذه الآلة تستقبل وتلتقط أخبار الفيزيانات والزلازل وما أشبهها من الكوارث قبل حدوثها بمدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة ، وخمس عشرة ساعة . وهى أقوى من الآلات المستعملة خمس مرات . فمن أين جاء هذا التفكير إلى العلماء ؟ لقد استنبطوه من سمكة قنديل البحر ، التى تسمى « هلامى » Jelly Fish . فقلد المهندسون أعضائها ، وهى شديدة الحساسية ، حتى لتحس بالذبذبات تحت الصوتية^(٢) !

وهناك أمثلة كثيرة جدا غير هذه يمكن عرضها ، وهى تؤكد أن علماء الطبيعة والتكنولوجيا يقلدون - فى تفكيرهم الحديث - النماذج الحية فى الطبيعة .

وقد شغلت بال العلماء مسائل كثيرة من أزمان مضت ، على حين حللتها الطبيعة منذ زمن بعيد . وإن كانت أجهزة التصوير وتلقى الأخبار « التليترتر » لا يمكن وجودها بغير عقل إنسانى ، فمن المستحيل أن تتصور أن نظام الكون - الذى هو أكثر تعقيداً من أى نظام - قد قام بنفسه بغير عقل وراءه ، بل لابد أن له مهندساً منظماً - هو الإله ، ولا يمكن أن يتصور العقل نظاماً دون منظم ، فليس من اللامعقول أن نعتقد بوجود منظم للكون ، بل إن من اللامعقول أن ننكر خالق هذا النظام ، فالحقيقة أن العقل الإنسانى لا يملك أساساً عقلياً لإنكار الإله .

• • •

(١) لن يجرؤ صاحب علم منا أن يدعى أن آلة التصوير جاءت عن نفسها ، دون اختراع إنسانى . ولكن الكثيرين من علمائنا يعتقدون أن « العين » جاءت عن صدقة و اتفاق محض !

ثالثاً - روح الكون الغريبة :

ليس الكون كسلة المهملات ، وإنما هو منطوق على روح غريبة . وهذه الروح لا يمكن أن تصدر إلا عن عقل قام بخلق الكون ، ويقوم بتديره .

وليس من الممكن أن يوجد نظام وروح في عملية مادية عمية ، حدث اتفاقاً ، فالكون متوازن ، ومتناسب إلى حد لا يمكن تصوره . لقد قال « شادفاش Chadvalsh » : « إن من الممكن أن نسأل أى رجل - مؤمناً بالله كان أو منكرأ له - نسأله أن يثبت كيف يمكن أن يكون هذا التوازن في صالحه ، إذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة ؟ » (١) .

لا بد للحياة فوق الأرض من أحوال كثيرة ، يستحيل اجتماعها بنسبها الخاصة رياضياً . ولكننا نجد أن هذه الحالات المستحيل اجتماعها رياضياً موجودة على سطح الأرض فعلاً . وذلك يحتم علينا أن نؤمن بأن هنالك طاقة عظيمة عاقلة وراء الكون ؛ هي النسبية في وجود هذه الحالات .

• • •

التوازن المدهش في الأرض :

الأرض أهم عالم عرفناه ، إذ توجد فيها أحوال لا توجد في شيء من هذا الكون الواسع ، وهي في ضخامتها (كما تبدو لنا) لا تساوى ذرة من هذا الكون العظيم ، ولو أن حجمها كان أقل أو أكثر ، مما هي عليه الآن لاستحالت الحياة فوقها ، فلو أنها كانت في حجم القمر مثلاً ، بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلاً . لكانت جاذبيتها سلس جاذبيتها الحالية ، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها ، كما هي الحال في القمر ، الذي لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائى ، لضعف قوة الجاذبية فيه . وانخفاض الجاذبية في الأرض إلى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليها اشتداد البرودة ليلاً حتى يتجمد كل ما فيها ، واشتداد الحرارة نهاراً حتى يحترق كل ما عليها .

وكذلك يترتب على نقص حجم الأرض إلى مستوى حجم القمر أنها لن تمسك مقداراً كبيراً من الماء . وكثرة الماء أمر ضرورى لاستمرار الاعتدال الموسمي على الأرض ، ومن ثم أطلق أحد العلماء على هذه العملية لقب « عجلة التوازن العظيمة » ، Great Balance Wheel (٢) . وكذلك سيرتفع الغلاف الهوائى للأرض في الفضاء ثم يتلاشى . ويتبع ذلك أن تبلغ درجة حرارة الأرض أقصى معدلها ، ثم تنخفض إلى أدنى درجاتها ، على ما سبق ذكره .

وعلى العكس من ذلك ، إذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى لتضاعفت جاذبيتها

الحالية ، وحينئذ ينكش غلافها الجوى — الذى هو على بعد خمسمائة ميل — إلى ما دون ذلك . وسيترتب على هذا أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا إلى ثلاثين من الضغط الجوى ، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر فى الحياة .

ولو أن الأرض تضاعف حجمها ، فصارت مثل حجم الشمس مثلا ، لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل جاذبيتها الحالية مائة وخمسين مرة ، ولأقرب غلافها الهوائى ، حتى يصير منها على بعد أربعة أميال فقط ، بدلا من خمسمائة ميل ، ولارتفع الضغط الجوى إلى معدل طن واحد على كل بوصة مربعة . وذلك يؤدى إلى استحالة نشأة الأجسام الحية . وهو من الناحية النظرية يعنى أن يصير وزن الحيوان الذى يزيد رطلا واحدا — تحت الكثافة الهوائية الحالية — خمسمائة رطل . كما يهبط حجم الإنسان حتى يصير فى حجم فأر كبير ، ولاستحال وجود العقل فى الإنسان ، لأنه لا بد للعقل الإنسانى من أنسجة عصبية كثيرة فى الجسم ، ولا يوجد هذا النظام إلا إذا كان حجم الجسم يقلر معين .

* * *

نحن قائمون على الأرض ظاهراً ، ولكن الأصح أن نقول : نحن ملقون على رؤوسنا ، ولتوضيح ذلك نقول : إن الأرض مثل كرة معلقة يسكتها الإنسان ، فوضع الناس بعضهم بالنسبة إلى بعض على هذه الكرة ، أن سكان أمريكا سيكونون تحت سكان أهالى الهند ، وسكان الهند سيكونون تحت أقدام سكان أمريكا .

فأرضنا هذه ليست بثابتة ، وإنما هى تدور بسرعة مقدارها ألف ميل فى الساعة ، وذلك يجعل وضعنا فوقها أشبه بحصاة وضعت على محيط عجلة تدور بسرعة ، يوشك أن تقلد بها فى الفضاء ، ولكن الأرض لا تقلدنا ؛ بل نحن مستقرون عليها ، فكيف تمسكنا وهى تدور بهذه السرعة ؟ ! ! ..

إن فى الأرض جاذبية غير عادية ، وهى بهذه الجاذبية تشد كل شئ إليها ، فجاذبية الأرض وضغط الهواء المستمر يسكانا فوقها بنسبة معلومة ، وهكذا صرنا مشدودين بهاتين العمليتين إلى كرة الأرض من كل ناحية .

وضغط الهواء الذى يكون على كل بوصة مربعة ما يقرب من ١٥ رطلا معناه : أن كل إنسان يتحمل ١٠ يقرب من ٢٢٨,٤٠ رطلا من الضغط الجوى على جسمه ، ولكن الإنسان لا يحس بهذا الوزن ، لأن الهواء يضغطه من كل ناحية ، كما يحدث عندما نسبح فى الماء . ثم إن الهواء — وهو علم على مركب معين من الغازات — ذو فوائد كثيرة ، لا يمكن حصرها فى كتاب .

* * *

لقد توصل نيوتن ، من خلال مشاهداته ومطالعاته ، إلى أن الأجسام يجر بعضها بعضا ، ولكنه لم يستطع تعليل هذا ، ولذا سلم بأنه لا تفسير لديه لهذه العملية .
ولقد ذكر هذه المسألة « وهايت هيد » قائلا :

« لقد كشف نيوتن - حين سلم بهذا - عن حقيقة فلسفية عظيمة ؛ هي أن الطبيعة لو كانت بغير روح فلن تفسر نفسها ، كما أن الشخص الميت لا يستطيع أن يحكى لنا واقعا . إن جميع التفسيرات الطبيعية والمنطقية لم تزد أخيرا على أن تكون إظهاراً لهدف ، لأن الميت لا يمكن أن يكون حامل^(١) أهداف . »

وسوف أدفع حديث (وهايت هيد) إلى الأمام ، قائلا : إنه إذا لم يكن هذا الكون تحت سلطان « وجود ذى إدراك » فلماذا توجد فيه هذه الروح المدهشة ؟

• • •

إن الأرض تتم دورة واحدة حول محورها ، في كل أربع وعشرين ساعة . ومعنى ذلك أنها تسير حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة ، فإذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت إلى مائتي ميل في الساعة ، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات ، بالنسبة إلى ما هي عليه الآن ، ويطرب على ذلك أن تحرق الشمس - بشدة حرارتها - كل شئ فوق الأرض ، وما يبق بعد ذلك ستبقى عليه البرودة الشديدة في الليل .

وهذه الشمس ، التي نعدّها اليوم وسيلة حياتنا ، تبلغ حرارة سطحها اثني عشر ألف درجة فهرنهايت ؛ والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣,٠٠٠,٠٠٠ ميلا . وهذا البون المائل دائم ، لا يتغير أبداً بزيادة أو نقص ، وفي ذلك عبرة عظيمة لنا ؛ لأنه لو نقص ، واقتربت للشمس من الأرض . بمقدار النصف ، مثلاً ، من الفاصل الحالي ، فسوف يحترق الورق على الفور من حرارتها ، ولو بعد هذا الفاصل ، فصار ضعف ما هو عليه الآن فإن البرودة الشديدة التي تنجم عن هذا البعد ، سوف تقضي على الحياة في الأرض ، ولو أنه حل محل الشمس سيار آخر غير عادي ، يحمل حرارة تزيد على حرارة الشمس عشرة آلاف مرة ، فسوف يجعل من الأرض تنورا رهيباً ..

ثم إن هذه الأرض دائرة في الفضاء ، وهي تؤدي عملها بزاوية ٥٣٣ درجة ، الأمر الذي تنشأ عنه المواسم ، ويطرب عليه صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكنى ، فلو لم تكن الأرض على هذه الزاوية لغمر الظلام القطبين طول السنة ؛ ولसार بخار البحار شمالا

وجنوباً ، ولما بقي على الأرض غير جبال الثلج ، وفيافي الصحراوات ، وهكذا تنجم موثرات كثيرة تجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة .

• • •

فلو كان قياس العلماء صحيحا ، وهو : أن المادة قد نظمت ذاتها على هذه الهيئة المناسبة المتوازنة ، فما أعجب هذا القياس ، وما أكثر إثارته للدهشة ! ! يقولون : إن الأرض انشقت من الشمس ، ومعنى هذا : أن درجة حرارتها كانت في مبدأ أمرها ، نفس حرارة الشمس ، وهي اثنا عشر ألف درجة فهرنهايت ، ثم بدأت الأرض تبرد ، إذ لا يمكن اتصال الأوكسجين بالهيدروجين إلا بعد أن تنخفض الحرارة إلى أربعة آلاف فهرنهايت - وفي هذه المرحلة وجد الماء ، وهكذا استمرت عمليات التغلب على سطح الأرض ملايين السنين ، حتى جاءت الأرض في صورتها الحالية ، منذ أكثر من بليون سنة مضت ، وذهبت الغازات من فضاء الأرض إلى فضاء الكون ، وتحولت بقايا الغازات بعد ذلك إلى المركب المائى ، أو انجذبت إلى الأشياء الأرضية ، أو بقيت في صورة الهواء ، وأكثرها في صورة الأوكسجين أو النتروجين . وهذا الهواء ، في كثافته ، يعد جزءاً واحداً من ٢,٠٠٠,٠٠٠ من أجزاء الأرض . ولم تنجذب كل الغازات إلى الأرض ، كما أنها كلها لم تتحول إلى (هواء) . ولو أنه حدث ، لاستحالت حياة الإنسان ، فلو أننا فرضنا المستحيل ، ووجدت الحياة في ظروف كهذه - تتحمل فيها البوصة المربعة الآلاف الأبطال من الضغط الجوى - لكان من المستحيل أن توجد الحياة في صورة الإنسان الحالية .

ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكا ، بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالى ، لما وجد الأوكسجين ،^(١) وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية .

وكذلك لو كانت البحار أعمق بضعة أقدام ، أكثر من القاع الحالى ، لانجذب (ثانى أكسيد الكربون) ، والأوكسجين^(٢) ، ولاستحال وجود النباتات على الأرض ، فضلا عن الحياة .

ولو كان الغلاف الموائى للأرض ألطف مما هو عليه الآن ، لاخرقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجى ، ولربأناها مضيئة في الليل ، ولسقطت على كل بقعة من الأرض وأحرقتها ، فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلا في الثانية ، ونتيجة لهذه السرعة العظيمة ، فإنها ستحرق كل شئ يمكن احتراقه على الأرض ، حتى تصبح الأرض غربالا في وقت ليس بعيد . .

(١) إذ أن القشرة الأرضية ستمص حينئذ الأوكسجين .

(٢) حتى يتمصها المشاء .

فلولا أن غلاف الأرض الهوائى يقينا من هذه الشهب لاحترقنا . فإن سرعتها أكثر من سرعة طلقة البندقية تسعين مرة كما أن حرارتها الشديدة كافية لإهلاك كل شئ ، بما فيه الإنسان . فنحن إذن فى حماية هذا الغلاف الكثيف الموزون ، الذى لا تخترقه « الأشعة الشمسية ذات الأهمية الكيماوية » Actinic Rays إلا بالقدر الذى يكفى لحياة النبات ، وإيجاد الفيتامينات ، والقضاء على الجراثيم الضارة ، وما إلى ذلك ..

إن هذا التوازن للكميات ، المحتاج إليها ، عجيب جداً ؛ فالغلاف الذى فوق الأرض مكون من ستة غازات ؛ منها ٧٨ فى المائة من النيتروجين ، و ٢١ فى المائة من الأوكسجين ، والغازات الأخرى توجد بنسب قليلة ، وهذا الغلاف يضغط الأرض بنسبة ١٥ رطلاً فى البوصة المربعة ، ونسبة الأوكسجين فى هذا الضغط ٣ أرتال فى البوصة المربعة ، والمقادير الأخرى للأوكسجين الموجود اليوم قد انجذبت إلى الأرض ، وهى تمثل ٨.٠ من المساء الموجود على سطح الأرض ، والأوكسجين هو الوسيلة الوحيدة لتنفس سائر حيوانات الأرض ، ولا طريق إلى ذلك من غير القضاء .

* * *

قانون الضغط والتوازن :

وهنا يظهر سؤال هام ، وهو : كيف تجمعت هذه الغازات الشديدة الحركة ، مع احتفاظها بمقاديرها المتناسبة ، التى لا بد منها لحياة ، فى الفضاء ؟

والجواب : أنه لو كانت نسبة الأوكسجين ٥٠% ، أو أكثر ، بدلا من ٢١% : لزادت قابلية الاحتراق ، بما يساوى ارتفاع هذه النسبة ... فإذا احترقت شجرة واحدة فى غابة ، حينها تكون نسبة الأوكسجين ٢١% ، فإن الانفجار الخاطف ، الناتج عن ارتفاع هذه النسبة إلى ٥٠% يجعل احتراق الغابة كلها أمراً حتمياً ، فى لحظات !

ولو أن هذه النسبة انخفضت ، فأصبحت ١٠% ، لكان من الممكن ، على مدى القرون ، أن تعداد الحيوانات الحياة مع انخفاض نسبة الأوكسجين إلى هذا الحد ، ولكنه يكون من المستحيل أن تزدهر الحضارة الإنسانية ، كما هى عليه فى الظروف الحالية^(١) .

ولو أن الأوكسجين الموجود على سطح الأرض انجذب مع الأوكسجين ، الذى انجذب قبل ذلك فى الأرض ، لكان من المستحيل (الوجود الحيوانى الحسى) .

إن الأوكسجين والهيدروجين وثائى أوكسيد الكربون ، وغازات الكربون الأخرى ، على اختلاف أشكالها ، تركب معاً فتصبح عناصر عظيمة الأهمية للحياة الحيوانية ، وللأسس

(١) إذ أن أعضاء الجسم الإنسانى غل فرض وجودها فى هذه الحالة لن تتمكن فى تلك الظروف من مواصلة عملها كما دأبت اليوم فى الظروف المتاحة فعلا ، وذلك لاستحالة وجود الأنسجة والخلايا البدنية والعقلية الدقيقة فى ظل تلك الظروف ، لأنه كلما قل الأوكسجين قل النشاط الجسمى والعقل .

التي تقوم عليها الحياة الإنسانية ، وبناء عليه لا يوجد احتمال $\frac{1}{1.000.000.000}$ أن تجتمع ، هذه الغازات في تناسبها المطلوب ، وبجميع خصائصها اللازمة للحياة ، على كوكب معين ، بطريق الصدفة .

ولذلك يقول أحد كبار علماء الطبيعة :

«Science has no explanation to offer for the facts, and to say it is 'accidental' is to defy mathematics.»

« إن العلم لا يملك أى تفسير للمعاني ، والقول بأنها حدثت « اتفاقاً » إنما يعتبر تحدياً وتعدداً مع الرياضيات » .

إن هناك وقائع كثيرة جدا ، لا طريق لنا إلى فهمها أو تفسيرها ، إلا إذا سلمنا بأن للعقل بدأ عاليا في إحداثها ..

فن الخصائص المهمة التي توجد في الماء : أن كثافة الثلج Density تقل بنسبة كبيرة عن كثافة الماء ، فالماء إذن مادة معلومة ، تقل كثافتها بعد التجمد ، ولهذا الأمر قيمة عظيمة بالنسبة إلى الحياة ؛ إذ يترتب على هذه الخاصية أن الثلج يطفو على سطح الماء ، ولا ينزل إلى قاع البحار والأنهار ، ولولا ذلك ، لكان الماء كله قد تجمد في البحار ، والأنهار ، والخزانات المائية ؛ إن الثلج يقوم بدور الحجاب للماء الذي تحته ، كما تبقى حرارته دون درجة التجمد ، فتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة . فإذا ما جاء موسم الربيع ذاب الثلج ، ولولا خاصية الثلج هذه لعانى سكان الأقطار الباردة الكثير من المتاعب والمصائب ، الناجمة عن عدم ذوبان الثلج .

• • •

لقد أصاب مرض الإندوثيا Endothia في أوائل القرن العشرين ، أشجار (شاه بلوط) الثمينة في غابات أمريكا ، وانتشر بسرعة فائقة ، فقال بعض من رأى تلك المواضع الخربة الكبيرة في « مظلة الغابات » : إنها لن تمتلئ أبداً !!

ولم يكن أى نوع من الأشجار - حتى ذلك الحين - قد انتزع هذا الامتياز الذى كان خاصاً بهذا النوع من أشجار البلوط ، ذات الأخشاب الثمينة الغالية ، حتى كان يلقب : « ملك أشجار الغابات الأمريكية » ، قبل وصول وباء الإندوثيا من آسيا سنة ١٩٠٠ م تقريباً .

أما الآن ، فلا توجد هناك أية آثار لشاه بلوط ، ذلك الشجر العظيم ، في الغابات الأمريكية . ولكن سرعان ما امتلأت تلك المواضع في غابات أمريكا بنوع آخر من الأشجار ، يسمى : « التبوليب » ، كانت لا تحتل من الغابات إلا حيزاً صغيراً ، ولم تكن مزدهرة .

لقد انتهزت أشجار « التوليب » هذه الفرصة ، فازدهرت وحلت محل شاه بلوط .
واليوم لا يتذكر أى تاجر أخشاب أمريكي وجود أشجار شاه بلوط ، فقد حلت محلها أشجار
« التوليب » ، التى تنضخ كل سنة بنسبة بوصة واحدة فى الجذع ، وترتفع ست بوصات
فى القروغ والأغصان ، كما تعطى خشباً ممتازاً يستعمل فى جميع الصناعات الدقيقة .

* * *

ومن الأحداث العلمية الهامة التى وقعت فى هذا القرن ما حدث فى استراليا .. لقد
زيرعوا نوعاً خاصاً من « الصبار » فى مزارعها لكى يحميها ، ولم يكن فى استراليا أى نوع
من الدودة يعادى ويأكل هذا النبات ذا الشوك ، فأخذ ينتشر انتشاراً رهيباً ومروعاً ، حتى
استولى على منطقة توازى مساحه جزر بريطانيا كلها ، لقد هاجم الصبار القرى والمدن ،
وخرب المزارع والحقول ، حتى استحالت الزراعة ، ولم يتمكنوا من استئصاله بأية طريقة
لقد أصبح جيشاً جباراً ، يزحف لكى يسيطر على استراليا كلها ، وهى لا تجد ما تقاوم به ،
واستمرت هذه الحال ، حتى خرج علماء الحشرات ، يبحثون عن دودة تأكل الصبار .
فاكتشفوا دودة لا تعيش إلا عليه ، ولا غذاء لها سواه ، وقد كان نسلها يزيد بسرعة ، ولا
عدو لها فى حشرات استراليا ، وسرعان ما تغلبت هذه الدودة الصغيرة على جيش الصبار
العظيم ، وانتهت مصائب استراليا ! ! .

أيمكن أن يكون هذا القانون - « قانون الضبط والتوازن Checks and Balances » قد
حدث دون تخطيط واع ، هكذا صدقة واتفاقاً ؟ !

* * *

السنن الرياضية المحكمة :

وفى الكون سنن رياضية محكمة ، بصورة تدعو إلى الدهشة والإكبار ، وحتى المادة
الجامدة ، التى لا تملك شعوراً ، لا يمكن أن تجرى على غير نظام ، وإنما هى تتبع قوانين
صارمة معلومة ، ولفظ الماء ، أينما كان الماء على هذه الأرض الواسعة ، لن يكون معناه
سوى مادة سائلة تحتوى على ١١,١٪ من الهيدروجين ، و ٨٨,٩٪ من الأوكسجين . ولذلك
يستطيع أى عالم يجرى عملية تسخين الماء فى معمله أن يقول بكل قطع : إن درجة حرارة
غليان الماء هى (١٠٠) ستى جراد ، دون أن يرى مقياس الحرارة ، ما دام ضغط الهواء
٧٦٠ م.م. فإذا كان ضغط الهواء أقل ، فسوف نحتاج طاقة أقل لتوفير الحرارة التى تدفع
جزيئات الماء . وتعطيها صورة البخار . وحينئذ سوف تنخفض درجة غليان الماء ، وعلى
العكس ، لو كان ضغط الهواء أكثر من ٧٦٠ م.م. فستزداد درجة غليان ، بمقدار زيادة
ضغط الهواء . لقد جربوا هذه العملية مراراً ، إلى أن تمكنوا من البت فى أمر الغليان ، حتى
قبل تسخين الماء ، والتنبؤ بدرجة غليانه دون استعمال المقياس . ولو لم يكن هذا النظام والضغط

في المادة وعمليات الطاقة ، لما وجد الإنسان أسسا يقيم عليها كشوفه ومنجزاته العلمية .
ولولا هذا النظام والضببط لحكت عالمنا الاتفاقات والصدف المحضة !. ولكان من المستحيل على
علماء الطبيعة أن يقولوا : إنه مباشرة عمل ما في حالة معينة تحصل نتيجة كذا ..

نظام العناصر والدورية :

إن أول شيء يشاهده الطالب في معمل الكيمياء هو نظام العناصر ودوريتها ، وقد وضع
العالم الروسي «ماندليف» خريطة للعناصر الكيميائية ، بمقاديرها الجوهرية ، وسميت
بـ «الخريطة الدورية» Periodic Chart ، وفي ذلك الوقت لم تكن كل العناصر قد تم
كشفها ، حتى تملأ كل الخانات الموجودة في الخريطة ، فتركها «ماندليف» خالية ، إلى أن
ملأها العلماء فيما بعد ، كما تخيلها العالم الروسي من قبل كشفها بسنين طويلة . وهذه الخريطة
تحتوي جميع العناصر الجوهرية بأرقام وقوائم مختلفة . ومعنى الأرقام الجوهرية هو العدد
الخاص الذي يوجد في مركز الذرة ، من الشحنات الكهربائية الإيجابية «البروتون» ، وهذا
العدد هو الفارق بين ذرة عنصر وآخر ، فالهيليروجين ، الذي نعتبره أبسط عنصر
يوجد في مركز ذرته شحنة واحدة من الكهربائية الإيجابية ، وكذلك توجد في العنصر المسمى
«هيلم» شحنتان ، وفي «ليثيم» ثلاث شحنات . وما كان لنا أن نتمكن من وضع خرائط
العناصر المختلفة إلا بناء على قوانينها الرياضية العجيبة . وهل هناك مثال للضببط أفضل من أننا
عثرنا على العنصر رقم (١٠١) بمجرد معرفة شحنته الكهربائية الخمسة عشر ١١؟

ليس من الممكن أن يطلق العلماء على هذا النظام الرائع في الطبيعة عبارة : «الصدقة
الدورية» Periodic Chance ، وإنما هو «القانون الدوري» Periodic Law . وليس
من الممكن أن نتنكر لما تطلبه هذه الضوابط والنظم من وجود إله ومهندس . . فإن عدم إيمان
العلم الحديث بالإله إنكار في الواقع لكشوفه كنتيجة حتمية !

• • •

«سوف يحدث كسوف للشمس يوم ١١ أغسطس سنة ١٩٩٩ م ، ويمكن رؤيته كاملا
في كورنغال»^(١) ، ليس هذا مجرد تنبؤ قياسي ، ولكن علماء الفلك يؤمنون بأنه لابد من
هذا الكسوف ، بناء على نظام دوران الشمس الموجود حالياً .

ولكم تحير عندما نرفع أعيننا إلى السماء ، ونشاهد الكواكب والنجوم التي لا حصر لها ،
إن هذه الكرات السماوية ، التي لا تزال معلقة في الفضاء ، منذ قرون لا نعرف عديتها ،
تدور في الفضاء الفسيح السحيق على نظام معين معلوم بحيث يمكننا معرفة جميع الوقائع

المستقبل قبل وقوعها بقرون . إنه نظام لا مثيل له ، من النرة إلى قطرة الماء ، إلى الكواكب
السحيفة في أجواز الفضاء . . نظام تستبسط على أساسه قوانين علمية !

إن نظرية « نيوتن » تفسر دوران الكرات الفلكية ، وبناء على هذه النظرية استطاع
العالمان : آدمز ولافرير أن يتنبأ بوجود كوكب ، لم يكن معروفاً وجوده في وقتها ،
وبناء على قولهما وجه مرصد برلين في ليلة من ليالى سبتمبر سنة ١٨٤٦ تلسكوباً إلى الجهة
التي أشارا إليها ، وسرعان ما وجد رجال المرصد الكوكب الذى نسميه اليوم (السيار
نبتون) ، في أسرة الشمس !!

• • •

خصائص حكيمة :

إن أبعد الأمور عن القياس ، وأعظمها استحالة ، هو أن نؤمن بأن الكون وقطعته .
الرياضية ، قد جاء نتيجة « صدقة » !

فمن الخصائص الحكيمة في هذا الكون كونه صالحاً للتصرفات الإنسان عند الضرورة ،
ولتأخذ التروجين على سبيل المثال . . فإن ٧٨٪ من التروجين توجد في كل هبة من الرياح ،
وكذلك توجد في أجزاء كيميائية أخرى ، ونسميها حينئذ « التروجين المركب » : وهذه
كلها يستغلها النبات لكي يهيئ لنا الجزء التروجيني في غذائنا ، فلو لا هذه العملية ، لهلك
الحيوان والإنسان ، وكل ما يعتمد على النبات في أكله جوعاً وفاقاً ؛ فإن أى نبات غذائى
لا ينمو بدون هذا التحليل الكيميائى .

إن هناك طريقتين لا ثالث لهما ، لتحليل التروجين في الأرض ، والطريقة الأولى : هى
« العملية الجراثومية » ، وتقوم بأدائها الجراثيم التى تعيش في جذور الشجرة تحت الأرض ،
وهذه الجراثيم تأخذ التروجين من الهواء ، وتصنع منه « التروجين المركب » ، ويبقى هذا
التروجين تحت الأرض ، بعد الحصاد ، مع الجذور . وأما العملية الثانية التى تصنع التروجين
المركب فهى (الرعد) . . فكلما احتك الرعد في الفضاء ، مزج شيئاً من الأوكسجين
في التروجين ، ويصل هذا التروجين المركب إلى الحقول عن طريق الأمطار التى تلى العملية ،
والكمية التى تحصلها الحقول من هذا المركب بسهولة ، كل سنة ، هى ما يقرب من خمسة
أرطال لكل « إيكرا »^(١) من الأرض ، وهى تساوى ثلاثمائة رطل من تترات الصوديوم^(٢) .

(١) مقياس إنجليزى لسطح الأرض ، وهو أقل من (فدان) المراجع .

(٢) Lyon, Buckman and Brady,

The Nature and Properties of Soils.

ولكن هذه الكمية من النتروجين المركب لا تكفى ، لأن الحقول التى تزرع لمدة طويلة ، يتغذى ما فيها منه . ولذلك نرى الزراع يحولون المواسم الزراعية من حقل لآخر ، بعد وقت معلوم . وأعجب ما حدث فى هذا القرن — عندما ضاقت الأرض بما رحبت على سكانها ، وقل النتروجين لكثرة الزراعة ، وخافت الإنسانية من القحط والفاقة — اكتشافنا فى هذه المرحلة الخطيرة « طريقاً ثالثة » لاستمداد النتروجين من الهواء ، وكانت الجهود الأولى ، التى بذلت فى هذا الصدد ، أنهم جربوا عملية خلق رعد صناعى فى الفضاء باستعمال آلات قوتها ٣,٠٠٠,٠٠٠ حصان ، غير أنهم لم ينجحوا إلا فى صناعة كمية ضئيلة من النتروجين المركب . وتقدم الإنسان بهذه التجارب ، حتى كشف الطريق الثالثة ، وهى استخدام الهواء فى صناعة النتروجين المركب ، فى صورة (السباد) . . وهكذا استطاع أن يهيئ لغذائه جزءه الضرورى ، الذى لولاه لهلك جوعاً . وهذا حدث عجيب فى تاريخ الأرض ، فإن الإنسان كشف للمرة الأولى فى تاريخه حلاً لازمة الغذاء ، وابتعدت أشباح الكارثة عن سكان الأرض ، حين كان من المستحيل أن يتجنبوها !!

• • •

إن هناك أموراً كثيرة تؤكد وجود الحكمة والروح فى الكون ، وكل ما لدينا من علم يؤكد لنا أن ما قد كشف أقل بكثير مما لم نستطع حتى الآن الكشف عنه ! ورغم ذلك فإن ما كشفه الإنسان كثير جداً ، حتى إننا لو أردنا فهرسة عناوين هذه العلوم ، فسنحتاج إلى سفر ضخيم جداً ، بالنسبة إلى هذا الكتاب الذى بين يدي القارئ ، وسوف يبقى بعد ذلك أيضاً الكثير منها دون فهرسة . .

إن كل ما يمكن للسان الإنسان أن يلفظه عن آلاء الله وآياته سوف يكون غاية فى النقص ، فهما فصلناهما وأسهبنا فى تفسيرها ، فسنخرج آخر الأمر مقتنعين بأننا لم نخط بها ، وإنما تناولنا منها « بعض الشيء » .

والحق أنه لو قدر أن تنكشف للإنسان جميع العلوم الكونية ، ثم يجلس سكان المعمورة ، وقد هيئت لكل فرد منهم جميع الوسائل ، فى أكمل صورها ، فإن هؤلاء جميعاً لن يستطيعوا تدوينها أبداً . . أليس هذا هو مصداق قوله تعالى :

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر عىده من بعده سبعة أبحر مانفذت كلمات الله : » وقوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جتا بمطهر مدداً » (١) !!

إن كل من أتيت له الفرصة كي يطالع صفحة من هذا الكون ، سيعترف مصداقاً أنه لا مبالغة في هذه الكلمات الإلهية ، وإنما هي تعبير بسيط عن الحقائق الموجودة فعلاً .

• • •

صدقة أم عمليات حكيمه ؟

إن معارضى الدين يسلمون بكل ما طرحناه في الصفحات الماضية من الأنظمة العجيبة ، والحكمة غير العادية ، والروح التي تسرى في الكون ، ولكنهم يفسرونها بطريقة أخرى ؛ لأنهم عاجزون عن أن يجدوا فيها رمزاً أو إشارة لمنظم ومدير . . فإذا بهم يرون أن كل هذا جاء نتيجة « صدقة محضة » .

واستمع إلى قول « هكسلي » :

« لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة ، وظلت تضرب على حروفها للملايين السنين ، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير ! فكذلك كان الكون ، الموجود الآن ، نتيجة لعمليات عمياء ، ظلت تدور في « المادة » ، لبلايين السنين (١) » .

إن أى كلام من هذا القبيل « لغو مثير » ، بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان ؛ فإن جميع علومنا تجهل - إلى يوم الناس هذا - أية صدفه أنتجت واقعاً عظيماً ذا روح عجيبة ، في روعة الكون ، فنحن نعرف بعض الصدف ، وما ينشأ عنها من آثار ، فعندما تهب الرياح تصل « حبوب اللقاح » من وردة حمراء إلى وردة بيضاء ، فتأتى بوردة صفراء . . هذه صدفه لا تفسر قضيتنا إلا تفسيراً جزئياً استثنائياً . فإن وجود الوردة في الأرض بهذا التسلسل ، ثم ارتباطها المدهش مع نظام الكون ، لا يمكن تفسيره بهبه رياح صدفه . إنها تأتى بوردة صفراء ولكنها لاتأتى بالوردة نفسها ! إن الحقيقة الجزئية الاستثنائية التي توجد في مصطلح « قانون الصدفه » باطله كل البطلان ، إذا ما أردنا تفسير الكون بها .

يقول البروفيسور ايدوين كونكلين :

« إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة « حادث انقاضي » شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعلاد معجم ضخم ، نتيجة انفجار صدى يقع في مطبعة (٢) » .

وقد قيل : إن تفسير الكون بواسطة (قانون الصدفه) ليس « بكلام فارغ » . بل هو

كما يعتقد السير جيمس جينز ينطبق على «قوانين الصدفة الرياضية المحضة»

(1) Purely Mathematical Laws of Chance

ويقول أحد العلماء الأمريكيين :

« إن نظرية الصدفة ليست افتراضاً ، وإنما هي نظرية رياضية عليا ، وهي تطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية ، وهي تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق ، وللتدقيق في إمكان وقوع حادث من نوع معين ، وللوصول إلى نتيجة ، هي معرفة مدى إمكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة (2) » .

• • •

ولو افترضنا أن المادة وجدت بنفسها في الكون ، وافترضنا أيضاً أن تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها (ولست أجد أساساً لأقيم عليه هذه الافتراضات) ففي تلك الحال أيضاً لن ننظر بتفسير الكون ، فإن « صدقة » أخرى تحول دون طريقنا . فلسوء حظنا : أن الرياضيات التي تعطينا نكتة « الصدفة » الثمينة ، هي نفسها التي تنفي أي إمكان رياضي في وجود الكون الحالي ، بفعل قانون الصدفة .

لقد استطاع العلم الكشف عن عمر الكون وضخامة حجمه ، والعمر والحجم اللذان كشف عنهما العلم الحديث غير كافيين في أي حال من الأحوال ، لتسوين إيجاد هذا الكون عن قانون الصدفة الرياضي .

ويمكننا أن نفهم شيئاً عن قانون الصدفة من المثال التالي :

« لو تناولت عشرة دراهم ، وكسبت عليها الأعداد ، من ١ إلى ١٠ ، ثم رميتها في جيبيك ، وخطبتها جيداً ، ثم حاولت أن تخرجها من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي ، بحيث تلقى كل درهم في جيبيك بعد تناوله مرة أخرى . . فإمكان أن تناول الدرهم المكتوب عليه (3) في المحاولة الأولى هو واحد على عشرة ، وإمكان أن تناول الدرهمين (١ ، ٢) بالترتيب ، واحد في المائة ، وإمكان أن تخرج الدراهم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) بالترتيب هو واحد في العشرة آلاف . . حتى إن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم ١ إلى ١٠ بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات !! » .

لقد ضرب هذا المثال العالم الأمريكي الشهير « كريسي موريس » ، ثم استطرده قائلاً :

(١) Mysterious Universe, p. 3.

(٢) The Evidence of God, p. 23.

(٣) Man Does not Stand Alone p. 17.

« إن الهدف من إثارة مسألة بسيطة كهذه ، ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد « الوقائع » ،
بنسبة كبيرة جداً في مقابل « الصدقة » (١) .

• • •

ولنتأمل الآن في أمر هذا الكون ، فلو كان كل هذا بالصدقة والاتفاق ، فكيف من الزمان
استغرق تكوينه بناء على قانون الصدقة الرياضي ؟

إن الأجسام الحية تتركب من « خلايا حية » ، وهذه (الخلية) مركب صغير جداً ،
ومعقد غاية التعقيد ، وهي تدرس تحت علم خاص يسمى « علم الخلايا » Cytology . ومن
الأجزاء التي تحتوى عليها هذه الخلايا : البروتين ، وهو مركب كيمائى من خمسة عناصر ،
هى : الكربون ، والهيدروجين ، والنروجين ، والأوكسجين ، والكبريت .. ويشمل
الجزئى البروتينى الواحد أربعين ألفاً من ذرات هذه العناصر ! !

وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيمائى ، كلها منتشرة في أرجائه ، فأية نسبة في تركيب
هذه العناصر يمكن أن تكون في صالح قانون « الصدقة » ؟ ! يمكن أن تتركب خمسة عناصر
— من هذا العدد الكبير — لإيجاد « الجزئى البروتينى » بصدقة واتفاق محض ؟ ! إننا نستطيع
أن نستخرج من قانون الصدقة الرياضى ذلك القدر الهائل من (المادة) الذى سنحتاجه ،
لنحدث فيه الحركة اللازمة على الدوام ؛ كما نستطيع أن نتصور شيئاً عن المدة السحيقة
التي سوف تستغرقها هذه العملية .

لقد حاول رياضى سويسرى شهير ، هو الأستاذ (تشارلز يوجين جواى) أن
يستخرج هذه المدة عن طريق الرياضة .. فأتى في أبحاثه إلى أن (الإمكان المحض) في وقوع
الحادث الاتفاقى — الذى من شأنه أن يؤدى إلى خلق كون ، إذا ما توفرت المادة — هو واحد
على مجزء (أى : 10×10 مائة وستين مرة) . وبعبارة أخرى : نضيف مائة وستين صفراً
إلى جانب عشرة ! ! وهو عدد هائل لا يمكن وصفه في اللغة .

إن إمكان حدوث الجزئى البروتينى عن (صدقة) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون
مرة عن المادة الموجودة الآن في سائر الكون ، حتى يمكن تحريكها وضخها ، وأما المدة
التي يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية ، فهي أكثر من 10^{13} سنة (١) !

إن جزئى البروتين يتكون من « سلاسل » طويلة من الأحماض الأمينية Amino-Acids
وأخطر ما في هذه العملية هو الطريقة التي تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض ، فإنها
لو اجتمعت في صورة غير صحيحة لأصبحت سماقاتلاً ، بدل أن تصبح موحدة للحياة .

(١) Man Does not Stand Alone, p. 17.

(٢) أى : مائتان وثلاثة وأربعون صفراً أمام عشر ستين — المترجم .

لقد توصل البروفيسور ج.ب. ليتز G.B. Leathes إلى أنه يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من $\frac{1}{8}$ صورة وطريقة . وهو يقول : إنه من المستحيل تماماً أن تجتمع هذه السلاسل - بمحض الصدفة - في صورة مخصوصة من هذه الصور التي لا حصر لها ، حتى يوجد الجزء البروتيني الذي يحتوي أربعين ألفاً من أجزاء العناصر الخمسة التي سبق ذكرها .

ولا بد أن يكون واضحاً للقارئ أن القول بالإمكان في قانون الصدفة الرياضي لا يعنى أنه لا بد من وقوع الحادث الذي نتظره ، بعد تمام العمليات السابق ذكرها ، في تلك المدة الحقيقية ؛ وإنما معناه أن حدوثه في أثناء تلك المدة محتمل ، لا بالضرورة ، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شيء ما بعد تسلسل العملية إلى الأبد !

• • •

هذا الجزء البروتيني ذو وجود « كيمائى » ، لا يتمتع بالحياة إلا عندما يصبح جزءاً من الخلية ، فهنا تبدأ الحياة ، وهذا الواقع يطرح أهم سؤال في بحثنا : من أين تأتي الحرارة ، عندما يندمج الجزء بالخلية ؟ ... ولا جواب عن هذا السؤال في أسفار المعارضين للملحنين .

إن من الواضح الجلي أن التفسير الذي يزعمه هؤلاء المعارضون ، مستترين وراء قانون الصدفة الرياضي ، لا ينطبق على الخلية نفسها ، وإنما على جزء صغير منها ؛ هو الجزء البروتيني وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش ، وفي جسد كل فرد منا ، ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا ! !

لقد أعد العالم الفرنسي « الكونت دى نواي » Le Cotme de Nouy بحثاً وافياً حول هذا الموضوع ، وخلاصة البحث : أن مقادير (الوقت ، و كمية المادة ، والفضاء اللانهاى) التي يتطلبها حدوث مثل هذا الإمكان هي أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن ، وأكثر من الوقت الذي استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض ، وهو يرى : أن حجم هذه المقادير الذي سنحتاج إليه في عملتنا لا يمكن تخيله أو تخطيطه في حدود العقل الذي يتمتع به الإنسان المعاصر ، فلأجل وقوع حادث - على وجه الصدفة - من النوع الذي ندعيه ، سوف نحتاج كونا يسير الضوء في دائرته $\frac{1}{8}$ سنة ضوئية (أى : ٨٢ صفراً إلى جانب عشرة سنين ضوئية ! !) وهذا الحجم أكبر بكثير جداً من حجم الضوء الموجود فعلاً في كونا الحالى ، فإن ضوء أبعد مجموعة للنجوم في الكون يصل إلينا في بضعة (ملايين) من السنين الضوئية فقط .. وبناءً على هذا ، فإن فكرة أينشتين عن اتساع هذا الكون لا تكني أبداً لهذه العملية المقترضة .

أما فيما يتعلق بهذه العملية المقترضة نفسها ، فالتنا سوف تحرك المادة المقترضة في الكون المقترض ، بسرعة خمسمائة (ترليون) حركة ، في الثانية الواحدة ، لمدة $\frac{1}{24}$ بليون سنة

(٢٤٣ صفراً أمام عشرة بلايين) ، حتى يتسنى لنا حدوث إمكان في إيجاد جزئى بروتينى بمنح الحياة .

ويقول « دى نواى » فى هذا الصدد :

« لا بد ألا ننسى أن الأرض لم توجد إلا منذ بليونين من السنين ، وأن الحياة - فى أى صورة من الصور - لم توجد إلا قبل بليون سنة ، عندما بردت الأرض (١) » .

هنا ، وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه ، وأثبتت الدراسة فى هذا الموضوع أن كوننا موجود منذ ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة .. وهى مدة قصيرة جداً ، ولا تكفى على أى حال من الأحوال لخلق إمكان، يوجد فيه الجزئى البروتينى ، بناء على قانون الصلدة الرياضى .
وأما ما يتعلق بأرضنا التى ظهرت عليها الحياة ، فقد عرفنا عمرها بصورة قاطعة ، فهذه الأرض كما يعتقد العلماء ، جزء من الشمس ، انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس وسيار عملاق آخر ، ومنذ ذلك الزمان أخذ هذا الجزء يدور فى الفضاء ، شعلة من نار رهيبة ، ولم يكن من الممكن ظهور الحياة على ظهره حيثئذ لشدة الحرارة ، وبعد مرور زمن طويل أخذت الأرض تبرد ، ثم تجمدت وتماسكت ، حتى ظهر إمكان بدء الحياة على سطحها .

ونستطيع معرفة عمر الكون بشتى الطرق ، وأحسن طريقة عرفناها لهذه الدراسة ، هى التى توصلنا إليها بعد كشف العناصر المشعة Radio-Active Elements ، فإن الذرات الكهربية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة بصفة دائمة ، وهذا « التحلل » Disintegration يقلل الذرات الكهربية فى هذه العناصر ، لتصبح تلقائياً عناصر غير مشعة عبر الزمان ، واليورانيوم أحد هذه العناصر المشعة ، وهو يتحول إلى معدن (الرصاص) بنسبة معينة نتيجة لتحلل الذرات الكهربية ، وهذه النسبة فى الانتشار لا تتغير تحت أى ظرف ، من أدنى أو أقصى درجات الحرارة أو الضغط ، ولهذا ستكون على صواب لو اعتبرنا أن سرعة تحول اليورانيوم إلى (الرصاص) محددة وثابتة لا تتغير .

إن قطع اليورانيوم توجد فى كثير من المضايق والجبال ، وما لاشك فيه أن هذا اليورانيوم هو جزء من ذلك الجبل ، منذ أن تجمد فى شكله الأخير ، عند تجميد الأرض .. وعلى جانب هذا اليورانيوم نجد قطعاً من الرصاص ، ولا نستطيع أن ندعى أن كل هذا الرصاص نتج عن تحلل اليورانيوم . والسبب فى هذا أن الرصاص الذى يتكون من تحلل اليورانيوم يكون أقل وزناً من الرصاص العادى ، وبناء على هذه القاعدة الثابتة يمكننا أن نجزم بما إذا

كانت أية قطعة من الرصاص من اليورانيوم ، أو أنها قطعة رصاص عادي ، ونحن هنا نستطيع أن نحسب المدة التي استغرقتها عملية تحلل اليورانيوم ببلقة ، فهو يوجد في الجبل من أول يوم تجمد فيه ، ونستطيع بذلك معرفة مدة تجمد الجبل نفسه !

لقد أثبت التجارب أنه قد مر ألف وأربعمائة مليون سنة على تجمد تلك الجبال ، التي تعتبر — علمياً — أقدم جبال الأرض ، وقد يظن البعض منا أن عمر الأرض يزيد ضعفاً أو ضعفين عن عمر هذه الجبال ، ولكن التجارب العلمية تنفي بشدة هذه الظنون الشاذة ، وينهب البروفيسور (سوليفان) إلى أن « المعدل المعقول » لعمر الأرض هو ألفا مليون سنة (١) !

• • •

ولتأمل الآن ، بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح ، نحتاج إلى بلايين البلايين من السنين ، حتى يتسنى مجرد إمكان الحدوث (جزئ بروتيني) فيها بالصدفة ! فكيف إذن جاءت في هذه المدة القصيرة في شكل مليون من أنواع الحيوانات ، وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ ألف نوع من النبات ؟ وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض ، في كل مكان ؟ ثم كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه « الإنسان » ؟ ولا أدري كيف نجروا على مثل هذه الاعتقادات ، في حين أننا نعرف جيداً أن نظرية النشوء والارتقاء تقوم على أساس « تغيرات صدفية محضة » ؟ ! وأما هذه التغيرات ، فقد حسبها الرياضي « باتو » Patau ، وانهى إلى أن اكتمال « تغير جديد » في جنس ما ، قد يستغرق مليوناً من الأجيال (٢) :

فلنتفكر في أمر (الكلب) الذي يزعمون أنه جد (الحصان) الأعلى ، كم من المدة ، على قول الرياضي باتو سوف يستغرقها الكلب ، حتى يصبح حصاناً ؟ !

وما أصح ما قاله عالم الأعضاء الأمريكي مارلين ب. كريدر :

« إن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق — عن طريق الصدفة — في نسبها الصحيحة ، هو ما يقرب من « لا شيء » (٣) .

• • •

لقد أطلت في هذا البحث حتى تتبين مدى سخافة فكرة الخلق بالصدفة ، وبطلانها ، ولست — في الحق — أشك في أنه يستحيل وجود الجزئ البروتيني والذرة عن الصدفة ، كما لا يمكن أن يكون عقلك هذا — الذي يتأمل في أسرار الكون وخفاياه — من ثمار الخلق

JWN Sullivan, Limitations of Science, p. 78. (١)

The Evidence of God, p. 117. (٢)

Ibid, p. 67. (٣)

الصدف ، مهما بالغنا في اقتراضاتنا عن المدة الطويلة التي استغرقتها عملية المادة في الكون .
ونظرية الخلق هذه ليست مستحيلة في ضوء قانون الصدفة الرياضي فحسب ، وإنما هي
لا تتمتع بأي وزن منطقي في نفس الوقت .

وأى كلام من هذا القبيل يخيف وملئ بالصلافة .. ومثاله كمن يزعم أن سقوط كوب
مملوء بالماء أو بالقهوة سوف يرسم خريطة العالم على الأرض ! ! لا مانع من أن أسأل هذا
الرجل : من أين جاء بهذا الفرش الأرضي ، والجاذبية ، والماء ، والكوب ، حتى يقع
هذا الاتفاق الغريب ؟

• • •

ولقد ولغ عالم البيولوجيا « هيكلم » Haeckel في زعمه حين قال :

« إيتوني بالهواء ، وبالماء وبالأجزاء الكيماوية ، وبالوقت ، وسأخلق الإنسان » .
ولكن « هيكلم » نسي أو تجاهل في هذه القالة : أنه بتقريره احتياجه إلى المادة والأحوال
المادية ، ينفي زعمه من تلقاء نفسه !

يقول الأستاذ « كريسي موريس »^(١) في هذا الصدد :

« إن هيكلم يتجاهل في دعواه : الجينات الوراثية ، ومسألة الحياة نفسها ، فإن أول
شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان ، هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها ، ثم سيخلق
(الجينات) ، أو حملة الاستعدادات الوراثية ، بعد ترتيب هذه الذرات ، حتى يعطيا
ثوب الحياة .. ولكن إمكان الخلق في هذه المحاولة بعد كل هذا ، لا يعدو واحداً على عدة
بلايين ، ولو افترضنا أن « هيكلم » نجح في محاولته ، فإنه لن يسميها « صدفة » ، بل سوف
يقررها ، ويعدها نتيجة لعبقريته »^(٢) .

• • •

ولنعظم هذا البحث بقول عالم الطبيعة الأمريكي « جورج إيرل ديفيس » :

(لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه ، فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق ،
وفي هذه الحال سنضطر أن نوّمن بأن الكون هو الإله .. وهكذا تنتهي إلى التسليم بوجود
(الإله) ، ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيباً : إلهاً غيبياً ومادياً في آن واحد ! ! إنني أفضل
أن أوّمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي ، وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل هو
حاكمه ومديره ومديره ، بدلاً من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات »^(٣) .

(١) رئيس أكاديمية العلوم الأمريكية بنيويورك (سابقاً) - المترجم .

(٢) Man Does not Stand Alone, p. 87.

(٣) The Evidence of God, p. 71.

الباب الخامس

دليل الآخرة

من أهم الحقائق التي يدعونها الدين إلى الإيمان بها : فكرة الآخرة . والمراد بها : أن هناك عالماً آخر غير عالمنا الحاضر ؛ وسوف نعيش في ذلك العالم خالدين ؛ وأن عالمنا هذا هو مكان للاختبار والابتلاء ، وجد فيه الإنسان لأجل معلوم ؛ وأن الله سوف ينهى هذا العالم حين يحين أجله ، لبناء العالم الآخر ، على طراز جديد ؛ وأن الناس سوف يعيشون مرة أخرى ؛ وسوف تعرض أعمالهم — خيراً أو شراً — على محكمة الله ، الذي يجزى كل إنسان بما عمل في الحياة الدنيا .

أهذه النظرية صحيحة ؟ أم هي باطلة ؟ وهل هناك إمكان لهذه الآخرة ؟ .. سوف نعرض هنا بعض جوانب القضية .

• • •

أولاً : إمكان الآخرة

ليكن الجانب الأول من هذا العرض ، هو البحث عن « إمكان » وقوع الآخرة . فهل هنالك وقائع وإشارات تصدق هذه الدعوى ؟

إن فكرة (الآخرة) تقتضى — أول ما تقتضى — ألا يكون الإنسان والكون ، في شكلهما الحالي أبديين ، وقد علمنا في الصفحات الماضية — بما لا يدع مجالاً للشك — أن أبدية الكون والإنسان مستحيلة ، وأيقنا ، يقيناً لا يتزعزع ، بأن الإنسان يموت ، وأن الكون سينتهى طبقاً لقانون « الطاقة المتاحة » . ولست أدري إذا ما كان هنا طريق للنجاة من هذه النهاية المروعة .

• • •

أ — مسألة الموت :

إن الذين لا يؤمنون بالعالم الثاني — الآخرة — يحاولون بدافع الغريزة أن يجعلوا من هذا الكون عالماً أبدياً لأفراحهم ، ولذلك بحثوا كثيراً عن أسباب « الموت » ، حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الأسباب ، من أجل تخليد الحياة ، ولكنهم أخفقوا إخفاقاً

فريعاً ، وكلما بحثوا في هذا الموضوع ، رجع إليهم بحمهم برسالة جديدة عن حتمية الموت ، وأنه لا مناص منه .

« لماذا الموت ؟ » .. هناك ما يقرب من مائتى إجابة عن هذا السؤال الخطير ، الذى كثيراً ما يطرح في المجالس العلمية ، منها :

... (فقيان الجسم لفاعليته) ، (انتهاء عملية الأجزاء التركيبية) ، (تجمد الأنسجة العصبية) ، (حلول المواد الزلالية القليلة الحركة ، محل الكثير الحركة منها) ، (ضعف الأنسجة الرابطة) ، (انتشار سموم « بكتريا » الأمعاء فى الجسم) .. وما إلى ذلك من الإجابات التى تتردد كثيراً حول ظاهرة الموت .

إن القول بفقدان الجسم لفاعليته جذاب للعقل .. فإن الآلات الحديدية والأحذية والأقمشة كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدود ، فأجسامنا أيضاً تبلى وتفقد فاعليتها كالحلود التى نلبسها فى موسم الشتاء . ولكن العلم الحديث لا يؤيدنا ، لأن المشاهدة العلنية للجسم الإنسانى تؤكد : أنه ليس كالحلود الحيوانية ، والآلات الحديدية ، وليس كالجبال .. وأن أقرب شئ يمكن تشبيهه به هو ذلك (النهر) الذى لا يزال يجرى منذ آلاف السنين على ظهر الأرض فن ذا الذى يستطيع القول بأن النهر الجارى يبلى ويهين ويعجز ؟ ! بناء على هذا الأساس يعتقد الدكتور « لنس بالنج^(١) » أن الإنسان أبدى ، إلى حد كبير ، نظرياً ؛ فإن خلايا جسمه آلات تقوم بإصلاح ما فيه من الأمراض ومعالجتها تلقائياً ! وبرغم ذلك فإن الإنسان يعجز ويموت ؛ ولا تزال علل هذه الظاهرة أسراراً تحير العلماء .

إن جسمنا هذا فى تجديد دائم ، وإن المواد الزلالية ، التى توجد فى خلايا دماننا ، تتلف كذلك ثم تتجدد ؛ ومثلها جميع خلايا الجسم ، تموت وتحل مكانها خلايا جديدة ؛ اللهم إلا الخلايا العصبية . وتفيد البحوث العلمية أن دم الإنسان يتجدد تجديداً كلياً خلال ما يقرب من أربع سنين ، كما تتغير جميع ذرات الجسم الإنسانى فى بضع سنين . ونخرج من هذا بأن الجسم الإنسانى ليس كهيكل ، وإنما هو كالنهر الجارى ؛ أى أنه « عمل مستمر » . ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هى ومن الجسم وفقدته لقوته ، فإن الأشياء التى فسدت أو تسمت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل ، ولا معنى لأن نجعلها سبب الموت ، فسبب الموت موجود فى مكان آخر ، وليس فى الأمعاء والأنسجة البدنية والقلب .

(١) وهو حائز على جائزة نوبل للعلوم .

ويدعى بعض العلماء أن الأنسجة العصبية هي سبب الموت ، لأنها تبقى في الجسم إلى آخر الحياة ولا تتجدد . ولو صح هذا التفسير القائل بأن النظام العصبي هو نقطة الضعف في الجسم الإنسانى ، فمن الممكن أن تزعم أن أى جسم خال من (النظام العصبي) لابد أن يمجا عمراً أطول من الأجسام ذات النظام العصبي ، ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا ، فإن هذا النظام لا يوجد مثلاً في الأشجار ، وبعضها يعيش لأطول مدة ، ولكن شجرة القمح التي لا يوجد بها هذا النظام العصبي لا تعيش أكثر من سنة ، وليس في كائن « الأميا » جهاز عصبي ، وهى مع ذلك لا تبقى على قيد الحياة أكثر من نصف ساعة ، ومقتضى هذا التفسير أيضاً أن تلك الحيوانات التي تعد من (نسل أعلى) ، والتي تتمتع بنظام عصبي أكمل وأجود ، لابد أن تعيش مدة أطول من تلك التي هى أحقر نسلاً وأضعف نظاماً . ولكن الحقائق لا تؤيدنا في هذا أيضاً ، فإن السلحفاة والتمساح وسمكة « باتيك » أطول عمراً من أى حيوان آخر ، وكلها من النوع الثانى — حقير النسل ، وضعيف النظام .

• • •

لقد أخفقت تماماً تلك البحوث التي استهدفت أن تجعل من الموت أمراً غير يقينى ، يمكن ألا يقع ، فبقى الاحتمال ، الذى أكدته الأزمان ، وهو أن يموت الإنسان في أى عمر ، وفي أى زمن ، ولم نستطع العثور على أى إمكان يمنع الموت ، رغم جميع الجهود .

لقد بحث الدكتور « الكيسيس كيرل » هذه المشكلة في مقال طويل بعنوان « الزمن الداخلى » ، فذكر الجهود المحققة التي بذلت في هذا الصدد ، ثم قال :

« إن الإنسان لن يسأم أبداً من البحث عن (الخلود) والسعى وراءه ، مع أنه لن يظفر به إلى الأبد ، فتركيبه الجسمانى يخضع لقوانين معينة ، إنه يستطيع أن يوقف الزمن (الفسيولوجى) لأعضاء الجسد ، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة ، ولكنه لن يتغلب على الموت أبداً^(١) .

(ب) ظواهر وأمثلة طبيعية :

في ضوء هذه الوقائع لم تعد مسألة نهاية العالم غير مفهومة ، فنحن على علم بالقيامات الصغرى التي تقع على سطح الأرض ، وهى التي ستحدث مرة أخرى على نطاق أوسع ، حتى تشمل الأرض المأهولة كلها .

إن الظاهرة الأولى التي تنذرنا بإمكان القيامة هى الزلازل . . . فبطن الأرض يحتوى على مادة شديدة الحرارة ، نشاهدها عندما ينفجر البركان ، وهذه المادة تؤثر على الأرض بشتى الطرق ، فبها ما تصدر عنه أصوات مروعة رهيبة ، وما نحس به من الهزات الأرضية ، التي

نسميها « الزلازل » إنها لا تزال كلمة رهيبة في حياة الإنسان المعاصر ، رغم تقدم العلوم والتكنولوجيا ، كما كانت رهيبة في حياة الإنسان القديم. هذه الزلازل هي حملة الطبيعة ضد الإنسان ، الذى لا يملك إزامها شيئاً ، فالحيار كله في يد الفريق الأول . إن الإنسان لا يملك شيئاً يقاوم به الزلازل ، فهى نذير يذكره دائماً بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة جهنمية ، لا يفصله عنها سوى قشرة جبلية رقيقة ، لا يزيد سمكها عن خمسين كيلو متراً ، وهذه القشرة ليست ، بالنسبة إلى الكرة الأرضية ، إلا بمثابة القشرة من ثمرة التفاح .

يقول عالم الجغرافيا (جورج جاموف) : « إن هناك جهنم طبيعية تلتب تحت بحارنا الزرقاء ، ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان ، وبكلمة أخرى : نحن واقفون على ظهر لغم « ديناميت » عظيم ، ومن الممكن أن ينفجر فى أى وقت ، ليدمر النظام الأرضى بأكمله (١) . »

وهذه الزلازل نحتاج جميع نواحي الأرض ، ولا تخلو الجرائد أى صباح من أخبارها ، ولكن يكثر وقوعها فى الأماكن التى توجد بها البراكين لاعتبارات جغرافية . وأقدم زلزال رهيب سجله التاريخ هو زلزال إقليم (شنشى) الصينى ، الذى وقع عام ١٥٥٦ م . ولقى أكثر من ٨,٠٠٠,٠٠٠ نسمة مصرعهم فى هذه الكارثة . وقد وقع زلزال فى « لشونة » عاصمة البرتغال عام ١٧٥٥م ، قُدم المدينة كلها ، وأباد ثلاثين ألفاً من الناس فى ست دقائق . وقد قيل : إن هذا الزلزال هز ربع أوروبا . ومن هذا النوع من الزلازل ما وقع فى ولاية (آسام) الهندية عام ١٨٩٧ م ، وهو يعد من الزلازل الخمسة الكبرى فى التاريخ ، فقد أحدث دماراً وخراباً عظيمين فى منطقة كبيرة من شمالى الهند ، كما غير اتجاه التبر الصلابة (برهام پوترا) ، وطفرت هضبة (إيفرست) بجبال الهملايا ، فارتفعت مائة قدم !

إن هذه الزلازل (قيامه) على نطاق غير واسع... فعندما تنفجر الأرض بصوتها الخفيف ، ودويها الرهيب ، وعندما تتساقط الجدران ، وسقف الأبنية المسلحة الفخمة ، حتى كأنها أوراق « الكوتشينة » ، وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها ، وأسفلها أعلاها ، وعندما تحل الخراب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى فى ثوان معدودة ، وعندما تسير طواوين النعوش ، وتراكم على ساحات المدن وطرقتها تراكم الأسماك على ساحل البحر — فتلكم هي قيامه الزلازل .

وفى تلك اللحظة يشعر الإنسان بعجزه أمام قوى الطبيعة ، فإن الزلازل لا تفرح أبواب المدن إلا بغتة ، دون سابق إذن أو إنذار ، والبلىة كل البلىة فى أن الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بمكان الزلازل ، ولا بموعده ووقوعها ، وهى فى نفسها تنبؤ عن قيامه كبرى ، سوف تضجونا غداً يوم على غرة منا ، إن هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على تدميرها ، كما يشاء .

وهذه هي حال الفضاء الخارجي ؛ فالكون فضاء لا حدود له ، تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها ، هي (السيارات والنجوم) ، ومثلها كمليين الخنازير^(١) التي تدور على سطح معين بأقصى سرعة يمكن تخيلها . . وهذا الدوران يمكن أن يتحول في أى يوم إلى صدام عظيم لا يمكن تصوره . وفي تلك اللحظة الرهيبة يكون ما في الكون أشبه بالآلاف من القاذفات الفاتنة المليئة بالقنابل النووية ، وهي تواصل رحلتها في الجو ، ثم تصطدم كلها مرة واحدة !! إن اصطدام الأجرام السماوية ليس بغريب مطلقاً ، بل الغريب حقاً هو عدم وقوع هذا الاصطدام ؛ فدراسة علم الفلك تؤكد إمكان اصطدام الأجرام السماوية ، والحديث عن وجود النظام الشمسي يدور حول وقوع صدام كبير بين بعض الأجرام السماوية قديماً ، فإذا استطعنا أن نتصور هذا التصادم على نطاق أوسع لاستطعنا أن نفهم جيداً ذلك (الإمكان) الذي نحن بصدد . . فهذا الواقع هو بعينه ما نسميه . . « القيامة » .

إن فكرة (الآخرة) التي تقرر أن نظام الكون الموجود حالياً سوف يلمر يوماً ، لا تعنى سوى أن واقع الكون ، الذي نشاهد في صورة صغيرة أولية ، سوف يتجلى يوماً في صورة نهائية كبرى . فالقيامة حقيقة معلومة في أعماقنا ، ونحن اليوم نعرفها في حد (الإمكان) ، ولسوف نلقاها غداً في صورة الواقع .

. . .

(ج) الحياة بعد الموت :

المسألة الثانية في هذا البحث هي مسألة الحياة بعد الموت .

« هل هناك حياة بعد الموت ؟؟ » هذا سؤال يتردد دائماً في العقل الحديث ، ثم يستطرد قائلاً : « لا . . . لا حياة بعد الموت ، لأن الحياة التي أعرفها لا توجد إلا في ظروف معينة من تركيب العناصر المادية . وهذا التركيب الكيماوي لا يوجد بعد الموت ، إذن : فلا حياة بعد الموت » .

ويعتقد ت. ر. مايلز « بأن : « البحث بعد الموت حقيقة تمثيلية ، وليس بحقيقة لفظية » . ثم يضيف قائلاً :

« إنها قضية قوية عندى أن الإنسان يبقى حياً بعد الموت ، وهذه القضية من الممكن — لفظياً — أن تكون حقيقة ، وهي قابلة لاختبار صحتها أو بطلانها بالتجربة ، ولكن المسألة الرئيسية في طريقنا هي أننا لا نملك وسيلة لمعرفة الإجابة القطعية عن هذا السؤال إلا بعد الموت ، ولذلك يمكننا أن نقيس » .

(١) جمع خذروف ، وهي لعبة من الخشب ، مخروطية الشكل ، يسميها الأطفال (النحلة) (المراجع)

وحيث إن قياسه لا يصدق هذه القضية ، فهي ليست بحقيقة لنظية . وقياسه كما يلي :

« بناء على علم الأعصاب (Neurology) لا يمكن معرفة العالم الخارجى ، والاتصال به ، إلا عندما يعمل الذهن الإنسانى فى حالته العادية ، وأما بعد الموت ، فهذا الإدراك مستحيل ، نظراً إلى بعثرة تركيب النظام الذهنى (١) » .

ولكن هناك قياسات أخرى أقوى من هذا القياس ، وهى تؤكد أن بعثرة الذرات المادية فى الجسم الإنسانى لا تقضى على الحياة ؛ فإن « الحياة » شئ آخر ، وهى مستقلة بذاتها ، باقية بعد فناء الذرات المادية وتغيرها .

ومن المعلوم أن الجسم الإنسانى يتألف من أجزاء (ذرات) ، تسمى « الخلايا » ، ومفردها : خلية (cell) . وهى ذرات صغيرة جداً ومعقدة ، يزيد عددها فى الجسم الإنسانى العادى على ٢٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ خلية . ويبدو أن هذه الخلايا مثل الطوب الصغير ، يبنى منه هيكل أجسامنا . ولكن الفرق بين طوب أجسامنا والطوب الطبي شاسع جداً . . فطوب الطين الذى يستخدم فى العمارات يبقى كما هو — نفس الطوب الذى صنع فى المصنع ، واستخدم فى البناء للمرة الأولى . . بينما يتغير طوب هياكلنا فى كل دقيقة ، بل فى كل ثانية ، إن خلايا أجسامنا تنقص بسرعة ، كآلات التى تتآكل باحتكاكها واستهلاكها ، ولكن هذا النقص يعوضه الغذاء ، فهو يهيئ للجسم قوالب الطوب التى يحتاج إليها بعد نقص خلاياه واستهلاكها (٢) . فالجسم الإنسانى يغير نفسه بنفسه بصفة مستمرة ، وهو كالنهر الجارى المملوء دائماً بالمياه ، لا يمكن أن نجد به نفس الماء الذى كان يجرى فيه منذ برهة ، لأنه لا يستقر ، فالنهر يغير نفسه بنفسه دائماً ، ومع ذلك فهو نفس النهر الذى وجد منذ زمن طويل ، ولكن الماء لا يبقى ، بل يتغير .

وجسمنا مثل النهر الجارى ، يخضع لعملية مستمرة ، حتى إنه يأتى وقت لا تبقى فيه أية خلية قديمة فى الجسم ، لأن الخلايا الجديدة أخذت مكانها . هذه العملية تتكرر فى الطفولة والشباب بسرعة ، ثم تستمر بهدوء ملحوظ فى الكهولة . ولو حسبنا معدل التجدد فى هذه العملية فسوف نخرج بأنها تحدث مرة كل عشر سنين . إن عملية فناء الجسم المادى الظاهرى تستمر ، ولكن الإنسان فى الداخل لا يتغير ، بل يبقى كما كان : علمه ، وعاداته ، وحافظته ، وأمانيه ، وأفكاره ، تبقى كلها كما كانت . إنه يشعر فى جميع مراحل حياته بأنه هو « الإنسان

(١) Religion and Scientific Outlook, p. 206.

(٢) لم يشبه الخلية بالطوب إلا لشبه ظاهرى ، والحقيقة أن « الخلية » عملية معقدة للغاية ، وهى فى ذاتها جسم كامل ، ويبحث عنها فى علم الخلايا Cytology.

السابق ، ، الذى وجد منذ عشرات السنين ، ولكنه لا يحس بأن شيئاً من أعضائه قد تغير ، ابتداء من أطراف رجليه حتى شعر رأسه .

ولو كان الإنسان يقنى بفناء الجسم ، لكان لازماً أن يتأثر على الأقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل ، ولكننا نعرف جيداً أن هذا لا يحدث ، وهذا الواقع يؤكد أن « الإنسان » أو « الحياة الإنسانية » شئ آخر غير الجسم ، وهى باقية رغم تغير الجسم وفنائه ، وهو كثير مستمر فيه سفر الخلايا بصفة دائمة ! وهذا هو الأمر الذى دعا عالماً أن يصف الإنسان : بشئ مستقل بذاته ، وباق غير متغير ، رغم التغيرات المتسلسلة . فهو يعتقد :

« أن الشخصية هى عدم التغير فى عالم التغيرات » — Personality is Changelessness in Change

ولو كان الموت فناء « للإنسان » ، فمن الممكن أن نقول — بعد كل مرحلة من مراحل حدوث هذا التغير الكيماوى الذى يجرى فى الجسم — إن الإنسان قد مات ، وإنه يعيش حياة أخرى جديدة بعد موته ! ومعناه أن الرجل الذى أراه فى الخمسين من عمره ، وهو يمشى فى الشارع على رجليه ، قد مات خمس مرات فى هذه الحياة القصيرة ، فإذا لم يمت هذا الإنسان بعد فناء أجزاء جسده المادية خمس مرات ، فكيف أستطيع أن أعتقد بأنه مات فى المرة السادسة على وجه اليقين ؟ ولا سبيل له الآن إلى الحياة ؟

إن بعض الناس لن يسلّموا بهذا الاستدلال ، وسيقولون : إن العقل . أو الوجود الداخلى الذى نسميه « إنساناً » ، ليس بشئ آخر ، ولم يوجد إلا نتيجة علاقة الجسم بالعالم الخارجى ، وإن الأفكار والأمانى لا توجد خلال العمل المادى إلا كالحرارة التى توجد نتيجة احتكاك قطعتين من حديد !

إن الفلسفة الحديثة تنكر (الروح) بشدة ، ويعتقد السير جيمز : أن « الشعور » لا يوجد كوحدة Entity ، وإنما هو وظيفة Function ، وتفاعل وتنسيق Process . . وقد أصر الكثيرون من فلاسفتنا المحدثين على أن (الشعور) فى ذاته ليس إلا التفاعل والرد العصبى لما يحدث من حركة ونشاط فى العالم الخارجى . وبناء على هذه النظرية لا مجال للتساؤل عن إمكان الحياة بعد الموت ، نظراً لتحلل النظام الجسمانى ، ولأن المركز العصبى فى الجسم لم يعد له وجود ، وهو الذى كان يتفاعل وينسق مع العالم الخارجى ، وهم يعتقدون بناءً على هذا أن نظرية الحياة بعد الموت أصبحت غير ذات أساس عقلى أو واقعى .

سوف أقول : إنه لو كانت هذه هى حقيقة الإنسان ، فلنجرّب أن نخلق إنساناً حياً ذا شعور ، ونحن — اليوم — نعرف بكل وضوح جميع العناصر التى يتألف منها جسم الإنسان ، وهذه العناصر توجد فى الأرض وفى الفضاء الخارجى ، بحيث يمكننا الحصول عليها ، وقد علمنا دقائق بناء النظام الجسمانى ، وعرفنا هيكله وأنسجته ، ولدينا قانون

مهرة يستطيعون أن يصنعوا أجساماً كجسم الإنسان ، بكل مواصفاتها ، فلنجرب — لو كان معارضوا الروح يصرون على حقيقة مبدئهم — ولنصنع مئات من أمثال هذه الأجسام ، ولنضعها في شتى الميادين ، في بقعة الأرض الفسيحة ، ثم لننظر ذلك الوقت الذى تمشى فيه هذه الأجسام وتتكلم وتأكل « بناء على تأثيرات العالم الخارجى » ! ؟

• • •

فهذا عن إمكان بقاء الحياة بعد الموت .

ثانياً : ضرورة الآخرة :

لنفكر الآن في الأسباب التى أقام الدين عليها دعوته إلى الإيمان بهذه النظرية : إن الحياة ، كما نتصور ، ليست « غدواً ورواحاً » ، كما يراها الفيلسوف الألماني (نيتشه) ، والتى تمتلئ وتخلو كالساعة ، ولا هدف لها أكثر من ذلك . . إن الحياة « الآخرة » ذات هدف عظيم : هو المجازاة على أعمال الدنيا ، خيراً كانت أو شراً . وهذا الجزء من نظرية الآخرة يكاد يتضح جلياً حين نعلم أن أعمال كل إنسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة ، وبغير توقف . وللإنسان ثلاثة أبعاد ، يعرف من خلالها ، هى : نيته ، وقوله ، وعمله . وهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها . فكل حرف يخرج عن لساننا ، وكل عمل يصدر عن عضو من أعضائنا — يسجل في الأثير (الفضاء) ، ويمكن عرضه في أى وقت من الأوقات بكل تفاصيله ، لنعرف — إذا شئنا — كل ما قاله ، أو فعله أى إنسان في هذه الحياة الدنيا ، من خير أو شر .

إن الأفكار تخطر على بالنا ، ومرعان ما ننساها ، ويبدو لنا أنها انتهت ، فلم يعد لها وجود ، ولكننا ، بعد فترة طويلة ، رايها روى خلال النوم ، أو نذهب نتكلم عنها في حالات المسترياً أو الجنون ، دون أن ندري شيئاً مما نقول . وهذه الوقائع تثبت قطعياً أن العقل أو الحافظة ليست تلك التى نشعر ونحس بها فحسب ، وإنما هناك أطراف أخرى من هذه الحافظة لا نشعر بها ، وهى ذات وجود مستقل ، وذات كيان قائم بنفسه .

ولقد أثبت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحفظ في شكلها الكامل ، ولسنا قادرين على محوها أبداً ، وأثبتت هذه التجارب أيضاً أن الشخصية الإنسانية لا تنحصر فيما نسميه « الشعور » ، بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الإنسانية تبقى وراء الشعور ، يسميها فرويد : « ما تحت الشعور » ، أو « اللاشعور » . وهذه الأجزاء تشكل جانباً كبيراً من من شخصيتنا ، بل هى الجانب الأكبر منها ، ومثلها كمثل جبل من الجليد في أعالي البحار ، أجزاءه الثمانية مستكنة تحت الماء ، على حين لا يطفو منه إلا الجزء التاسع . وتلك هى ما نسميه : (تحت الشعور) ، الذى يسجل ويحفظ كل ما تفكر فيه ، أو نتويبه .

يقول (فرويد) في محاضراته الحادية والثلاثين :

« إن قوانين المنطق ، بل أصول الأضداد أيضاً ، لا تحول دون عمل (اللاشعور) I D وإن الأماني المتناقضة موجودة فيه جنباً إلى جنب ، دون أن تقضى واحدة منها على الأخرى ، ولا شيء في اللاشعور يشبه أن يكون « رفضاً » لشيء من هذه المتناقضات . إننا نتحير لما نشاهده من أن اللاشعور يبطل رأى فلاسفتنا القائلين بأن جميع أفعالنا العقلية الشعورية تتم في زمن عدد ، ولكن لا شيء في اللاشعور يطابق الفكر الزمني ، ولا يوجد فيه أي رمز لمضي الوقت وسريانه ، وهي حقيقة عميقة . ولم يحلوا الفلاسفة أن يتأملوا حقيقة ، هي أن مضي الزمن لا يحدث أي تغيير في العمل الذهني ، إن الدوافع الحيمية (Conative impulses) التي لم تخرج قط عن اللاشعور ، وحتى التأملات الخيالية التي دفنت في اللاشعور — تكون أزلية في الحقيقة والواقع ، وتبقى محفوظة لعشرات السنين ، وكأنها لم تحدث إلا بالأمس^(١) .

وقد سلم علماء النفس بهذه النظرية بصفة عامة اليوم ، ومعناها أن كل ما يخطر على بال الإنسان من الخير والشر ، ينقش في صفحة اللاشعور ، فلا يزول إلى الأبد ، ولا يؤثر فيه تغير الزمان ، وتقلب الحداث ، ويحدث هذا على رغم الإرادة الإنسانية — طوعاً أو كرهاً .

ولم يستطع (فرويد) أن يدرك ما يمكن خلف هذه العملية من أسباب وعمل ، وأية خدمة تؤديها في مصنع الكون ؟ ولهذا نراه يدعو الفلاسفة إلى التفكير والتأمل . ولكننا لو قارنا هذا الواقع مقروناً إلى نظرية الآخرة لاستطعنا أن نصل إلى حقيقتها بسرعة ، إن هذا الواقع يؤكد بكل صراحة إمكان وجود سجل كامل لأعمال الإنسان في حياته ، عندما يبدأ حياته الأخرى ، فإن وجوده نفسه سوف يشهد على الأعمال والنيات التي عاشها :

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد^(٢) » .

• • •

(١) مسألة القول :

ولنتناول هنا مسألة « القول » : إن نظرية الآخرة تقول بأن الإنسان مسئول عن (أقواله) ، فجميع ما نلفظه من كلام ، حنناً كان أو قبيحاً ، حمداً أو سخطاً ، وسواء استعملنا اللسان في إبلاغ رسالة الحق ، أو استعملناه في إبلاغ رسالة الشيطان ، كل ذلك يحفظ في سجل كامل : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد^(٣) » . وهذا السجل سوف يعرض أمام محكمة الآخرة ليتم حساب الإنسان .

وإمكان وقوع هذا لا يناق العلم الحديث ، فنحن نعرف قطعاً أن أحداً عندما يحرك لسانه ليتكلم ، يحرك بالتالي موجات في الهواء ، كالتى توجد في الماء الساكن عندما نرمي فيه بقطعة من الحجر . . إنك لو وضعت جرساً كهربائياً في زجاج محكم الإغلاق من كل جانب ، ثم تضغط عليه ، فلن تسمع صوته ، رغم أن الجرس على مرأى منك . . لأنه لا يرسل الموجات إلى الخارج ، فهو مكتوم داخل الزجاج ، وهذه الموجات في الظروف العادية تصطدم ببطلة الأذن ، التى تقوم آلياً بإرسال هذه الموجات إلى العقل ، فما نفهمه من المعنى ، يسمى « سماعاً ! »

ولقد ثبت قطعياً أن هذه الموجات تبقى كما هى في « الأثير » ، إلى الأبد . بعد حدوثها للمرة الأولى ، ومن الممكن سماعها مرة أخرى . ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن إعادة هذه الأصوات ، أو بعبارة أصح : عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى ، مع أنها لا تزال تتحرك في الفضاء من زمن بعيد . ولم يبد العلماء اهتماماً خاصاً بهذا المجال حتى الآن ، بعد أن سلموا - نظرياً - بإمكان إيجاد آلة لالتقاط أصوات الزمن الغابر كما يلتقط المذياع الأصوات التى تذيعها محطات الإرسال . على أن المسألة الكبرى التى نواجهها في هذا الصدد ، ليست هى التقاط الأصوات القديمة ، وإنما التمييز بين الأصوات الكثيرة - الهائلة الكثرة - حتى تتمكن من سماع كل صوت على حدة . . وهذه هى مسألة الإذاعة التى وصلنا فيها إلى حل ؛ فإن آلاف المحطات الإذاعية في العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار ، وتمر موجات هذه البرامج في الفضاء ، بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميلا في الثانية . وكان من المعقول جداً عندما تفتح المذياع أن نسمع خليطاً هائلا من الأصوات لا نفهم منه شيئاً ، ولكن هذا لا يحدث ، لأن جميع محطات الإذاعة ترسل برامجها على موجات يختلف طولها ، فنها ما يرسل برامجه على موجات طويلة ، ومنها ما يرسل على موجات قصيرة ، ومتوسطة . وهكذا تمر هذه البرامج في الفضاء بموجات مختلفة طولاً ، فتستطيع أن تسمع أية موجة من المذياع ، بمجرد أن تدبر عقربه إلى المكان المطلوب .

إن علماءنا لم ينجحوا في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم ، ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته . وبناء على هذا يثبت إمكان سماع الأصوات القديمة في المستقبل ، فيما لو نجحنا في اختراع الآلة المطلوبة ، ومن ثم لا تبقى نظرية الآخرة بعيدة عن القياس ، وهى القائلة بأن كل ما ينطق به الإنسان يسجل ، وهو محاسب عليه يوم الحساب .

وربما كان قياساً مع الفارق الكبير أن نذكر هنا ما حدث عندما كان الدكتور مصدق رئيس وزراء إيران الأسبق مسجوناً أثناء محاكمته عام ١٩٥٣ ، فقد ركب في غرفته

آلة للتسجيل تتحرك آلياً ، وسجلت هذه الآلة كل ما نطق به الدكتور مصدق في غرفته ، وقد عرضوا أشرطة التسجيل أمام المحكمة ، شهادة عليه . . وهو نموذج لما يمكن أن يحدث في الآخرة .

إن مناقشتنا لجوانب المسألة لا تنفي وجود ملائكة لله - أو بلفظ آخر - وجود « مسجلين » غير مرئيين ، ينقشون على صفحة الفضاء كل ما نطق به من كلام ، وهو ما يصدق قول الله سبحانه : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

...

(ب) مسألة العمل :

ولننظر الآن في مسألة (العمل) : ومعلوماتنا في هذا الصدد تصدق بصورة مذهشة بإمكان حدوث الآخرة .

فالعالم الحديث يؤكد إيمانه بأن جميع أعمالنا - سواء أبأشرناها في الضوء ، أم في الظلام ، فرادى ، أم مع الناس - كل هذه الأعمال موجودة في الفضاء في حالة الصور ، ومن الممكن في أية لحظة تجميع هذه الصور ، حتى نعرف كل ما جاء به إنسان ما من أعمال الخير والشر طيلة حياته ؛ فقد أثبتت البحوث العلمية أن كل شيء - حدث في الظلام أو في النور ، جامداً كان أو متحركاً - تصدر عنه « حرارة » بصفة دائمة ، في كل مكان ، وفي كل حال ، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماماً ، كالأصوات التي تكون عكساً كاملاً للموجات التي يحركها اللسان . وقد تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج عن أى كائن ، وبالتالي تغطي هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية (Heat Waves) . ومثاله أنني أكتب الآن في مكتبتي ، وسوف أغادرها بعد ساعة ، ولكن الموجات الحرارية التي تخرجت من جسدي أثناء وجودي ههنا ، ستبقى دائماً ، ويمكن الحصول على تسجيل كامل لجلستي في المكتبة في أى وقت بواسطة تلك الآلة ، غير أن الآلات التي تم اختراعها إلى الآن ، لا تستطيع تصوير الموجات الحرارية إلا خلال ساعات قليلة من وقوع الحادث . أما الموجات القديمة ، فلا تستطيع هذه الآلة تصويرها ، لضعفها .

وتستعمل في هذه الآلة (أشعة إنفرارد) التي تصور في الظلام والضوء ، على حد سواء . ولقد بدأ العلماء في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية استغلال هذه الآلة في تحقيقاتهم ، وذات ليلة حلقت طائرة مجهولة في سماء نيويورك ، فصوروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذه الآلة ، وأدى ذلك إلى معرفة طراز الطائرة ونوعها (١) . . ولقد أطلق على هذه

الآلة اسم : « آلة تصوير الحرارة » Evaporagraph . ونشرت جريدة هندوستان تايمس الهندية تعليقاً بمناسبة هذا الاختراع ، تقول : « إننا بفضل هذه الآلة سوف نستطيع أن نشاهد تاريخنا على شاشة السينما في المستقبل ، ومن الممكن أن تنتهى هذه العملية إلى كشف عجيبة . تغير أفكارنا عن التاريخ من جذورها . . . »

وإننى أعتبر هذا الاختراع عجيبياً كل العجب ، فعنا أن حياة كل منا تصور على مستوى عالمي : كما تسجل آلات التصوير الأوتوماتيكية السريعة جميع تحركات الممثلين السينمائيين . إنك لو صنعت فقيراً ، أو حملت عبثاً عن أحد الغرياء ، أو شغل بالك أمر من الخير أو الشر . . فإن جميع تحركاتك تسجل على شاشة الكون ، حيث لا يسعك منعها أو الهرب منها ، سواء أكنت في الظلام أم في النور . فحياتك كالفيلم التي تصور في الاستديو ، ثم تشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزمن ، وعلى بعد كبير من مكان التسجيل ، ولكنك تشعر كأنك موجود في مكان الأحداث ، وهكذا شأن كل ما يقترفه الإنسان ، وشأن الأحداث التي يعيشها ، فإن فيلماً كاملاً لتلك الأحداث سوف يوضع بين يدي كل فرد يوم القيامة ، حتى يصرخ الناس قائلين :

« يا ويلتنا !! ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (١) ؟ »

. . .

والتفاصيل العلمية التي أوردنا بعضها في الصفحات الماضية يتضح منها جلياً أن أجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لكل أعمال الإنسان ؛ فكل ما يدور في أذهاننا يحفظ إلى الأبد ، وكل ما ننطق به من الكلمات يسجل بدقة فائقة ، فنحن نعيش أمام كاميرات تشتغل دائماً ، ولا تفرق بين الليل والنهار . . وجميع أعمالنا ، القلبية منها واللسانية والعضوية ، كلها تسجل بدقة تامة . . ولا يسعنا - ونحن نشرح هذه الظاهرة العلمية الخطيرة - إلا أن نسلم بأن قضية كل منا سوف تقدم أمام محكمة إلهية . . وبأن هذه المحكمة هي التي قامت بإعداد هذا النظام العظيم لتحضير الشهادات التي لا يمكن تزويرها .

ولا يستطيع أى عالم أن يدلى بتفسير أدق عن هذه الظاهرة سوى ما قلناه . . فلو لم نستطع هذه الوقائع الصريحة الساخنة أن تجعل البشر يحسون بمسئوليتهم إزاء المحكمة الجبارة التي ستقام يوم الحساب ؛ فلا أدري ما الواقع الذي قد يجعل هؤلاء يفتحون أعينهم ١٩

. . .

ثالثاً : الحاجة إلى الآخرة :

لقد بحثنا في الصفحات الماضية فيما إذا كان حدوث شيء من مثل الآخرة ، التي يدعيها الدين ، « ممكناً » ؟ ولقد ثبت ما علمنا أن الآخرة ممكنة الحدوث . . . والمسألة التي نقف أمامها الآن هي : البحث فيما إذا كان هذا العالم في حاجة - فعلاً - إلى شيء من قبيل الآخرة ؟ وهل يقتضي الكون - في هيكله الحالي - وقوعها ؟؟

• • •

(١) الجانب النفسي :

لنتناول أولاً (الجانب النفسي) من المسألة .

يقول البروفيسور (كنجهام) في كتابه : Plato's Apology : « إن عقيدة الحياة بعد الموت « لا أدريّة مفرحة Cheerful Agnosticism » ، ومن الممكن اعتبار هذا القول خلاصة أفكار فلاسفتنا الملحدّين المعاصرين ؛ فهم يرون أن عقيدة الآخرة اخترعتها عقلية الإنسان الباحثة عن عالم حر ، مستقل عن حدود هذا العالم ، وعن مشكلاته . ملئ بالأفراح . وإنما يدفعه إلى الإيمان بهذه العقيدة أمله في الحصول على حياته المفضلة ، التي لا جهد فيها ولا كدح . . . وأن هذه العقيدة تنتهي بالإنسان إلى عالم مثالي وخيالي ، حيث يخلم بأنه سوف يظفر به بعد الموت . ولكن الحقيقة - كما يراها الفلاسفة - أن لا وجود لشيء كهذا العالم الثاني في الأمر الواقع !

وفي رأيي : أن هذا المطلب الإنساني - في حد ذاته - « دليل نفسي » قوى على وجود عالم آخر ، كالظلم ، فهو يدل على الماء ، وعلى علاقة خاصة باطمة بين الماء وبين الإنسان . وهكذا فإن تطلع الإنسان - نفسياً - إلى عالم آخر دليل في ذاته على أن شيئاً مثل ذلك موجود في الحقيقة ، أو أنه - على الأقل - خليق أن يوجد . وهذا المطلب النفسي يؤكد علاقة مصيرنا بهذه الحقيقة ، ويدلنا التاريخ على وجود هذه الغريزة الإنسانية منذ أقدم العصور على مستوى إنساني ، وهو أمر لا أستطيع فهمه : كيف يمكن أن يؤثر أمر باطل على البشر في هذا الشكل الأبدي ، وعلى مستوى إنساني ؟ وهذا الواقع نفسه يدلنا على قرينة قوية بإمكان وجود العالم الآخر . وإنكار هذه الحاجة النفسية ، يدنو أدلة ، يعتبر جهلاً وتمصّباً .

إن الذين ينكرون حاجة نفسية عظيمة مثل هذه زاعمين أنها باطلة ، هم من أعجز الناس حقاً عن تفهّم أي « واقع » على سطح الأرض بعد هذا . . . ولو كانوا يزعمون الفهم في الواقع فلا أدري بأي دليل ؟ . . . وعن أي برهان ؟

ولو كانت هذه الأفكار نتاج المجتمع ، كما يزعمون ، فكيف لا تزال تطابق التفكير الإنساني ، بهذه الصورة المدهشة ، من أقدم العصور ؟ هل تجدون مثلاً لأية أفكار إنسانية

أخرى ظلت باقية إلى العصر الحاضر ، وبهذا التسلسل الرائع منذ ألوف السنين ؟ هل يستطيع أذكى أذكائكم أن يتخترع فكراً واحداً ، ثم يدخله إلى النفس الإنسانية ، وكأنه موجود بها منذ الأزل ؟

إن لكل إنسان أمانى كثيرة لا تكلل بالنجاح في حياته ، إنه يمتنى حياة أبدية ، ولكن الحياة التي أعطيت له تخضع لقانون الموت . والعجيب أن الإنسان عندما يكون على أبواب حياة ناجحة عظيمة ، بعدما كسب من العلم والمعرفة ، والخبرة والتجارب الثمينة ، حينئذ تداومه دعوة الموت . . ولقد أكدت إحصائية عن تجار لندن الناجحين أن أمرهم يستقر فيما بين ٤٥ - ٦٥ سنة من أعمارهم ، ثم يبدأون يربحون ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف جنيه في السنة ، وفي ذلك الوقت الثمين - فجأة - تتوقف حركات قلوبهم ذات مساء ، أو ذات صباح ، فيرحلون إلى عالم مجهول ، تاركين تجارتهم الممتدة إلى ما وراء البحار . .

يقول الأستاذ وينوود ريد (Winwood Reade) :

« إنه لأمر هام يدعونا إلى التفكير فيما إذا كانت لنا علاقة شخصية مع الإله ؟ هل هناك عالم غير عالمنا هذا ؟ وهل سوف نلقى جزاء أعمالنا في ذلك العالم ؟ إن هذا السؤال ليس بعقيدة فلسفية عظيمة فحسب ، وإنما هو في نفس الوقت أعظم أسئلتنا العملية أيضاً . إنه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة ؛ فحياتنا الرامنة قصيرة جداً ، أفراحها عادية مرقوتة ، إذ أننا عندما نظفر بما نحلم به ، يفاجئنا الموت ، ولو استطعنا الاهتمام إلى طريق خاصة تجعل أفراحنا دائمة وأبدية ، فلن يرفض العمل به أحد غير البله والمجانين منا^(١) . »

ولكن الكاتب نفسه يستطرد فينكر ذلك المطلب النفسى الكبير من أجل أمور لا وزن لها ولا قيمة ؛ فهو يقول : « إن هذه العقيدة كانت معقولة جداً حين كنا لا نبحت جوانبها بعمق وجد . . ولكن بعد هذا البحث اتضح لنا أنها أمر سخيف ، ويمكن إثبات سخافتها بسهولة ، فالفلاح المحروم العقل الجاهل لا يتحمل مسئولية خطاياها ، سيدخل الجنة ، ولكن العابرة مثل (جوتة) ، و (روسو) ، سوف يمترقون في نار الجحيم ؛ فلأن يخلق الإنسان محروم العقل خير له من أن يكون من أمثال جوتة وروسو !! إن هذا الكلام تافه وسخيف^(٢) . »

وما أشبه هذا الموقف بالذى اتخذته (اللورد كلوین) تجاه التحقيق العلمى الذى قام به (ماكسويل) ؛ فقد زعم اللورد أنه لا يستطيع أن يفهم نظرية ما إلا بعد وضع نموذجها الميكانيكى ، وبناء على هذا الفرض أنكر نظرية ماكسويل عن البرق والمغناطيس ، لأنها

لم نحل في أحد نماذج الورد المادية ! إن مثل هذه المواقف والادعاءات الجغرافية أصبحت غريبة في عالم الطبيعة الحديثة . ويتساءل العالم الكبير (سوليفان) :

« كيف يروق لأحد أن يدعى أن الطبيعة لا بد أن تكون كما يضعها مهنتس القرن التاسع عشر في معمله (١) ؟ »

وسوف أوجه هذا الكلام إلى الأستاذ (وبنود) :

« كيف يجوز لفيلسوف القرن العشرين أن يرى : أن يكون الكون الخارجي ، في حقيقة الأمر مطابقاً لما يزعمه هو ؟ »

إن كاتبنا لم يستطع أن يفهم أمراً في غاية البساطة : هو أن الحقيقة لا تحتاج إلى الواقع الخارجي ، وإنما الواقع الخارجي هو الذي يكون في حاجة إلى « الحقيقة » . . فالحقيقة أن لهذا الكون إلهاً ، وسوف تمثل أمامه يوم الحساب . فلا بد لكل منا - سواء أكان رسو أم كان مواطناً عادياً - أن يكون وفياً وطبيعياً لإلهه ، فنجائنا لن يحققها جحودنا ، بل هي تكمن في إيماننا وطاعتنا . . والغريب أن كاتبنا لم يرق له أن يطالب (جوته) و (رسو) أن يسلكا مسلك الحق ، وإنما طالب الحق بالتغير ! ولما لم يطع الحق راح ينكره !! وهذا أشبه بمن ينكر قانون حفظ الأسرار العسكرية ، الذي يكرم أحياناً جندياً بسيطاً ، ويعدم عالماً ممتازاً ، مثل « روزنبرج وعقيلته الحسناء » بالكرسي الكهربائي !!

• • •

إنه لا يوجد على سطح الأرض من يفكر في (الغد) غير الإنسان . فهو يتميز عن سائر الحيوانات بدوام تفكيره في المستقبل ، وجهاده المتواصل ، وسعيه الدائب في سبيل تحسين أحواله . ولا شك أننا قد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها ، كالثعلب الذي يدخر غذاءه للشتاء القادم ، والطيور التي تصنع أعشاشاً يسكنها أولادها بعد قسمهم ، ولكن هذا العمل لدى الحيوانات يعتبر « غريزياً » ، فهو صادر عن غير شعور بالمسئولية ، إنها لا تقوم بهذه الأعمال لقلقها من مشكلات الغد ، وإنما تأتي بها طبيعياً ، ومن ثم تنفع بها في المستقبل فالتفكير في المستقبل يتطلب فكراً ملوكاً واعياً ، وهو من ميزات الإنسان فحسب ، ولا يتمتع به شيء من الحيوانات غيره .

هذا الفرق الكبير بين الإنسان والحيوان يؤكد أنه لا بد أن تكون للإنسان مواقع أكثر بالنسبة إلى أي نوع آخر للانتفاع بها ، فحياة الحيوانات هي ما نسمى « حياة اليوم » ، ففكرة الغد لا توجد عندها ، ولكن مطالعة حياة الإنسان تقتضي « غداً » ، ولو أنكرنا هذه الحاجة لخالفنا الطبيعة .

ويعتقد بعض العلماء والفلاسفة أن خيبة آمال الإنسان في حياته الراهنة هي التي تجعله يفكر في حياة أفضل ، وهم يرون أن هذا الفكر سوف يتلاشى لو أتيح للإنسان مجتمع رفاهي كامل . فقد اعتنق عدد كبير من أسرى الروم المسيحية لأنها وعدتهم بأفراح السماء . . . ولذا تتوقع هذه الطائفة من العلماء والفلاسفة أن سعادة الإنسان ورفاهية المجتمع سوف تزداد أكثر فأكثر ، إلى أن تقضى نهائياً على نظرية « العالم الآخر » .

ولكن تاريخ الأربعمئة سنة الأخيرة — التي ازدهرت فيها العلوم والتكنولوجيا — يكذب هذا التوقع ؛ فإن أول ما هيا التقدم التكنولوجي للإنسان أنه أتاح له وسائل عديدة ، احتكرتها أيد محدودة ، قامت بدورها باستغلالها ، وقضت على صغار العمال والحرفيين ، وحولت تيار الثروات إلى كنوزها ، وخزائنها ، وجعلت من الشعب عمالاً فقراء معوزين ، ويمكن مطالعة هذه المناظر القبيحة التي نتجت نتيجة للتقدم التكنولوجي ، في كتاب كارل ماركس « رأس المال » ، الذي يعتبر ضريحاً للطبقة العاملة التي عاشت القرنين الثامن والتاسع بعد الألف ، ثم بدأت ردود فعل هذا الضجيج ، وتبعه كفاح طويل ، قامت به المنظمات العاملة ، حتى تحسنت الأحوال إلى حد ما . ولكنني أرى أن التغير الذي طرأ على أحوال العمال ليس إلا ظاهرياً ؛ فعامل اليوم يتقاضى أكثر مما كان يتقاضاه بالأمس ، أما السعادة الحقة ، فإنه أكثر افتقاراً لها من سلفه . . . ذلك أن النظام التكنولوجي لم يعط الإنسان أكثر من مظاهر مادية ، فهو لا يملك القيم الروحية ، حتى يمنح لأتباعه السعادة والطمأنينة القلبية ، وما أصدق ما قاله الشاعر (Blake) عن إنسان الحضارة الحديثة :

A mark in every face I meet
Marks of weakness, marks of woe.

« كل وجه ترى عليه سمات فيه ضعف ، وفيه ذل وحقد ،

لقد اعترف « برتراند راسل » قائلاً : « إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح ، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة ، ولكنهم محرومون من نعمتها في عالمنا الحديث ^(١) . » واليوم ، كما يقول راسل ، أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة : السعادة ^(٢) ! !

إنك عندما تزور نيويورك ، تشاهد أبنيتها الضخمة مثل عمارة « إمباير ستيت » ، التي تتكون من ١٠٢ طابقاً ، وهي عالية جداً ، حتى إن درجة الحرارة في أدوارها العليا تكون منخفضة جداً بالنسبة إلى أدوارها السفلى ، وعندما تخرج منها وترأها من الشارع

فلن تصدق أنك كنت فوق هذا العملاق الذي يرتفع ١٢٥٠ قدماً فوق سطح الأرض ،
ولا يستغرق المصعد الكهربائي للصعود من أسفلها إلى أعلاها أكثر من ثلاث دقائق ١١
وبعد مشاهدة هذه العمارات والمظاهر تذهب إلى التوادي وتشاهد الرجال والنساء يرقصون
ملتصقين . . وتفكر : « ما أسعد هؤلاء الناس ! » ، ثم تأوى إلى مقعد تشاهد الرقص المثير ،
ولن تقضى وقتاً طويلاً حتى تأتيك حسنة من هؤلاء القوم ، وتجلس على المقعد المواجه لمقعدك ،
إنها تبدو كثيفة ، فتسألك دون مقدمات :

— أيها السائح ، هل أنا قبيحة المنظر ؟

— إننى لا أرى ذلك . .

— ولكننى أفهم أننى فقدت « روعة الجمال » ، أليس كذلك ؟

— لا . . فى رأى أنك تملكين الكثير من الفتنة وروعة الجمال .

— شكراً أيها السائح الكريم ! ولكن الشبان لا يبالون بى ، ولا يواعدونى . لقد أصبحت
الحياة بالنسبة إلى مملة موحشة . .

إن ما رأيته فى نيويورك لم يكن إلا منظرًا مقتضباً من مسرحية الإنسان فى العصر الحديث .
لقد أقامت العلوم والتكنولوجيا أبنية شائعة ، ولكنها زعت السعادة من قلوب ساكنيها ،
بها أقامت مصانع تتحرك بالآلات هائلة ، ولكنها حرمت عمالها الراحة التى يطمحون إليها ،
وهذه هى نتيجة التاريخ العلمى والتكنولوجى . فكيف بنا إذن نطمح ونتوقع عالماً يسوده
السلام والسعادة ، من « صنع التكنولوجيا ١٩ »

. . .

(ب) الضرورة الأخلاقية :

وعندما ندرس المسألة من الوجهة الأخلاقية نرى أنه لابد من « الآخرة » ، فإن التاريخ
الإنسانى لن يكون له أى معنى بدونها .

إن فطرة الإنسان تميز بين الخير والشر ، والصالح والطالح ، والظلم والعدل ، وهذه
الفطرة هى التى تميز الإنسان عما سواه ، ولكن ها هو ذا الإنسان الذى كرمه ربه ، يهمل
فطرة الله أكثر ممن لا يتمتعون بها ، إنه يظلم بنى جنسه ، يقتلهم ويشردهم ، ويوجه إليهم
كل شر مستطاع . .

إن الحيوانات لا تظلم فصائلها ، فالأسد ليس فى الأسود أسداً ، والنمر ليس فى النمرين
نمراً . . ولكن الإنسان أصبح يفرس إخواته ، حتى الأقربين منهم ، مما لا يوجد له مثل
فى قانون الغابة . .

ولا مبرية أننا وجدنا أضواء الحق والعدالة في التاريخ الإنساني ، وأنا نقدرها حق قدرها ،
ولكن الجزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم والفساد والعدوان . إن المؤرخ ليصاب
بأس بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض تماماً مع الضمير الإنساني .

ولنقتبس هنا بعض الأقوال :

فولتير : « إن التاريخ الإنساني ليس إلا صورة للجرائم والمصائب ^(١) » .

هربرت سبنسر : « إن التاريخ تهريج ، وكلام فارغ لا جدوى منه » .

نابليون : « إن التاريخ بأكله عنوان لقصة لا تعنى شيئاً » .

إدوارد جين : « إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سبباً للجرائم ، والحماقة ، وخيبة
الأمل » .

هيكل : « إن الدرس الوحيد الذى تعلمته الحكومة والشعب من معالمة التاريخ هو أنهم
لم يتعلموا من التاريخ شيئاً ^(٢) » .

هل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهى إلى كارثة أليمة ؟ إن فطرتنا تقول : لا . فدواعى
العدالة والإنصاف فى الضمير الإنسانى تقتضى عدم حدوث هذا الإمكان ، لابد من يوم
يميز بين الحق والباطل ، و لابد للظالم والمظلوم أن يحكما ثمارهما ، وهذا مطلب لا يمكن إقصاؤه
من مقومات التاريخ ، كما لا يمكن إبعاده عن فطرة الإنسان .

إن هذا الفراغ الشاسع الذى يفصل ما بين الواقع والفطرة يقتضى ما يشغله ؛ فإن
المسافة الهائلة بين (ما يحدث) و (ما ينبغي أن يحدث) تدل على أن مسرحاً آخر قد أعد
للحياة ، وأنه لابد من ظهوره . فهذا الفراغ العظيم يدعو إلى تكميل الحياة . وإنى لأتخير عندما
يوثمن الناس بفلسفة الروائى الإنجليزى « هاردى » القائلة : بأن العالم مكان للظلم والوحشية ،
ولكننى أصاب بحيرة أكبر عندما أرى أن هذه الحالة البالغة السوء لا تقودهم إلى الإيمان بأن :
ما ليس بموجود اليوم ويقضيه العقل ، لابد من حدوثه غداً .

« إذا لم تكن هنالك قيامة فن ذا الذى سوف يكسر روؤس هؤلاء الطواغيت الطغاة ؟ »
- كلمة كثيرة ما تخرج من شفتى مصحوبة بأعين مرير ، عندما أطالع الجرائد ، فجزائنا
صورة مصفرة لما يحدث بكل يوم على الأرض ، والصورة التى تحملها الجرائد إلينا رهيبة . .
إنها تتكلم عن الاغتيالات ، والحطف ، والنهب ، والاتهامات الكاذبة ، والتجارة السياسية ،
والدعايات الباطلة التى تتلعب بالألفاظ . إن هذه الجرائد تخبرنا كيف نكل الحاكم الثلاثى
بمعارضة الضعفاء ، باسم مصالح الأمة ، ودواعى الأمن القومى ؟! وكيف سيطر ذلك الشعب

Story of Philosophy, Will Durant, p. 220. (١).

Western Civilisation, E. McNall Burns, p. 871. (٢)

على أرض لم يملكها طيلة التاريخ بقوة السلاح !! وليست هذه الجرائد إلا حكايات لمأساة الضعيف والقوى ، والسلطان والرعاع !!

إن الأحداث التي وقعت في بلادى أخيراً ، وبخاصة تلك الاغتيالات الجماعية ، وعمليات النهب والحرق المخططة التي جرت في مناطق جبل بور ، وجمشيد بور ، وراؤزكيلا ، وكلكتا - يبدو بعدها أن المرء لا ينبغي أن يستبعد وقوع أية جريمة على هذه الأرض ، سواء أمكنه تصورها أم لا !! فإن قوماً يرفعون شعارات (العلمانية) و (الجمهورية) و (اللاعنفا) يستطيعون - في نفس الوقت - أن يرتكبوا أبشع أنواع الطائفية ، وأشنع ألوان الدكتاتورية ، وأسوأ صور العنف ، كما لم يشهده التاريخ . وكل هذه الجرائم البشعة - التي تأمى لحدوثها السباع المفترسة ، والذئاب الكاسرة ، والخنازير الوحشية - قد جرت في عهد زعيم أطلق عليه لقب : « معلم الإنسانية ورسول السلام »^(١) !! وليت المأساة توقفت عند هذا الحد ، فلقد ارتكبت في هذا العصر الذي ازدهر فيه النشر والإذاعة ، جرائم شنيعة ، وأحداث مروعة ، من نهب ، وقتل ، وإحراق أقوام بأسرهم ، ودامت المأساة أشهراً طويلة ، بل سنين عديدة ، في بلاد شاسعة جداً من الهند ، والصحافة العالمية لا تنشر عنها شيئاً ما ، وقد امحت تماماً هذه الجرائم من صفحات التاريخ ، كأن لم تكن مأساة الأمس القريب !!

هل خلق هذا العالم ليكون مسرحاً للماسى ، والشيطنة ، والهمجية والقرصنة ، ثم لا يلقى الظالم والمظلوم جزاءهما ؟ إن عالماً - من هذا القليل - إعلان في حد ذاته عن أنه ناقص ، وهذا النقص في ذاته يقتضى ما يكمله .

(ج) مشكلة السلوك :

ولندرس هذا من ناحية أخرى . لقد شغلت مسألة هامة الذهن الإنسانى من أقدم العصور ، وهى كيفية إجبار الناس على سلوك طريق الحق ، فإذا افترضنا أن بعض أفراد المجتمع قد منحوا سلطة سياسية من أجل تحقيق هذا الهدف ، فمن الممكن أن يمتنع الرعايا خوفاً من العذاب . ولكن ما الذى يدفع أولئك الذين يتمتعون بالسلطة السياسية إلى تحقيق العدل والإنصاف ؟ ولو أننا استجدنا القانون ، واستصرخنا المحكمة ، فكيف إذن يمكن أن نبلغ بهما تلك الأماكن والجوانب التي لا تخضع للشرطة والقانون ؟ ولو أننا خضنا معارك الدعاية ، وناشدنا أهل الشر أن يكفوا عن الجرائم ، فمن ذا الذى ينصت إلينا ؟ ويتخلى عن فائدة ينجيها دون كلفة ؟ إن رهبة عقاب الدنيا لن تنجح في قمع انحرافات الإنسان ، فنحن جميعاً

(١) الإشارة إلى جواهر لال نهرو ، وقد جرت الأحداث البشعة التي أشار إليها المؤلف خلال الأوامر ١٩٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ولم ينشر عنها شيء بفعل التأمر العالمى (المراجع) .

نعرف أن الكذب ، والرشوة ، والمحسوبية ، واستغلال النفوذ ، وما إلى ذلك من انوسائل المعروفة ، سوف نحول دون أى إمكان للعقاب .

إنه لن يفلح شئ في قمع الجرائم غير الدافع المتبعث من داخل قلب الإنسان - الضمير . الضمير الذى لو دخل إرادة الإنسان فلن يسقطه عامل خارجى أبداً كان ، وهذه الميزة غير متاحة إلا في عقيدة الآخرة . . فإن دافعاً قوياً يمكن في هذه العقيدة ، ويجعل من اتقاء الجرائم مصلحة ذاتية لكل إنسان . إنها مصلحة بهم بها الجميع . فالكل رئيساً كان أم مرءوساً ، في الظلام كان أو في الضوء - ينطلق يفكر في أنه لابد من يوم للقاء الله ، والكل يشعر بأن الله يراه ، وسوف يحاسبه حساباً عسيراً . وهذه الأهمية الكبرى في عقيدة الآخرة هي التي جعلت القاضي ماثيو هالوس (Mathew Halsos) ، وهو من كبار قضاة القرن السابع عشر يقول :

« إن القول بأن الدين خدعة ، هو بمثابة إبطال لجميع المسؤوليات التي تقع على عاتقنا لاستقرار النظام الاجتماعي (١) » .

ألا ما أهم هذا الجانب من نظرية الآخرة !!

وإننا لنستطيع أن ندرك أبعاد هذه النظرية لو تأملنا أن كثيراً من علمائنا الملحدون ، الذين لا يعتقدون أن الآخرة أمر واقع ، قد اضطروا - بناء على تجارب التاريخ - إلى القول بأنه لا يوجد شئ غير « الآخرة » لمراقبة الإنسان ، وإخضاعه لسلوك طريق الحق والعدل في جميع الظروف .

لقد أنكر الفيلسوف الألماني « كانت » فكرة (الإله) ، قائلاً : (إنه لا يجد أدلة شافية على وجوده) . فهو ينكر « الصواب النظري » في الدين ، ولكنه ، في نفس الوقت ، يضطر إلى أن يسلم « بالصواب العملي » في الدين ، من الناحية الأخلاقية (٢) .

و « فولتير » أيضاً لا يؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة ، ولكنه يرى :

« أن أهمية الإله والحياة الآخرة عظيمة جداً ، حيث إنها أساسان لإقامة « المبادئ الأخلاقية » . . . وهو (فولتير) يرى أن هذه العقيدة وحدها كفيلة بإيجاد إطار أخلاقي أفضل للمجتمع . ولو أن هذه العقيدة زالت فلن نجد دافعاً للعمل الطيب ، وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعي (٣) » .

Religion without Revelation, p. 115 (١)

Story of Philosophy, N.Y., 1954, p. 279 (٢)

Windelband, History of Philosophy, p. 496 (٣)

إن الذين يرون أن « الآخرة » فكرة خيالية ينبغي أن يفكروا : كيف أصبحت فكرة خيالية ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى واقع حياتنا ؟
لماذا لا نستطيع بدونها إقامة نظام اجتماعي سليم ؟
ولماذا تنهار قيم حياتنا عندما نتخلى عن هذه الفكرة ؟
هل يمكن أن تحتل فكرة خيالية هذه الأهمية الكبرى في الحياة ؟
هل وجدتم مثالا ما في الكون لفكرة خيالية غير كائنة ، أصبحت تتمتع بهذه الأهمية الحقيقية في الحياة ، رغم أنها لا علاقة لها بواقعنا ؟

إن حاجتنا الملحة إلى الآخرة لتنظيم الحياة ، وإقامتها على أسس عادلة حقيقية ، هي — في حد ذاتها — تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون ، ولست أبالغ إذا قلت : إن هذا الجانب المنطقي من الاستدلال يثبت حقيقة هذه النظرية ، على مستوى التحقيق المعمل العلمي . .

. . .

(د) الضرورة الكونية :

ولنتنظر إلى هذه القضية من جهة ثالثة ، تلك التي أسميها : « الضرورة الكونية » .
لقد تكلمت في الصفحات الماضية عن وجود الإله في الكون ، وقد ثبت جلياً أن الدراسة العلمية والفكرية هي التي تدعونا إلى القول بوجود إله لهذا الكون . وبقى أن نسأل : لو كانت هناك علاقة بين الإله والإنسان لما كان بد من ظهورها ، فتنى ستظهر هذه العلاقة جلياً ؟
أما بالنسبة إلى عالم اليوم ، فمن الممكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر بعد ، فالرجل الذي لا يؤمن بالإله ، يصبح قائلاً : « إننى لا أخاف من الله » ، ثم هو لا يصاب بأذى ، بل قد يحصل على الرعامة ، ويتسلم مقابليد الحكم !!

أما الذين يبلغون رسالات الله ، فإن السلطات توقفت نشاطهم بحجة أنه « غير شرعي » .
وهناك أيضاً مكاتب ومؤسسات تشغلها — ليل نهار — الدعاية لأولئك الذين يقولون : « لقد ذهب صاروخنا إلى القمر ولم ينشرف بلقاء الحكماء » ، وجميع أجهزة الدعاية الرسمية تدعم هذه المؤسسات ، فإذا ما نهض أصحاب الدعوات برسالتهم ردهم علماء العصر قائلين : إنكم رجعيون تتخبطون في الظلمات !

يولد الأطفال ، ثم يشبون ، ويموتون .
تصل الشعوب إلى أوج مجدها ، ثم تفرس .
تقع الثورات ، ثم تزول .

نشرق الشمس وتغرب ، ولكن لا تظهر آيات وجود الله .

وفي هذه الحالة تطالبنا عقولنا وقلوبنا بالإيمان بوجود الله ، أو إنكار هذا الوجود . فلو آثرنا الإيمان بالله ، فلا مناص لنا من الإيمان بالآخرة . فليست هناك طريق أخرى لتبيين علاقة الإنسان بالإله .

لقد سلم (داروين) بأن لهذا الكون « خالقاً » ، ولكن « تفسير الحياة » الذى قدمه لا يتضمن أدنى ربط بين الخالق ومخلوقه ، كما أنه لا يحس بالحاجة إلى « نهاية » لهذا الكون ، حاجة تدفعه إلى تقرير هذا الربط ، ولست أدري كيف سيملاً (داروين) هذا الفراغ الكبير فى نظريته البيولوجية ؟ إن عقل يستنكر إلهاً لا علاقة له بأمور الكون ، ولا يشهد عبادته فى مظهر الخالق أبداً . وما أعجب « خالق داروين » - هذا الذى يأتي بكون عملاق هكذا ، ثم ينهيه ، دون إبداء الأسباب التى دفعت إلى هذا الخلق ، ودون تعريف مخلوقه بصفاته العديدة !!

إننا لو أعطينا هذه المسألة الخطيرة شيئاً من تفكيرنا ، فسوف نجد قلوبنا تصرخ : « إن الساعة آتية لا ريب فيها . . » (١) .

بل إننا لو تأملنا فسرناها بسرعة إلينا ، سوف نراها ثقيلة ، وشبكة الانفجار : كأنها الوليد فى بطن الحامل . وما أقرب ما تقتك بنا - فجأة - ذات عشية أو ضحاهما :

« يستلونك عن الساعة أيان مومها . قل إنما علمها عند ربى . لا يحليها لوقتها إلا هو . نقلت فى السموات والأرض . لا تأتكم إلا بفتة (٢) » .

وابعاً - الشهادة التجريبية :

نواصل الآن بحثنا فى الجانب الآخر من هذا الموضوع : (الآخرة) ، وهو : هل هناك شهادة تجريبية تثبت الحياة بعد الموت ؟

إن أول دليل على الحياة الثانية هو حياتنا الأولى فى حداثتها ؛ فإن للذين ينكرون الحياة الثانية بقرون ، بداية ، الحياة الأولى . والحياة ، تلك التى ظهرت مرة واحدة ، كيف تعجز عن إعادة نفس العملية مرة أخرى ؟ هذه التجربة التى نعيشها نحن اليوم ، كيف يستحيل حلوسها ثانية ؟؟ إنه لا شئ أكثر عداء للمنطق والعقل الإنسانى من أن نعلم بوقوع حادث فى « الحال » ، وننكره فى « المستقبل » !!

ياله من تناقض عجيب . . إن الإنسان يدعى أن « الآلهة » التى اخترعها هو بفكراته

(١) غافر / ٥٩ .

(٢) الأعراف / ١٨٧ .

الخارقة لتفسير الكون تستطيع إعادة وقائع الكون مرة أخرى ، ولكنه يرفض بعناد تلك النظرية المماثلة التي يتقدم بها الدين ، ويعبر « السير جيمس جينز » عن نظرية هؤلاء القوم قائلاً :

« لا غرابة إذا كانت أرضنا قد جاءت صدفة نتيجة بعض الحوادث . وإذا بقي كوننا على حاله الراهنة لمدة طويلة مماثلة (لمدة حدوثه صدفة) ، فلا نستبعد حدوث أى شئ يمكننا قياسه على الأرض^(١) . »

وترى نظرية النشوء والتطور أن جميع أنواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائي واحد ، وأنها ارتقت إلى ما هي عليه الآن خلال مراحل تطورية متطاولة . وبناء على هذا التفسير الذي قام بوضعه « داروين » - صاحب هذه الفكرة - فإن « الزراف » ، الموجود حالياً ، كان في بدء الأمر من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف ، ولكن هذا الحيوان ، من خلال العمليات الطويلة التي أعقبت التوالد والتناسل ، والتغيرات والفوارق الصغيرة التي طرأت على الجنس الحيواني ، استطاع أن يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادى ، الذى نشهده اليوم . .

يقول « داروين » موضحاً نظريته في الباب التاسع من كتابه :

« ومن الأمور الحتمية عندى أنه - إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل ، فن الممكن أن نجعل من حيوان ذى ظلف عادى حيواناً مثل الزراف^(٢) . . »

وهكذا اضطر جميع العلماء ، الذين حاولوا شرح الكون والحياة ، بطريق طبيعية ، إلى أن يسلموا بأنه لو هيئت نفس الأحوال - التى ساعدت في خلق الحياة الأولى - فن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرة أخرى . إن إمكان حدوث الحياة الأخرى أقوى - نظرياً - من إمكان الحياة الأولى ، الذى قد وقع فعلاً ، وأى شئ نسلم به أنه خلق الحياة - مهما كان هذا الخلق - فلا بد لنا من الإقرار بصفة بدعية بأن ذلك الخلق يستطيع بالتأكيد إعادة نفس الحوادث التي أنشأها للمرة الأولى ، ولا بد لنا من هذا الاعتراف ، اللهم إلا إذا أنكرنا الحياة الأولى (الموجودة الآن) . . فنحن نفقد جميع الأسس التى قد نبني عليها دعائم إنكارنا للحياة الأخرى ، عندما نسلم بوجود الحياة الأولى !

• • •

خامساً - البحث النفسى :

لقد أثبت البحث النفسى ، الذى ذكرناه آنفاً ، أن جميع أفكار الإنسان - أو بعبارة أخرى : جميع خلايا مخه - تبقى بصفة دائمة . وهذا الواقع يثبت بصراحة أن عقل الإنسان ليس يجزء من جسمه ، فإن جميع خلايا وأنسجة الجسم تتغير تغيراً كاملاً فى بضعة أعوام ، ولكن سجل اللاشعور لا يقبل أى تغير أو مغالطة أو شبهة على رغم مرور مئات السنين . ولو كان هذا السجل المحافظ كائناً فى الجسم فلا أدرى أين مكانه منه ؟ وفى أى جزء يمكن على وجه الخصوص ؟ ولو كان فى أحد أجزاء هذا الجسم ، فلماذا لا يزول عندما تزول هذه الأجزاء بعد سنوات عديدة ؟ ما أعجب هذا السجل الذى تحتظم جميع لوحاته تلقائياً ، ولكنته لا يفنى ولا يزول ؟ !

إن هذه البحوث الجديدة فى علم النفس تؤكد ، بصفة قاطعة ، أن الوجود الإنسانى لا تنحصر حقيقته فى ذلك الجسم المادى الذى يخضع دوماً لعمليات التحطيم والاحتكاك والفناء ، بل هو شئ آخر ، غير هذا كله ، وهو لا يفنى ، بل يبقى مستقلاً ، ولا يزول .

ويعلم من هذا أيضاً أن الحواجز وقوانين الزمن لا وظيفة لها إلا فى عالمنا هذا ، ولو كان هناك عالم آخر ، يبدأ عند فناء جسمنا المادى ، فهو يخلو تماماً من هذه الحواجز والقوانين . إن كل ما نباشره من الأعمال والأفعال الشعورية يخرج فى نطاق هذه القوانين والحواجز . ولو كانت هناك « حياة عقلية أخرى » - كما يعتقد فرويد - فعناه أن هذه الحياة الجارية لن تفتى أبداً ، بل تستأنف مسيرتها بعد الموت ، وسوف نكون على قيد الحياة ، فإن هذا الموت لم يكن إلا نتيجة من نتائج هذه الحواجز والقوانين الزمنية . أما وجودنا الحقيقى - وهو اللاشعور ، كما يقول فرويد - فهو حر مستقل عن هذه الحواجز والقوانين ، ولا يطرأ عليه الموت ، بل يأتى (الموت) على الجسد العنصرى المادى ، ويبقى اللاشعور - وهو الإنسان الحقيقى - كما هو . ومثاله أن حادثاً وقع قبل ربع قرن . أو فكراً خطراً بيالى قبل عشرين سنة ، وقد نسبت كليهما قاطبة ، ومع ذلك فأتى أراهما فى أحلامى اليوم . وتفسير ذلك عند علماء النفس هو أنهما كانا محفوظين فى « اللاشعور » بأكل صورهما وجزئياتهما ، كأنما حدثا بالأمس !!

وقد تساءل هنا : وأين هذا اللاشعور ؟ فلو كان منقوشاً على الخلايا - كالصوت مسجلاً على الاسطوانات - فإن تلك الخلايا ، التى سجلت ذلك الحادث قبل ربع قرن ، أو هذه الفكرة قبل عشرين سنة ، قد تحطمت وزالت منذ سنين طويلة ، ولا علاقة لها ، فى أى صورة ، بجسدى الموجود الآن . فأين هذا الفكر من جسدى ؟ تلك شهادة تجريبية تثبت - قطعياً -

أن هناك عالمًا آخر خارج أجسامنا المادية ، مستقلا بذاته ، ولا ينفى بقاء الجسم ، أو جزء من أجزائه .

• • •

سادساً — البحوث الروحية

أثبتت « البحوث الروحية » Psychological Researches الحياة بعد الموت ، على المستوى التجريبي والعمل . إن الأمر الذي يدفنا إلى إبداء مزيد من الإعجاب بهذه البحوث هو أنها لا تثبت « بقاء محضاً » لروح ما ، بل إنها تثبت أيضاً بقاء الشخصيات التي كنا نعرفها بذاتها ، قبل أن تموت !!

إن هناك خصائص كثيرة يتمتع بها الإنسان من قديم الأزمان ، ولكننا لم نلق الضوء عليها إلا حديثاً . ومن هذه الخصائص : « الرؤيا » ، التي تعد من أقدم مميزات الجنس البشري . والحقائق المثيرة التي تعد من أقدم مميزات الجنس البشري . والحقائق المثيرة التي كشفها علماء النفس عن هذه الميزة لم يكن قدامائنا على علم بها .

وهناك مظاهر أخرى درستها أخيراً ، وأجرينا بحوثاً وإحصاءات في مختلف أنحاء العالم حولها ، وجاءت البحوث بنتائج غاية في الأهمية .

ومن هذه البحوث ما نسميه « بالبحوث الروحية » .. وهي فرع من علم النفس الحديث ، وهدفها محاولة الكشف عن المميزات الإنسانية غير العادية ، وقد أقيم أول معهد لإجراء هذا النمط من البحوث عام ١٨٨٢ م في إنجلترا . وبدأ علماء المعهد عملهم سنة ١٨٨٩ م ، بعد أن قاموا بمسح واسع النطاق على ١٧ ألفاً من المواطنين ، ولا يزال هذا المعهد موجوداً باسم « جمعية البحوث الروحية » . وقد انتشرت الآن معاهد كثيرة في مختلف بلدان العالم . وأثبتت هذه المعاهد ، بعد بحوثها وتجاربها الواسعة النطاق ، أن الشخصية الإنسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادي ، في صورة غريبة ..

كان وكيل متقل لشركة أمريكية يسجل طلبات عملائه . جالسا في حجرته في فندق سانت جوزيف ، بولاية ميسوري ، فإذا به يشعر أن أحداً يجلس عن يمينه . ويقول الرجل : « فحولت وجهي بسرعة فوجدت أنها أختي ! » .

وكانت أخته هذه قد ماتت منذ تسع سنين .. وبعد برهة اختفى وجه أخته . وكان الوكيل قد أفرغه هذا الحادث ، للرجة أنه بدلا من أن يستأنف جولته ، قرر مغادرة (ميسوري) إلى بيته في بلدة (سانت لويس) . وفي البيت ذهب يقص على أقربائه الحادث بالتفصيل كما رآه ، وعندما وصل أثناء كلامه إلى هذه الجملة : « وشاهدت على خدّها الأيمن جرحا واضحا أحمر اللون » .. فإذا بأمه تصرخ وتقوم مرتعدة ، وهي تقول : « إنني أنا السبب في ذلك

الجرح الذى رأيت ، وقد حدث ذلك عن غير قصد منى ، وقد تمت لذلك الحادث وآلى المنظر ، فأزلت كل آثار الجرح ، ووضعت فى مكانه شيئا من البودرة ! ، وأضافت الأم قاتلة :

« ومنذ ذلك اليوم لم أفض بهذا السر إلى أحد أبدا »^(١)

إن هذه الوقائع وأمثاله لا تختص بأمريكا وأوروبا ، وإنما تحدث بكثرة فى كل منطقة من العالم . ولكن حيث إن أكثر البحوث العلمية الحديثة قد أجريت فى تلك المنطقة من العالم ، فلا بد لنا أن نأتى بالشهادات التجريبية من تلك المناطق أيضا . ولو كان عند بعض علمائنا شئ من الطموح والثقة بالنفس ، وبدءوا هذا العمل فى مناطقهم ، فمن الممكن أن نجتمع شهادات لا حصر لها فى بلادنا الآسيوية والإفريقية . وأنا شخصا على علم بكثير من وقائع مماثلة تدعم هذه النظرية بصفة مدهشة ، ولكننا بكل أسف نعوزنا أهم للقيام بمثل هذه البحوث العلمية ، وما يلزمها من قدرة على الإتفاق ، وبذل الوقت المطلوب .

• • •

إن هناك وقائع لا تخص من هذا القليل ، وهى تؤكد وجود « شخصيات معروفة » بعد موتها . ولا سبيل أماننا لاعتبار هذه الوقائع والحقائق : « أوهاما وخيالات » ، كما اعتاد بعض الناس القول ببساطة فى مثل هذه المسائل ، فإن سر الجرح على خد الفتاة الأيمن - وقد مات منذ حقبة من الزمن - لم يكن أحد يعرفه غير الفتاة وأمها .

وهناك وقائع أخرى تؤكد بقاء الحياة بعد الموت ، وهى وقائع تتعلق بأولئك الذين نسميهم : « بالمتحركين آليا » Automatism^(٢) . ويطلق هذا الاسم على الذين تصدر عنهم أفعال رغم إرادتهم الذاتية ، وهذه الوقائع تدل على أن أرواحا - لأشخاص قد ماتوا - تسكن فى أجسام هؤلاء الأحياء . ويكشف هؤلاء الناس أثناء أعمالهم عن جزئيات لا يعرفها إلا الموتى ، أصحاب الأرواح .. ثم يظهر بعد شهور وسنين أن تلك الجزئيات كانت حقائق واقعية .

وهناك أيضا رجال يتكلمون ويكتبون فى آن واحد ، ولا يكون للمكتوب أية علاقة بالقول ، كما أن الكاتب لا يعلم بنفسه ماذا كتب ، إلا بعد الاطلاع على ما كتبه ، وهذا الواقع يثبت أن روحا - غير روحه الشخصية - تسكن فى جسده ، وهى التى تجعله يكتب^(٣)

• • •

Human Personality and its Survival of Bodily Death, (١)

FWH Myers, N.Y., 1903, Vol. II, pp. 27-30.

(٢) ربما كان من بين هؤلاء من نصفهم بلفتنا الدارجة بأنهم : (ركبهم الجن) ، فهم

ملبوسو الإرادة ، يتكلمون بلسان غيرهم من العقاريت . (المراجع)

A Philosophical Scrutiny of Religion, pp. 407-10. (٣)

إن كثيرين من علمائنا المحدثين يرتابون في قبول هذا الاستدلال ، كما يقول « براد » .
« إن أى فرع من فروع العلوم الحديثة لا يؤكد إمكان الحياة بعد الموت ، اللهم إلا ذلك
الاستثناء المشتبه فيه من البحوث الروحية » (١)

بيد أن الاستدلال يشبه عندى أن أقول : « إن » التفكير « استثناء مشتبه في أمره ،
لأن أحدا من ملايين الحيوانات على سطح الأرض لم يصدق هذه الظاهرة غير الإنسان ١١ »

• • •

إن بقاء الحياة وفناءها يتعلق بعلم النفس ، لكونه مسألة نفسية بحتة . فلا تصلح دراسته
إلا في علم النفس ، أما أن نبحث عنه في أقسام أخرى من العلوم . فهو بمثابة أن نطالب علمي
(النبات) و (الفلزات) بإثبات ظاهرة التفكير . ولا نستطيع — أيضا — أن نجعل دراستنا
داخل الجسم الإنسانى حكما في هذه المسألة الخطيرة ، وسببه أن الجزء الذى ندعى بقاءه
واستمراره فى الحياة — وهو الروح — لا يوجد في هذا الجزء المادى ، بل في جسم آخر سواء .
وهذا هو الأمر الذى دفع الكثيرين من علمائنا إلى الاعتراف بأن « الحياة بعد الموت »
واقع حقيقى ، بعد أن قاموا بأبحاث علمية طويلة غير منحازة . وقد ألقى (البروفسور
دوكاس » ، وهو أستاذ الفلسفة بجامعة براون ، ضوءا على الجوانب النفسية والفلسفية من
مسألة الحياة بعد الموت ، في الباب السابع عشر من كتابه . والدكتور دوكاس لا يؤمن
بالحياة بعد الموت كعقيدة دينية ، وإنما وجد — أثناء بحوثه — شواهد كثيرة ، اضطرت
على أثرها — أن يؤمن بالحياة الآخرة ، مجردة عن قضايا الدين . وهو يكتب في آخر الباب
السابع عشر من كتابه قائلا :

« لقد قام رهط من أذكى علمائنا وأكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة ،
وفحصوها بنظرة نقد ثاقبة ، وقد توصلوا آخر الأمر إلى أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة
« بقاء الروح » نظرية معقولة ، وبمكنة الحدوث .. وهم يرون أنه لا يمكن تفسير تلك الشواهد
إلا على هذا النحو . ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع أن نذكر : الأساتذة
ألفريد راسل واليس ، والسير وليام كروكس ، وف . و . ه مايرز ، وسيزار لومبرازو ،
وكيل فلاماريون ، والسير أوليفر لوج ، والدكتور ريتشارد هوجسن ، والمستر هنرى
سيدليك ، والبروفيسور هيسلوب » .

ويستطرد الدكتور دوكاس قائلا :

« ويتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت — التى يؤمن بها الكثيرون منا كعقيدة

دينية - ليس من الممكن أن تكون واقعا فحسب ، وإنما لعلها هي الوحيدة ، من عقائد الدين الكثيرة ، التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي . ولو صح هذا فن الممكن أيضا أن نجد معنومات قطعية في هذا الموضوع ، بغض النظر عن الأفكار التي اقترأها رجال الدين عن نوعية الحياة بعد الموت ، ولن نحتاج حينئذ إلى الإيمان بالوجهة الدينية من هذه النظرية (١) .

ويكاد الدكتور دو كاس - بعد الوصول إلى هذا الحد من وضوح قضية الحياة بعد الموت ، ثم الجحود بوجهتها الدينية - أن يكون مثله مثل الفلاح الذي يصر على أنه لا سبيل إلى الحديث بينه وبين أحد أقربائه ، الذي يسكن في بلدة نائية .. فإذا وصلت خط التليفون مع قريه هذا في البلدة النائية ، وأعطيته الساعة .. إذا به يقول لك ، بعد فراغه من الكلام : « ليس من الضروري أنه كان صوت قريبي ، فن الممكن أنه كان يخرج من إحدى الماكينات » .

. . .

الباب السادس

إثبات الرسالة

من العقائد المهمة في الدين ، بعد الإيمان بالله ، عقيدة الإيمان بالرسالة ، أو الوحي والإلهام ومعناها : أن الله تعالى ينزل كلامه على إنسان يختاره من بين الناس ، ليخبر الناس بما يرضى الله تعالى . . .

وحين صجزنا عن رؤية أى غلط اتصال صاغين ، بين الله سبحانه وبين الرسول ، أنكرناه . ولكننا اليوم نستطيع أن نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة .

إن هناك وقائع كثيرة جداً تجرى من حولنا في كل لحظة ، ونحن نعجز عن إدراكها ، أو سماعها ، أو الإحساس بها بواسطة أجهزتنا العصبية ، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التي اخترعناها . وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال ، وكأنه يطير عند أذنك !

ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء !!

لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع إدراك كثير جداً من الأحداث التي لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية .

وهذه الطاقة غير العادية للسمع لا تخص الآلات العلمية الحديثة ، وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضاً . وما لا شك فيه أن جهاز سماع الإنسان محدود جداً ، ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف ، فالكلب ، مثلاً ، يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذي مر من الطريق ، ومن ثم استنزلت الكلاب في البحث عن الجرائم والمجرمين . . . فالقفل الذي كسره اللص يشمه الكلب المدرب ، ثم يتطلق مفضياً أثر الرائحة المبيتة التي وجدها عند القفل المكسور ، وفجأة نراه يمسك بالصوص من بين الأكواف .

وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتاً تخرج عن نطاق أسماعنا ، ولقد أثبتت البحوث في هذا الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقرة « الإشراق » Telepathy . فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth) ، أو (المثة) ، وهي حشرة مجنحة — على نافذة مفتوحة ، فستحدث صوتاً يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جداً ، وسوف يجيئها هذا الزوج أيضاً بطريقته .

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى « الجندب » ، يحك رجله وجناحيه ويصوت بطريق غير عادية ، ويسمع على مبعدة نصف ميل ، وهو يحرك في هذه العملية سبائة طن من الهواء ، ليدهو زوجه ، وهذه الزوج ترسل أيضاً وهي ساكنة بلا حراك جواباً لا نعرفه ، وإنما يعرفه الجندب الذكر ، ثم يلحق بها أينما كانت .

وقد أثبتت البحوث أيضاً أن « أبو النطيط » العادي Grasshoper لديه قدرة خارقة على السماع ، حتى إنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التي تحدث في نصف قطر من ذرة الميكرودجين !

وهناك أمثلة أخرى كثيرة ، تؤكد إمكان وجود وسائل غير مرتبة لدى ذوى الحواس الخاصة .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما وجه الغرابة في ادعاء إنسان أنه يسمع صوتاً من لدن ربه ، لا يبركه عامة الناس (؟) مادام من الممكن أن توجد في هذا العالم حركات وأصوات لا نسمعها آذان الإنسان ، ولكن تسجلها الآلات ؟ ومادامت هناك رسائل تتركها حيوانات دون أخرى ؟ ما هو جانب التعجب والاستبعاد ؟

إن الله تعالى — لحكمة يعلمها — يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية إلى الإنسان المختار للرسالة ، بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها . فليس هناك من تصادم في الحقيقة ، بين مشاهداتنا وتجاربنا العلمية ، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التي نشاهدها ونجربها في أمكنة وطرق مختلفة ، فالوحي إمكان ، وجدناه في شكل الواقع بعد التجربة .

وقد تبين أن تجارب الإشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات ، وإنما توجد في الإنسان « بالقوة » ، يقول الدكتور إليكسيس كيريل (١) : « إن حدود الفرد في إطار الزمان والمكان هي مجرد اقتراض (٢) » . فيستطيع عامل الإشراق أن يملك تمام ، وتضحك ، لو ثبكي ، كما يستطيع أن ينقل إليك كلمات أو خواطر ، لست على علم بها . إنها عملية لا تستعمل فيها أية وسائل ولا يشعر بها غير عامل الإشراق وصاحبه .

(١) Man the Unknown. p. 244.

(٢) أي لا نهاية لهذه الحدود من حيث الإمكان . (المغرب)

كيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربّه ؟ إننا بعد الإيمان بالله ، والإطلاع على هذه التجارب الكثيرة بما في ذلك الإشراق ، لا نجد أساساً لإنكار الوحي والإلهام .

• • •

وقد حدث سنة ١٩٥٠ أن المستولين في « بافاريا » رفعوا قضية ضد أحد النسويين ، واسمه (فرتر سترويل) ، بتهمة التدخل في برامج الإذاعة عن طريق الإشراق .

وكان فرتر سترويل يستعرض أعماله في فندق ريجنا ، بميونخ ، عندما ناول أوراق لعب الكوتشينة إلى أحد المتفرجين ، وطلب إليه اختيار ورقة ما . وادعى أنه سوف ينقل اسم تلك الورقة واسم الفندق مع ترتيبهما ، كما هما في ذهن المتفرج ، إلى المذيع الذي كان يقرأ الأخبار من إذاعة ميونخ المحلية ، ذلك دون أن يعرف المذيع نفسه شيئاً من هذا ! ! بعد ثوان سمع الناس صوت مذيع مرتعش ، هو يقول : « فندق ريجنا - بنت البستوني » وكان الترتيب واسم الورقة صحيحين ، كما أراد المتفرج .

وكان الارتعاش والرهبة واضحين في صوت المذيع ، ولكنه واصل قراءة الأخبار . استغرب الكثيرون من المستمعين من سكان ميونخ ، واتصل مئات منهم تليفونياً بالإذاعة يستفسرون عن السر الغامض . فكان من الصعب عليهم إدراك علاقة الأخبار « بفندق ريجنا - بنت البستوني » : وحضر طبيب الإذاعة للكشف على المذيع ، فوجده في حالة اضطراب خطيرة ، وأدل المذيع بيانه قائلاً : « إنني شعرت بصداع شديد في رأسي ، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك ! »

• • •

وقد عرض العلماء نظريات عديدة لشرح هذه الصور من عملية الإشراق ، ومنها أن أمواجاً تصدر من المخ وتنتشر في العالم أجمع بسرعة فائقة ، ولذلك سموها بنظرية الموجة المخية Brain Wave Theory (١) .

ونحن نقول : إنه لما كان الإنسان يستطيع تحويل الأفكار بأكملها إلى إنسان آخر ، على بعد غير عادي ، وبدون استعمال أي واسطة مادية ظاهرية ، فلماذا تستحيل نفس العملية بين الإله وعباده ؟ إن هذا المظهر من كفاءة قوى الإنسان - وأمثله كثيرة لا تحصى - ليس إلا قرينة تجريبية نجعلنا نفهم علاقة الألفاظ والمعاني التي تربط العبد بالإله عندما يرسل رسالته .

إن الإشراق أمر معروف لدى الناس ، وهو يملك على فهم ذلك النظام الإشرافي العظيم بين الإله والعباد ، والذي يكون في أكل صوره حين يبلغ درجة « الوحي » ، وهذا الوحي لا يعدو أن يكون « إشراقاً كونياً » ، من نوع الإشراقات التي ههناها في حياتنا على مستويات محدودة .

• • •

أولاً - ضرورة الرسالة :

وينبغي - بعد وضوح إمكان الوحي والإلهام - أن نبين عما إذا كان « ضرورياً » أن يخاطب الله إنساناً ، ليبلغ كلامه إلى الناس ؟

إن أكبر دليل على هذه الضرورة هو أن الأمر الذي يخبر عنه الرسول من أهم الأمور التي تتعلق بحياة الإنسان ومصيره ، والإنسان لا يستطيع أن يصل إلى تلك الحقائق ببجوده الشخصية ، إنه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون كي يفهم أسرار بده الحياة ونهايتها ، وحقائق الشر والخير ، وكيفية صوغ الإنسان من أجل الإنسانية ، وتنظيم أجهزة الحياة حتى تستطيع الإنسانية أن تسير قاصداً في طريق الخير والرفاهية . ولم تكفل هذه الجهود بالنجاح إلى يوم الناس هذا . فقد كشفنا عن أسرار الحديد والبرق ، وتعرفنا على حقائق الطبيعة بعد جهد قصير ، ولكننا عاجزون عن كشف « علم الإنسان » ، رغم أن جهود أعظم حقولنا البقرية تواصل البحث عن هذا العلم ، ولم تستطع ، حتى الآن ، تحديد مبادئه وأسه . إن هذا هو أكبر دليل على أن الإنسان يحتاج إلى هدى الله من أجل أن يعرف نفسه !

• • •

ومن المسلم عند الإنسان الجديد أنه لم يفلح بعد في كشف لغز الحياة ، ولكنه على كل حال يأمل في أن يساعده القدر يوماً لرفع القناع عن هذا السر المحقد ، ولا ريب أن صبر مجتمع العلم والصناعة عن إشباع الحاجات النفسية للإنسان يؤكد الفكرة التي تقول : « إننا أعطينا أهمية غير عادية للعلوم المادية ، على حين تركنا العلوم الإنسانية في مراحلها البدائية » ، أما الذين دفع بهم طموحهم الجارف إلى العمل في هذا المجال ، مجال (العلوم الإنسانية) فهم كذلك لم يستطيعوا كشف شيء ما ، بل لجوا في ضلالهم يسهون ، يقول الدكتور إلكسيس كيريل (الحائز على جائزة نوبل للعلوم) :

« إن مبادئ الثورة الفرنسية ، وأفكار ماركس ، ولينين ، لا تنطبق إلا على الإنسان العقل المثالي . ومن الواجب أن نشعر بهرابة تامة بأن قوانين العلاقات الإنسانية لم تكشف بعد .

لما الاجتماع والاقتصاد وما أشبههما ، فهي علوم افتراضية محضة ، بدون أدلة يمكن إثباتها بها^(١) .

ولا شك أن علومنا الجديدة قد فتحت مجالات أمام الإنسان ، ولكنها في نفس الوقت جعلت المسألة أكثر تعقيداً ، ولم تساعد في حل الأزمة في أية مرحلة .

ويقول الأستاذ ج.و.ن. سوليفان :

« إن الكون الذي كشفه العلم الحديث هو أكثر عموضاً وإبهاماً من التاريخ الفكري بأكمله ، ولا شك في أن علمنا عن الطبيعة أكثر غرارة من أى عصر مضى ، ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعة ، فنحن نواجه اليوم الإبهام والمتناقضات في كل ناحية^(٢) . »

هذه الكارثة المؤسفة التي تقف أمامها ، بعد بحث طويل في العلوم المادية عن سر الحياة ، تدلنا على أن إدراك سر الحياة لن يتاح للإنسان^(٣) .

إن أحوالنا تختم علينا معرفة سر الحياة ، إذ أننا لا نستطيع مواصلة الحياة في أكل صورها دون معرفته ، ولذلك كان خير ما نتمنى بقلوبنا أن نتركه ، ولا يرضى أسمى جزء من شخصيتنا ، وهو العقل ، أن يطمئن بدونه . فحياتنا مبعثرة لفقلاتنا هذه الحقيقة

سر الحياة هو ضرورتنا الكبرى ، هنا من ناحية : ولكننا ، من ناحية أخرى ، لا نستطيع أن نظفر به بمجهودنا وحدها

هذه الحالة وحدها تكفي لنتبين حاجتنا الشديدة إلى « الوحي » ، فأهمية سر الحياة . ثم خروج هذا السر عن دائرة قوى الإنسان ، يدل على أنه لابد أن تأتي المعرفة من الخارج أيضاً ، كالضوء والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الإنسان ، ولكنها هيئا من الخارج^(٤) .

• • •

إن مهمتنا ، بعد التسليم بإمكان الوحي وضرورته . هي أن نبحث عن الإنسان الذى يدعى أنه نبي . . هل هو صاحب الوحي في الحقيقة ؟ . . لقد نصت العقيدة الدينية على مجئ عدد كبير من الأنبياء ، ولكننا سوف نبحث في هذا الباب عن نبوة رسول الإسلام : سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإن نبوة سائر الأنبياء من قبله تثبت تلقائياً لو ثبتت

Man the Unknown, p. 37. (١)

Limitations of Science, p. 1. (٢)

(٣) أنظر التفصيل كتاب الدكتور كيريل ، ص ١٦ - ١٩

(٤) سوف نبحث هذه المسألة بتوضيح أكثر في الفصول القادمة .

نبوته ، لكونه آخر الأنبياء ، ولأنه يصلقهم ولا ينكرهم ، ولأن نجاة البشرية ، أو هلاكها في معركة الحياة رهن بإيمانها بهذا النبي ، أو تكذيبها إياه .

• • •

لقد ولد الطفل بمكة صبيحة يوم ٢٩ أغسطس من عام ٥٧٠ م ، وعندما بلغ الأربعين من عمره ، أعلن أن الله تعالى أرسله خاتماً للنبيين ، وكلفه بإبلاغ رسالته إلى جميع فئات الجنس البشري ، وأن من اتبعه نجا في الحياة الآخرة ، ومن كذبه فهو في خسران مبین .

إن أصداء هذا الصوت تمر فوق رؤوسنا اليوم بأشد قوتها ، وهو ليس بصوت عادي تتجاهله الآذان . . فهو أكبر نداء في تاريخنا يدعونا إلى تفكير دقيق ، وعلينا أن ندرسه بدقة ، فلما قبلناه وهو صادق ، وإما رفضناه لو وجدناه كاذباً . . . وهيات .

• • •

ثانياً - مقياس الرسالة :

كل فكر يمر بثلاث مراحل ، حتى يصبح حقيقة علمية :

المرحلة الأولى : الفرض Hypothesis

المرحلة الثانية : الملاحظة Observation

المرحلة الثالثة : التحقق Verification

والمرحلة الأولى من الحقائق هي أن نفترضها ، ثم نشاهدها وندرسها ، لتتبين صدقها أو كذبها ، فإن وجدناها صحيحة في ضوء الدراسة . قبلناها ؛ لتصبح حقيقة علمية ، وقد يتقلب هذا الوضع ، فإتينا في بعض الأحيان نشاهد أشياء تتوصل بها إلى نظرية ، ثم نبدأ البحث في ضوءها .

وبناء على هذا الأساس فإن دعوى النبوة (فرض) . وعلينا أن نفقش عما إذا كانت (الملاحظات) تؤيد هذا الفرض ؟ فإذا أبدته المشاهدات أصبح (حقيقة) مصدقة ، يلزمنا قبولها . .

ولكن ما الملاحظات التي نحتاج إليها لاختبار هذا الفرض ؟

وما المظاهر الخارجية التي تؤيد كون محمد (صلى الله عليه وسلم) نبياً حقاً ؟

وما الخصائص والميزات التي اجتمعت في الرسول ، ولا نجد لها تفسيراً إلا إذا قلنا : إنه كان نبياً ! .

في رأي أنه لا بد من مقياسين لاختبار الأنبياء :

أولاً : أن يكون رجلاً مثالياً بصورة غير عادية ، فإن الذي يصطفي ليكون كلم الله ،

وليكشف للإنسان برنامج الحياة وسرها ، لابد أن يكون أسمى شخصية في النوع الإنساني ، كما لابد أن يكون حاملاً مثل الحياة العليا . فإذا كانت حياته الذاتية متصفة بهذه الصفات فهي أكبر دليل على ما يقول ؛ إذ لو كانت دعواه باطلة لما كان ممكناً أن تتجلى هذه الحقيقة الكبرى في حياته الذاتية ، حتى تسمو به فوق سائر الإنسانية ، خلقاً وشأئاً .

ثانياً : أن يكون كلامه ورسائله مملوئين بيجواب يستحيل حصولها للإنسان العادي ، ولا تؤمل إلا بمن ظفر بمعرفة رب الكون ، بحيث لا يمكن للعامة محاكاة ما جاء به النبي من وحى الله .

إننا سوف نبحث عن الرسول في ضوء هذين المقياسين .

• • •

لقد شهد التاريخ بكل قطعية أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يتمتع بسيرة غير عادية ، ومن الممكن للمتعبين إنكار أية حقيقة ، مهما كانت واضحة ، كما أن من الممكن للنكرين ادعاء أى شئ في سبيل الاستغلال ، إذا كانوا غير راضين بالنتيجة ، مهما كانت صادقة وبديهية ! وحسبنا أن نذكر على ذلك موقفاً من حياتنا الحديثة ! فقد شاهدنا منذ سنين قليلة مثلاً ساعراً لهذا المبدأ ، عندما هاجمت الصين الشعبية حدود الهند الدولية ، وأخذت الصين لزاء احتجاج الهند تهم الهند نفسها بالعدوان !!

وفي الخطاب الذى أرسله رئيس وزراء الصين إلى الهند ، والذى أذيع نصه بلهى في يناير عام ١٩٦٠ ، ادعت الصين أن لها حقاً في أراض هندية تبلغ مساحتها ٢٢٠,٠٠٠ كم مربعاً !! ويقول رئيس وزراء الصين : إن القوات الصينية لم تتقدم إلا لتدفع بالقوات الهندية المحتلة إلى الورا !!

إليس هذا منطق التعصب والاستغلال !!

أما الذى لا يشكو من داء التعصب ، ويهيئ عقله لمطالعة الحقائق بقلب مفتوح واع ، فإنه سيسلم بعد دراسته بأن حياة محمد صلى الله عليه وسلم كانت أرقى ، وأحلى حياة شهداء البشر .

• • •

لقد أخبر محمد بن عبد الله بالنبوة ، وهو في الأربعين من عمره ، وكان قد اشتهر قبل هذا بدور أخلاقى ممتاز ، حتى لقبه الناس « بالصديق الأمين » ، وكانت قریش قد أجمعت على أنه يستحيل أن يكذب ، أو يخون الأمانة .

ومن الأحداث التى جرت قبل إعلانه النبوة بخمس سنين أن أهل مكة أرادوا بناء الكعبة من جديد ، وكانت قریش هى صاحبة الأمر . فاختلفت فيمن سيضع الحجر الأسود في

مكانه ، واستمر الخلاف أربعة أيام أو خمسة ، وأوشكت السيوف أن تبرز ، وكاد القوم أن يتناخروا ، ثم اتفقوا على أن يكون التمييز في هذه القضية أول من يدخل البيت الحرام صباح غد ، وفي اليوم التالي شاهدوا أن الإنسان الأول الذى دخل لبيت كان عملاً ، فنادوه قاتلين : « هذا الأمين ، وضيتا (١) » .

إننا لا نعرف شخصية في التاريخ الإنسانى تمتعت بهذا الإجلال والتكريم والتقدير ، وبهذه الميرة غير العادية ، ثم أصبحت موضع نزاع بعد مضي أربعين سنة من عمرها .

• • •

وعندما نزل عليه الوحي لأول مرة ، وهو في غار حراء ، اعتبره حادثاً غريباً لم يعهده من قبل ، فرجع إلى بيته يزجف فؤاده ، وقص كل ما حدث على زوجته : خديجة التي كانت أكبر منه سناً ، فقالت : « يا أبا القاسم والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » .

وكان أبو طالب عم النبي ، قد أتى أن يؤمن ، ولكنه حين علم أن ابنه « علياً » أسلم ، قال له : « أى بنى : ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ قال : يا أبت ، آمنت بالله ، ورسول الله ، صليت معه واتبعته ، فقال أبو طالب : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فآزره (٢) » .

وعندما جمع الناس لأول مرة بعد النبوة في رحاب « جبل الصفا » ، سألهم : « يا بطون فريش ! أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدق ؟ » فطلت الأصوات من كل الخناجر ، وهى تقول : « نعم : ما جربنا عليك كذباً ! »

إن هذا السجل التاريخي الممتاز لحياة الرسول قبل إعلان النبوة ، ليس له مثيل في العالم ، ولم يسبق أن أحرز مثله أى شاعر ، أو فيلسوف ، أو مفكر ، أو كاتب !!

• • •

وعندما أعلن محمد (صلى الله عليه وسلم) النبوة ، لم يكن صدقه موضع شك ، أو بحث مطلقاً لدى أهل مكة ، فإنهم كانوا على علم تام بحياته الكاملة ، ولذلك لم يرمه أحد بتهمة الكذب أو الاحتيال ، بل ذهبوا يدعون أنه قد وحيه ، أو أنه شاعر أو ساحر ، أو أن الجبن استولت على أوصاله ، وما إلى ذلك من الدعاوى التي تغفل بذكرها الكتب التاريخية ، ولكن

(١) صحيح البخارى ، باب ما ذكر في الحجر الأسود .

(٢) Ideal Prophet, P. 58. ، وانظر ميرة ابن هشام / ١ / ٢٦٥ .

هذه الكتب لا تشير إلى أية محاولة جرداً صاحبها على الثيل من أمانته وصلته . بل يسجل التاريخ أنه : « ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صلته وأمانته (١) » .

وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة ، صمم بعض شبان قريش على قتله ، وحاصروا بيته لاغيثاله ، وفي تلك الساعة الخطرة المخرجة قرر الهجرة إلى يثرب ، ولكنه أوصى ابن عمه (علياً) أن يرد جميع الأمانات إلى أصحابها في الصباح !

وهذا النضر بن الحارث ، وقد كان من أكبر المعارضين للنبي ، وكان يعد من الخبراء المحنكين بمكة - وقف يوماً ، فألقى خطبة في جمع من قريش ، وقال :

« يا معشر قريش ، إنه ، والله قد نزل بكم أمر ما أنتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلم : ساحر ، لا والله ، ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلم : كاهن ، لا والله ، ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتحالجهم ، وسمنا سمعهم . وقلم : شاعر ، لا والله ، ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه . وقلم : مجنون ، لا والله ، ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته . ولا تخليطه . يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فإنه ، والله ، لقد نزل بكم أمر عظيم » .

« وكان هذا النضر من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصب له العداوة (٢) » .

« وكان أبو لهب عم النبي من ألد أعدائه ، وقال له ذات مرة : « يا محمد ، إني لا أقول : إنك كاذب ، ولكن الأمر الذي تقوم بتبليغه باطل (٣) » .

• • •

إن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت عامة لسائر أهل الأرض ، غير مقصورة على الجزيرة العربية ، ولذلك أرسل كتابات إلى ملوك البلاد القريبة ، وقد تلقى إمبراطور الروم « هرقل » كتاباً من الرسول ، يدعو به إلى اعتناق الدين الجديد ، فأمر رجاله بإحضار رجل من قوم الرسول في ديوانه (٤) . وكان بعض التجار من قريش يقومون برحلة تجارية في بلاد

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ، ص ٩٨ .

(٢) المرجع السابق ١ / ٣١٩ .

(٣) الترمذى .

(٤) كان قيصر الروم هرقل حينئذ في بيت المقدس يشكر الله لقلته على الفرس ، وقد تلقى

هذا الكتاب هناك .

الشام ، فجنى بهم إلى ديوان القيصر ، وسألم هرقل عن كان أقربهم نسباً بالرسول ، فلجاب أبو سفيان : « أنا أقربهم نسباً » . ثم جرى حديث تاريخي هام بين هرقل وأبي سفيان ، تقتبس هنا منه شيئاً :

« هرقل : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : هل يغتر ؟

أبو سفيان : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

فقال هرقل : قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وعندما دار هذا الحديث لم يكن أبو سفيان قد آمن بالرسول بعد ، بل كان من خصومه ، الذين ألجأوا عليه العرب ، وشنوا ضده الحروب ، وقال ، وهو يروى هذا الحادث : « والله لولا الحياء من أن يأتروا على كذباً لكذبت عنه ^(١) » .

إن التاريخ على طوله لم يشهد رجلاً أدلى خصومه بآراء مثالية عن سيرته وحياته مثلما أدلى به خصوم رسول الإسلام .

إن هذا الواقع هو الآخر دليل في حد ذاته على حقيقة دعوة النبي العربي . وسوف أنقل هنا ما قاله الدكتور ليتز عن الرسول :

« إنني لأجرو بكل أدب أن أقول : إن الله الذي هو مصدر يتابع الخير والبركات كلها ، لو كان يوحى إلى عباده فدين محمد هو دين الوحي ، ولو كانت آيات الإيتار ، والأمانة ، والاعتقاد الراسخ القوى ، ووسائل التمييز بين الخير والشر ، ودفع الباطل هي الشاهدة على الإلهام ، فرسالة محمد هي هذا الإلهام ^(٢) » .

• • •

لقد عانى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، من صنوف الأذى ، وضروب العنت والاضطهاد عندما بدأ دعوته ؛ وحاربه قومه أشد الحروب وأقساها ، فوضعوا في طريق مروره الأشواك ، وصبوا على جسمه الطاهر أكواماً من النحاسة . . بل ووجدناه ذات مرة بينما كان يؤدى صلاته ، وإذا (عقبه بن أبي معيط) يليه بردائه بشدة حتى وقع النبي على الأرض . . .

ولكن هذه الاستفزازات لم تؤثر في مهمة النبي ، فاتبعوا معه أسلوباً آخر ، وذلك حين قاطعوه هو وعشيرته من بني هاشم ، وأجبروهم على أن يعتزلوا الناس ، فلبجأوا إلى شعب بني

(١) صحيح البخارى : كيف كان بدء الوحي .

(٢) Life of Mohammad, by Abul Fadl.

هاشم ، ومنعوا عنهم الطعام ، وحرموا التعامل معهم ، ومضى على هذه المقاطعة والحصار التاريخي ثلاث سنين ، وهم يأكلون أوراق شجر (الطلح) الجبلية المرة ، لسد حاجة البطن إلى الطعام . ويروى أحد الصحابة في هذا الحصار أنه حصل مرة على قطعة جافة من الجلد ، ففسله بالماء ووضعها على النار ، ثم بلله بالماء ثانية وأكله .

وبعد الخروج من هذا الحصار ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل الطائف ، وكانت تبعد أربعين ميلاً عن مكة ، وكان يقطنها الأعيان والأثرياء من ثقيف ، واستخدم هؤلاء لغة بالغة السوء مع الرسول . وذهب أحدهم يقول متحدياً : « هو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة ، إن كان الله أرسلك » ، وقال الآخر : « أما وجد الله أحداً يرسله غيرك » . وقال الثالث : « والله لا أكلمك أبداً » ، لئن كنت رسولا من الله ، كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك » .

ولم يكتف هؤلاء بهذا الاستهزاء ، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس يرمونه بالأحجار ، إلى أن سقط على صخرة مشخاً بالجراح ، وحين جلس ليستريح من الجراح والعت ، رموه حتى نهض مبتعداً عنهم ، وهم يتابعونه بالسب والإيذاء والتصفيق . . ولم يزل هذا المشهد حتى أقبل المساء ، وأوى الرسول إلى حائط لعنة بن ربيعة ، فجلس في ظل كرمه ، وهو جريح ملطخ بالدماء . وهذا هو الواقع الذي كان الرسول يذكره للسيدة عائشة في قوله :

« لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة (١) » .

. . .

وعلى الرغم من هذا الأذى الشديد ، فقد ظل الرسول يدعو إلى الحق . حتى اجتمعت قريش على أنه لا سبيل إلى التخلص منه إلا بالقتل . وبناء على مؤامرة دبورها ، أحاط عدد من رؤسائهم وشيبتهم ببית الرسول ، وفي أيديهم سيوفهم المسلوطة ، استعداداً لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم . عندما يخرج من بيته لتأدية صلاة الصبح ، ولكنه يأذن من الله ، خرج من البيت دون أن يصاب بأذى ، وهاجر إلى المدينة المنورة .

ثم أعلنت قريش قتالاً منظماً ضد النبي وأعوانه ، وجروهم إلى الحرب ، وورطوه في

(١) نص هذا الحديث : قالت عائشة : يا رسول الله ، هل أتق عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذا عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم استبق إلا بقرن الصالب . فرقت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلنتي ، فتظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال . . . إلخ - المراجع .

هذه الحروب زهاء عشر سنين ، وقد سقطت في معاركها أستانه الكريمة ، وكسرت رباعيته ، كما استشهد عدد كبير من صحابته ، وعانى مع أصحابه كل ما تعانيه الشعوب الضعيفة بعد إعلان الحرب عليها .

وهكذا دارت رحى التاريخ خلال ثلاثة وعشرين عاما من الكفاح ، وقبيل نهاية رسالته بعامين فتحت مكة ، ويومها وقف أمامه ألد خصومه ، لا يحملون نصيرا ولا معينا .. فهم يعرفون كيف يعامل المنتصر المغلوبين ، ولكن الذى لقبه ربه بأنه «رحمة للعالمين» سألهم :

— «يامعشر قريش : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟»

— فقالوا : «خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم» .

— فأعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم .

« اذهبوا فأنتم الطلقاء ! »

ذلكم ، ولاشك ، أعظم مثل للرحمة والعتو ، وهو معجزة من معجزات التاريخ الإنسانى . ولو كان هذا الحدث من أحداث ما قبل التاريخ ، أو لم يكن مسلما به تاريخيا ، لكنبه المكذبون الذين فى قلوبهم زيغ ، وقالوا : إنها أسطورة من أساطير التاريخ ، فلم يخلق إنسان بهذه الشيم !

وما أصدق ما قاله البروفيسور بورسورث سميت :

« عندما أتى نظرة إيجابية أستعرض فيها صفاته وبطولاته ما كان منها فى بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة ، وكم من البطولات المعجزة أحدثوا — أجده أقدس الناس ، وأعلام مرتبة ، حتى إن الإنسانية لم تعرف له مثيلا (١) . إن المثل الأعلى الذى ضربه النبي فى حياته الكاملة ، من الأخلاق العالية ، والزهد فى الأموال والملكات ، شئ لا مثيل له فى التاريخ .

لقد كان تاجرا ناجحا فى مكة ، وكانت زوجته السيدة خديجة من أثرى نساء العرب ، ولكن كل تجارته ، وثرأه وزوجته ، ذهباً فى سبيل الدعوة ، ثم ابتلى ببلاء شديد ، حتى إنه قال مرة :

« لقد أغضت فى الله ، وما يخاف أحد (أى مثل ما أخفت) ، ولقد أوديت فى الله ، وما يؤذى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين ليلة ويوم ، وما لى ولبلال طعام يأكله ذو كبد ، إلا شئ يواريه إبط بلال » (٢) .

وما عانى النبي كل هذا إلا لأجل دعوته ، فقد كان من الممكن أن يعيش حياة أخرى ، تختلف كل الاختلاف عن الحياة البائسة التي عاشها في سبيل رسالته ، ولقد عرضت عليه ، حين كان بمكة ، عروض مغرية تكفل له العيش الرخى ، والمجد السنى ، فأوفد إليه رؤسائه قريش « عتبة بن ربيعة » ، الذي جاء ليقول له :

« يا ابن أختى ، إنك منا ، حيث قد علمت من السلطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أثبتت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، فاسمع منى ، أعرض عليك أمورا ، تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . فقال له : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : يا ابن أختى : إن كنت إنما تريد ، بما جئت به من هذا الأمر ، مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا ، سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا : وإن كان هذا الذى يأتىك رقيقا نراه لا نستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبللنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . » حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ ، قال نعم ، قال :

فاستمع منى ، فقال : أفعل .. فقرأ عليه الآيات الأولى من سورة (فصلت) ، فلما وصل إلى قوله تعالى : « مثل صاعقة عاد وثمود » أمسك عتبة على فيه ، ونادى بالرحم أن يكف^(١) .

...

وفى المدينة المنورة ، كان النبي صلى الله عليه وسلم رئيسا للدولة المسلمين ، وكان يتمتع بمساعدتين مثاليين ، يملكون حياتهم لأجله ، ولم يعرف لهم نظراء على مدى التاريخ ، ولكن الوقائع التاريخية أثبتت أنه - حتى فى آخر أيام حياته ، حين أظلت رايته الجزيرة العربية كلها -بقى رجلا عاديا ، غير ملتحظ إلى شهوات الدنيا ومغرياتها ، حتى لحق بالرفيق الأعلى .

وقد روى سيدنا عمر بن الخطاب أنه دخل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم : « فإذا هو مضطجع على رمال حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمل بينه ، متكئا على وصادة حشوها ليف .. قلت : يا رسول الله أذع الله ، فليوسع على أمتك ، فإن فارس والروم قد وسع عليهم ، وهم لا يعبدون الله . فقال : لو فى هذا أنت ، يا ابن الخطاب ؟ أولئك جعلت لهم طبياتهم فى الحياة الدنيا ، وفى رواية ، أما تعرضى عن أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة^(٢) . »

ومما يحكى للسيدة عائشة أنه « كان يمر الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ، وما توفد في أبيات الرسول صلى الله عليه وسلم نار ، فسألها عروة بن الزبير : فما كانت معيشتكم ، ياخاله ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء . وقالت : وكان لنا جيران من الأنصار ، لهم ربائب يسقوننا من لبنها ، جزاهم الله خيرا . » . وقد جاء في حديث آخر : أنها ذكرت « أن آل محمد لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بر ، حتى مضى النبي صلى الله عليه وسلم ، لسبيله (١) » .

. . .

لقد عاش النبي هذه الحياة القاسية ، رغم كونه قادرا ، كل القدرة ، على أن يعيش حياة النعيم والترف . وعندما انتقل إلى رحمة الله لم يورث أهله شيئا ، لا دراهم ولا دنانير ، ولا غنا ولا إبلا ، حتى إنه لم يكتب أية وصية . بل إن النبي العظيم ، الذي كان على معرفة تامة بأن حدود دولته الإسلامية سوف تمتد عابرة إفريقيا وآسيا ، حتى تصل إلى قلب أوروبا — قال : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث ، ما تركنا صلقة » .

. . .

إن هذه الوقائع التي أوردناها ، من الإيثار ، والإخلاص ، وسمو الأخلاق ، ليست حوادث استثنائية في حياة الرسول ، وإنما هي حياته بأكملها ، بل هي بالحرى ، صورة مصغرة وموجزة عن الوقائع التي كانت تحدث في حياته المثالية ، لقد ارتفع بالإنسانية إلى أسمى قمة تحلم بها ، حتى إنه لو لم يوجد ، لاضطر المؤرخون إلى القول : بأنه لم يوجد إنسان من هذا الطراز ، ولن يوجد في التاريخ .

. . .

فليس غريبا ، مطلقا ، أن يقال : إنه كان نبي الله ، ولكن الغريب أن ينكره أحد منا عنادا وغرورا .

ونحن عندما نسلم بدعواه يمكننا أن نفسر سر حياته المعجزة .

أما إذا أنكرنا نبوته ، فسنفقد أى أساس لتفسير منبع أوصافه العجيبة ، التي لم نجد لها مثيلا في التاريخ .. وقد اعترف البروفيسور « بوسورث سميت » بهذه الحقائق ، حتى إنه ليدعو البشرية كلها إلى الإيمان برسالة النبي :

« لقد ادعى محمد لنفسه في آخر حياته نفس ما ادعاه في بداية رسالته . وإنى لأجلنى مدفوعا

إلى الاعتقاد بأن كلا من الفلسفة العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطربان ، يوما ما ، إلى التسليم بأنه كان نبياً .. نبياً صادقا من عند الله^(١)

• • •

أما الناحية الأخرى في قضية إثبات الرسالة المحمدية ، فهي ذلك الكتاب الذي جاء به صاحب الرسالة ، مدعيا أنه منزل من عند الله تعالى .

وهذا الكتاب يفيض بخصائص ومزايا تدل صراحة على أنه كلام غير إنساني ، وأنه من عند الله . ولما كان البحث في هذه الناحية ذا طبيعة خطيرة – نظرا لأهميته – فقد قدرنا أن ندرسه في باب مستقل ..

الباب السابع

القرآن هويته الله

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أني أكثرهم تاجاً يوم القيامة (١) » . .

إن هذا الحديث النبوي يعين جوانب بحثنا الصحيحة ، فهو يقول : إن أهم وسائلنا لمعرفة النبي هو الكتاب الذي جاء به ، ملحقاً أنه من عند الله ، والقرآن هو ، رسالة الرسول بين ظهرانيها ، كما أنه يبرهن على صدقه .

فما الخصائص التي تبرهن على أن القرآن من عند الله ؟

إنها متعددة الجوانب كثيرة ، نستطيع أن نلخصها في الفصول التالية :

أولاً - إعجاز القرآن :

أول خاصة يتنبه إليها الباحث في العلوم القرآنية هي ذلك التحدي الصريح الذي وجهه القرآن إلى الناس كافة ، منذ أربعة عشر قرناً ، وبخاصة أولئك الذين ينكرون رسالة القرآن ، ولم يستطع أحد من عباقرة البشر أن يرد التحدي إلى الآن . لقد أعلن القرآن ، بصوت عال ، لإيهام فيه ولا نغوض :

« وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ، إن كنتم صادقين (٢) » .

إنه أغرب تحد في التاريخ ، وأكثره إثارة للدهشة ، فلم يجرؤ أحد من الكتاب في التاريخ الإنساني - وهو بكامل عقله ووعيه - أن يقدم تحدياً مماثلاً ، فإن مؤلفاً ما لا يمكن أن يضع

(١) صحيح البخارى : الاعتصام .

(٢) سورة البقرة : ٢٣ .

كتاباً ، يستحيل على الآخرين أن يكتبوا مثله ، أو غير آمنه .. فن الممكن إصدار مثيل من أى عمل إنسانى فى أى مجال ، ولكن حين يدعى أن هناك كلاماً ليس فى إمكان البشر الإتيان بمثله ، ثم تحقق البشرية على مدى التاريخ فى مواجهة هذا التحدى ، حينئذ يثبت تلقائياً أنه كلام غير إنسانى ، وأنها كلمات صدرت عن صميم المنبع الإلهى Divinization ، وكل ما يخرج من المنبع الإلهى لا يمكن مواجهة تحدياته .

• • •

وفى صفحات التاريخ بعض الوقائع ، غر أصحابها الغرور ، فانطلقوا يواجهون هذا التحدى . وأولى هذه الوقائع ما حدث من الشاعر العربى ليلى بن ربيعة ، الشير ببلغة منطقة ، وفصاحة لسانه ، ورسالة شعره . فعندما سمع أن محمداً يتحدى الناس بكلامه قال بعض الأبيات رداً على ما سمع ، وعلقها على باب الكعبة ، وكان التعليق على باب الكعبة امتيازاً لم تتركه إلا فئة قليلة من كبار شعراء العرب ، وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته الغزة ، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم ، وعلقها على جوار أبيات ليلى ، ومر ليلى بباب الكعبة فى اليوم التالى ، ولم يكن قد أسلم بعد ، فأذهله الآيات القرآنية ، حتى إنه صرخ من فوره قائلاً : (والله ما هذا بقول بشر ، وأنا من المسلمين) (١) .

(١) هذا الخبر عن ليلى أورده المؤرخ ج. ساروار فى كتابه Mohammad The Holy Prophet ص ٤٨٨ - كراتشى ، وهو على هذا النحو غير مسلم ، لأن ليلى لم يسلم إلا فى السنة التاسعة للهجرة ، حين وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ضمن وفد كلاب (أنظر : الطبقات الكبرى ٢٣/٦ ، وأيضاً ٣٠٠/١ - ط بيروت ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٥/١ - تحقيق الشيخ أحمد شاكر) . وإنما كان الذى حدث قريباً من هذا الذى ذكره المؤلف مع استبعاد رواية إسلامه ، فقد ذكر الحافظ أبو نعيم فى الحلية ١٠٣/١ أن عثمان بن مظعون رضى الله عنه كان فى أول الإسلام يعيش فى جوار الوليد بن المغيرة ، فلما رأى ما يحدث لإخوانه من أذى المشركين عز عليه أن يملأوا دونه ، فرد جوار الوليد ، ثم مضى إلى الكعبة فوجد ليلى بن ربيعة فى المجلس من قريش ينشد ، فجلس معهم عثمان ، فقال ليلى وهو ينشد :
(ألا كل شئ ما خلا الله باطل) ...

فقال عثمان : صدقت . فقال :

(وكل نعيم لا بحالة زائل)

فقال عثمان : كذبت ، نعيم أهل الجنة لا يزول ، فقال ليلى : يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جلسكم ، فنى حدث فيكم هذا ؟ إلى آخر الخبر ، ومفهوم هذا أن ليلى قد بنى على جاهليته حتى أسلم سنة تسع ، ويذكر ابنه قتيبة أنه لم يقل فى إسلامه غير بيت واحد هو :

الحمد لله إذ لم يأتى أجل حتى كسانى من الإسلام سريالاً

وقيل هو قوله :

ما صائب المرء الكريم كنفه والمرء يصلحه المجلس الصالح (المراجع)

وكان من نتيجة تأثر هذا الشاعر العربي الصلّاق بيلاعة القرآن أنه هجر الشعر ، وقد قال له عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوما : يا أبا عقيل : أنشدنى شيئا من شعرك ، قرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمنى الله سورة البقرة وآل عمران^(١) .

وأما الحادث الثانى فهو أغرب من الأول ، وهو عن ابن المقفع ، أورده المستشرق (ولاستن) فى كتابه ، وعلق عليه قائلا :

« ... إن اعتداد محمد بالإعجاز الأدبى للقرآن لم يكن على غير أساس ، بل يؤيده حادث وقع بعد قرن من قيام دعوة الإسلام^(٢) » .

والحادث كما جاء عن لسان المستشرق ، هو أن جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعمهم تأثير القرآن الكبير فى عامة الناس ، فقرروا مواجهة تحدى القرآن ، واتصلوا لإتمام ، خطتهم بعبد الله بن المقفع (٧٢٧م) ، وكان أدبيا كبيرا ، وكتابا ذكيا . يعتد بكفاءته قبل الدعوة للقيام بهذه المهمة .. وأخبرهم أن هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة ، واشترط عليهم أن يتكفلوا بكل ما يحتاج إليه خلال هذه المدة ..

ولما مضى على الاتفاق نصف عام ، عادوا إليه ، وبهم تطلع إلى معرفة ما حققه أديهم لمواجهة تحدى رسول الإسلام ، وحين دخلوا غرفة الأديب الفارسي الأصل ، وجدوه جالسا والقلم فى يده ، وهو مستغرق فى تفكير عميق ، وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الأرض ، بينما امتلأت غرفته بأوراق كثيرة ، كتبها ثم مزقها .

لقد حاول هذا الكاتب العبرى أن يذل كل مجهود ، عساه أن يبلغ هدفه ، وهو الرد على تحدى القرآن المجيد .. ولكنه أصيب بإخفاق شديد فى محاولته هذه ، حتى اعترف أمام أصحابه ، والحق والصدق يملكان عليه نفسه ، أنه ، على الرغم من مضى ستة أشهر ، نحاول خلالها أن يجيب على التحدى ، فإنه لم يفلح فى أن يأتى بآية واحدة من طراز القرآن ! وعندئذ نحلى ابن المقفع عن مهمته ، مغلوبا مستخدما ..^(٣)

• • •

(١) أنظر فى هذا الخبر : الشعر والشعراء لابن قتيبة السابق .

(٢) Mohammad : His life & Doctrine, p. 143.

(٣) وردت فى التاريخ أمثلة أخرى حاول أصحابها مواجهة هذا التحدى ، غير أنهم أخفقوا إخفاقا ذريعا ، ومن هؤلاء : مسيلة بن حبيب الكذاب ، وطليحة بن خويلد الأسدي ، والنضر بن الحارث ، وأبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الرواندى ، وأبو الطيب المتنبي ، وأبو العلاء المعرى ، صاحب كتاب « الفصول والنهايات فى مجازة السور والآيات » ، أنظر للتفصيل كتاب الرافعى : إعجاز القرآن - المترجم .

وهكذا لا يزال نحمل القرآن الكريم قائماً ومستمراً على مر القرون والأجيال ، وهي خاصة عظيمة ورائعة في صالح القرآن ، تثبت ، دون مرية ، أنه كلام من هو فوق الطبيعة . وأي إنسان يتمتع بكفاءة التفكير والإيمان ، في حقيقة الأمر ، يكتبه ذلك ليؤمن بهذا الكتاب .

ومما لا شك فيه أن العرب — وهم الذين لم يعرف لهم مثيل في التاريخ ، في البلاغة والبيان ، حتى أطلقوا على غيرهم اسم « العجم » لشدة اعتزازهم ببيانهم — قد اضطروا أن يركعوا أمام القرآن ، معترفين بعجزهم عن الإتيان بمثله ، فزمتهم بذلك الحجة ..

ومما جاء في كتب الحديث عن ابن عباس أن (ضامدا) قدم مكة . وكان من ازد شنومة . وكان يرقى^(١) من هذه الريح (الجنون ومس الجن) . فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن عمداً مجنون . فقال : لو أني رأيت هذا الرجل ، لعل الله يشفيه على يدي . قال : فلقبه ، فقال : يا محمد ! إني أرقى من هذه الريح ، وإن الله يشفي على يدي من شاء ، فهل لك ؟ فقال رسول الله : « إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد . » قال : فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال : فقال : « لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فاسمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر (قعره الأقصى)^(٢) . »

إن هناك عنداً لا يحصى من الاعترافات التي أدلى بها أرباب الشعر والأدب والفكر ، في شأن القرآن الكريم ، سطرت في صفحات التاريخ القديم ، كما أنها توجد بكثرة في تاريخ العصر الحاضر .

(١) من الرقية ، وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة .

(٢) صحيح مسلم ٥٩٢/٢ — حديث رقم ٨٦٨ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي . وبقية الحديث كما في الصحيح : قال : فقال : هات يذك أبايكم على الإسلام ، قال : فبايهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وعلى قومك » ، قال : وعلى قومي . قال : فيمت رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فبروا بقومه ، فقال صاحب السرية لميش : هل أصبتم من هؤلاء شيئاً ؟ فقال رجل من القوم : أصبت منهم مطهرة ، فقال : ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد .

وتفسير (ناعوس البحر) بأنه : قعره الأقصى — منقول عن صحيح مسلم ، من إضافة شارحه ، وهي كلمة غير معروفة من كلام العرب ، قال ابن الأثير في (النهاية في غريب الحديث ٨١/٥) عن أبي موسى : « هكذا وقع في صحيح مسلم ، وفي سائر الروايات : (قاموس البحر) أي : وسطه وبلته . » أقول : ولعلها لمجة ضماد . (المراجع)

ثانياً - نبوءات القرآن :

الجانب الثاني من عظمة القرآن الكريم يتجلى في تنبؤاته المختلفة ، التي ثبتت صحتها فيما بعد بطرق عجيبة .

إن عددا كبيرا من أذكى الناس . ومن العابرة . قد جروا على أن يتنبأوا عن أنفسهم أو عن غيرهم . ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه التنبؤات مطلقا ، بل جاء يكذبها بكل قسوة ، ولقد نحضر القرص المواتية ، والأحوال المساعدة . والكفاهات العالية ، وكثرة الأخوان والأنصار . والتجاذب الخارق في البداية الكثيرين - وهم يرون أنهم يسرون نجاح نتائج مرضية - أن يتنبأوا بنتيجة معينة بكل يقين ، ولكن الزمن يطل هذه الدعاوى ويكذبها دائما . . . والزمن نفسه هو الذي أثبت صحة ما جاء في القرآن من التنبؤات في حين أنها جميعا جاءت في أحوال غير مواتية ، إن هذه التنبؤات - وقد وقعت فعلا على ما يحدثنا التاريخ - تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها . وما دمنا ندرسها في ضوء علومنا المادية . فلن نستطيع إدراك حقائقها ، إلا أن ننسبها إلى مصدر غير بشرى .

. . .

كان نابليون بونابرت من أعظم قواد الجيوش في عصره ، وقد دلت فتوحاته الأولى على أنه سوف يكون ندا لقيصر ، والإسكندر المقدوني . وترتب على ذلك أن وجد الفرور منفذة إلى رأس نابليون ، فأصبح يتوهم أنه هو مالك القدر . وازداد هذا الشعور لديه . حتى إنه ترك مستشاريه ، وادعى أنه لم يكتب في قدره غير الغلبة الكاملة على من في الأرض . ولكننا جميعا نعرف النهاية التي كتبت له في لوح القدر .

سار نابليون من باريس يوم ١٢ من يونيو ، سنة ١٨١٥ ، مع جحظه العظيم ، ليقضي على أعدائه وهم في الطريق . ولم تمض غير ستة أيام حتى ألحق « دوق ولنجتون » شر هزيمة بجيش نابليون الجبار ، في « ووترلو » بأراضي بلجيكا . وكان (الدوق) يقود جنود إنجلترا وألمانيا وهولندا . ولما ينس نابليون ، وأيقن من مصيره المحتوم ، فر هاربا من القيادة الفرنسية متوجها إلى أمريكا ولم يكده يصل إلى الشاطئ ، حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه ، وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية ، وانتهى به القدر إلى أن أرسل إلى جزيرة غير معمورة بمحسوب الأطلنطي ، هي جزيرة « سانت هيلينا » ، ومات القائد العسكري في هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء والوحدة ، في ٥ مايو سنة ١٨٢١ .

. . .

والبيان الشيوعي المعروف : الذي صدر سنة ١٨٤٨ ، تنبأ بأن أول البلاد التي ستفود الثورة الشيوعية هي (ألمانيا) ، ولكن ألمانيا ، على الرغم من مضي مائة وعشرين عاما من هذه النبوءة ، لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة .

ولقد كتب كارل ماركس في مايو سنة ١٨٤٩ قائلاً : « إن الجمهورية الحمراء تبرز في سماء باريس ! » ورغم أنه قد مر على هذه النبوة أكثر من قرن ، فإن شمس الجمهورية الحمراء البازغة لم تشرق على أهالي باريس !

• • •

وقد قال أوتولف هتار في خطابه الشهير الذي ألقاه بميونخ في ١٤ من مارس سنة ١٩٣١ : « إنني سائر في طريق ، واثقاً تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتباً لي (١) » . والعالم بأجمعه يعرف اليوم أن الذي كتب في قدر الجنرال الألماني العظيم كان هو المزيمة والانتحار .

• • •

وقد شاهدنا وقائع عديدة من هذه النبوءات المضحكة في « الهند » . فقد أعلن زعيم الشيوعيين : م . ب . جوشي ، في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الهندي ، الذي انعقد في (مدوراي) بجنوب الهند ، في يناير سنة ١٩٥٤ ، بأن الحزب الشيوعي سوف يحكم ، مستقلاً بنفسه ، في الانتخابات العامة القادمة ، في ولايات : ترانكو - كوتشين (كيرالا) ، ومدراس ، وآندھرا ، والبنغال الغربية ، وآسام . وقد أجريت ثلاثة انتخابات عامة (وانتخابات تكميلية أخرى) في هذه المدة الطويلة ، ولم يستطع الحزب الشيوعي تأليف وزارة مستقلة في أية ولاية من ولايات الهند (٢) .

• • •

وسط هذه الجحافل من المنتبين والنبوءات ، لا نجد غير « القرآن » الذي تحققت نبوءاته حرفاً حرفاً . وهذا الواقع يكفي في ذاته لإثبات أن هذا الكلام صادر من عقل وراء الطبيعة يسلك بزمam الأحوال والحوادث ، وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل إلى الأبد ، وسوف نورد هنا خبرين من النبوءات الكثيرة التي أدلى بها رسول الإسلام ، وتحققت بكاملها . والشاهدان اللتان سنذكرهما ، تتعلق إحداهما بغلبة الإسلام نفسه ، على حين تتعلق بغلبة الروم مرة أخرى . .

• • •

(١) عندما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته وقتت الجزيرة العربية كلها ضده ، وكان على النبي مواجهة ثلاث جبهات في وقت واحد :

(١) A Study of History (Abridgment) p. 447.

(٢) تمكن الحزب الشيوعي من تأليف وزارة ائتلافية في كيرالا في الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧ ، كما تمكنت « الجبهة المتحدة » في البنغال الغربية من تأليف وزارة ائتلافية في الانتخابات التكميلية التي أجريت في الولاية في ١٩٦٩ ، وكان الشيوعيون يتمتعون بالأغلبية في الجبهة المتحدة .
(المترجم)

أولاًها : التباثل المشركة ، بعد أن أصبحوا أعداء حياته .

وثانيها : الرأسمالية اليهودية .

وثالثها : أولئك المناقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم . من داخل معاقلم .

وكان الرسول يجاهد في سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات : قوة المشركين ، والرأسمالية اليهودية ، والطابور الخامس . وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغى وقفات رائعة لا مثيل لها ، ولم يسانده في مواقفه غير حفنة من المهاجرين والأنصار ، وجماعة أسلمت من العبيد . ومما لا شك فيه أنه قد انضم إليه بعض كبار قريش ، ولكن سرعان ما انقطعوا عن أهلهم وذويهم ، وعادتهم قريش كمعاداتها للنبي .

وقد سارت هذه الحركة بمكة قدما ، تكافح وتناضل ، حتى أصبحت الأمور غاية في السوء ، واضطر النبي وأصحابه أن يهاجروا إلى جهات مختلفة ، حتى اجتمع شملهم في المدينة المنورة ، وهم في أشد حالات العوز والفقر ، بعد ما تركوا ثرواتهم في مكة - موطنهم الأصلي . ويمكن قياس بوأس هؤلاء المهاجرين بتلك الجماعة التي عاشت في المسجد النبوي ، حيث لم تكن لديهم بيوت ، وكانوا ينامون على « صفة » في فناء المسجد النبوي ، فأطلق عليهم : « أهل الصفة » . ومما روى في كتب التاريخ أن تعداد هؤلاء الصحابة الكرام ، الذين عاشوا على « الصفة » ، بلغ في بعض الأحيان أربعمئة صحابي .

فمن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب ، فمنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من هو أسفل من ذلك ؛ فإذا ركع أحدهم قبض عليه ، مخافة أن تبدو عورته . .

وعنه (أبي هريرة) رضي الله عنه أنه قال : « لقد رأيتني أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها ، فيقول الناس : إنه مجنون ، وما بي جنون ، ما بي إلا الجوع ! » .

• • •

وفي هذه الحالة البائسة ، حيث كان المسلمون في أسوأ أحوالهم ؛ مكشوفين في عراء المدينة المنورة ، خائفين ، يترقبون الأعداء من كل جانب ، مخافة أن يتخطفهم في أي وقت ؛ في هذه الحالة نجد القرآن يشرهم مرة بعد أخرى :

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلي (١) »

وقال أيضا :

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون (١) » .
ولم تمض على هذه البشرية أيام طويلة ، حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم ؛ فقد انتصرت أقلية ضئيلة لا تملك الخيول ولا الأسلحة ، على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة ، والعدة ، والعتاد .

وليس بوسعنا تفسير هذه التنبؤات في ضوء المصطلحات المادية ، إلا أن نسلم بأن صاحب هذا الإخبار بالغيب لم يأت به من عند نفسه ، وإنما كان خليفة عن الله ، فلو أنه كان إنساناً عادياً لاستحال كل الاستحالة أن تصنع كلماته أقدار التاريخ . وكما قال البروفيسور (ستوبارت) « إنه لا يوجد مثال واحد في التاريخ الإنسانى بأكمله يقارب شخصية محمد . . » . وهو يضيف قائلا :

« ألا . . ما أقل ما امتلكه من الوسائل المادية ، وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة ، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية ، فلن نجد فيه اسماً منيراً هذا النور ، وواضحاً هذا الوضوح ، غير اسم النبي العربى (٢) » .

إن هذا الأمر هو أعظم دليل على كونه صلى الله عليه وسلم مرسلًا من لدن الحق تبارك وتعالى . وقد اعترف السير وليام ميور ، ذلك العدو اللدود للإسلام ، بهذا الأمر بطريقة غير مباشرة ، حين قال :

« لقد دفن محمد مؤامرات أعدائه في التراب ، وكان يثق بانتصاره ليل نهار ، مع حفة من الانتصار والأعوان ، رغم أنه كان مكشوقاً عسكرياً من كل ناحية ، وبعبارة أخرى : كان يعيش في عرين الأسد ، ولكنه أظهر عزيمة جبارة ، لا نجد لها نظيراً غير ما ذكر في الإنجيل ، من أن نبياً قال لله تعالى : « لم يبق من قوى إلا أنا (٣) » ! » .

• • •

(ب) أما النبوة الثانية التى وردت في القرآن ، فهى الإخبار بغلبة الروم على الفرس . وقد جاء في أول سورة الروم قوله تعالى :

(١) الصف / ٨ و ٩ .

(٢) Islam & Its Founder, p. 228 .

(٣) Life of Mohammad, p. 228. — وربما يذكرنا هذا الاقتباس بقول القرآن

حكاية على لسان موسى عليه السلام : « رب إني لا أملك إلا نفسى وأعى — المائة / ٢٥ (المراجع) .

« بسم الله الرحمن الرحيم . ألم - غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين »

كانت الامبراطورية الفارسية تقع شرق الجزيرة العربية ، على الساحل الآخر للخليج العربي ، على حين كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من غربي الجزيرة على ساحل البحر الأحمر إلى ما فوق البحر الأسود . وقد سميت الأولى - أيضاً - بالامبراطورية الساسانية ، والأخرى بالبيزنطية . وكانت حدود الامبراطوريتين تصل إلى القرات ودجلة ، في شمال الجزيرة العربية . وكانتا أقوى حكومتين شهدتهما ذلك العصر .

ويبدأ تاريخ الامبراطورية الرومانية - كما يرى المؤرخ « جين » - في القرن الثاني بعد الميلاد ، وكانت تتمتع حينئذ بمكاتها كأرق دولة حضارية في العالم .

وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم ، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى^(١) . وليس ينبغي كتاب من الكتب التي ألقت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى ، ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ « إدوارد جين » : « تاريخ سقوط وانحجار الامبراطورية الرومانية »^(٢) أكثرها تفصيلاً وثقة ، وقد ذكر المؤرخ في الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا .

• • •

اعتنق الملك « قسطنطين » الدين المسيحي عام ٣٢٥ م ، وجعله ديانة البلاد الرسمية ، فأمنت بها أكثرية رعايا الروم . وعلى الجانب الآخر ، رفض القرس - عباد الشمس - هذه الدعوة .

وكان الملك الذي تولى زمام الامبراطورية الرومانية في أواخر القرن السابع الميلادي هو « موريس » ، وكان ملكاً غافلاً عن شئون البلاد والسياسة ، ونذلت قاد جيشه نوره صده ، بقيادة « فوكاس Phocas . وأصبح فوكاس ملك الروم ، بعد نجاح الثورة ، والقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشية ، وأرسل سفيراً له إلى امبراطور إيران « كسرى أبرويز الثاني » ، وهو ابن « أنوشيروان » العادل .

وكان « كسرى » هذا مخلصاً للملك « موريس » ، إذ كان قد لجأ إليه عام ٥٩٠ - ٥٩١ م ، بسبب مؤامرة داخلية في الامبراطورية الفارسية ، وقد عاونه « موريس » بجنوده لاستعادة العرش . وما يروى أيضاً أن « كسرى » تزوج بنت « موريس » ، أثناء إقامته ببلاد الروم ، ولذلك كان يدعوه « بالأب » .

Western Civilization, p. 210. (١)

The History of the Decline and Fall of the Roman (٢)

Empire, by Edward Gibbon.

ولما عرف بأخبار انقلاب الروم ، غضب غضباً شديداً ، وأمر بسجن السفير الرومى ، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة .

وأغار « كسرى أبرويز » على بلاد الروم ، وزحفت جحافلها عابرة نهر الفرات إلى الشام . ولم يتمكن « فوكاس » من مقاومة جيوش الفرس التي استولت على مدينتي « أنطاكية » والقدس ، فانسحبت حدود الامبراطورية الفارسية فجأة إلى وادى النيل . وكانت بعض الفرق المسيحية — كالنسطورية واليعقوبية — حاقلة على النقام الجديد في روما ، فناصرت الفاتحين الجدد ، وتبعها اليهود ، مما سهل غلبة الفرس .

• • •

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومى في المستعمرات الإفريقية ، يناشدونه إنقاذ الامبراطورية ، فأرسل الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الشاب « هرقل » ، فسار يحيشه في الطريق البحرية ، بسرية تامة . . حتى إن « فوكاس » لم يدر بمجيئهم إلا عندما شاهد الأساطيل ، وهى تقترب من السواحل الرومانية ، واستطاع هرقل — دون مقاومة تذكر — أن يستولى على الامبراطورية ، وقتل « فوكاس » الخائن .

يبد أن هرقل لم يتمكن — برغم استيلائه على الامبراطورية ، وقتله « فوكاس » — من إيقاف طوفان الفرس . . فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد في شرق العاصمة وجنوبها . لم يعد العلم الصليبي يرفرف على العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى ، بل علتها راية الفرس : « درفش كاويانى » ! ! وتقلصت الامبراطورية الرومانية في عاصمتها ، وسدت جميع الطرق في حصار اقتصادى قاس ؛ وعم القحط ، وفشت الأمراض الوبائية ؛ ولم يبق من الامبراطورية غير جذور شجرها العملاق . وكان الشعب في العاصمة خائفاً يتربص ضرب الفرس للعاصمة ، ودخلهم فيها ؛ وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق ، وكسدت التجارة ، وتحولت معاهد العلم والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة .

وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية . . فبدءوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدمة ، ودمروا الكنائس ، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ من المسيحيين المسلمين ، وأقاموا بيوت عبادة النار في كل مكان ، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار ، واغتصبوا الصليب المقدس وأرسلوه إلى « المدائن » .

ويقول المؤرخ « جين » في المجلد الخامس من كتابه :

« ولو كانت نوايا « كسرى » طيبة في حقيقة الأمر ، لكان اصطلاح مع الروم ، بعد قتلهم « فوكاس » ، ولا سيجل « هرقل » كخير صديق أخذ بثأر حليفه وصاحب نعمته « موريس » ، بأحسن طريقة ، ولكنه أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب . » (١)

ويمكن قياس القوة الكبرى التي حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه « كسرى »
إلى « هرقل » ، من بيت المقدس ، قائلا :

« من لدن الإله كسرى ، الذى هو أكبر الآلهة ، وملك الأرض كلها ، إلى عبده اللئيم
الغافل : هرقل : إنك تقول : إنك تتق فى إهلك ! فلماذا لا ينقذ إهلك القدس من يدى ؟ ! » .

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة ، وقرر العودة إلى قصره الواقع
فى « قرطاجنة » على الساحل الإفريقى . . فلم يعد يهمه أن يدافع عن الامبراطورية ، بل كان
شغله الشاغل إنقاذ نفسه . وأرسلت السفن الملكية إلى البحر ، وخرج « هرقل » فى طريقه
ليستقل إحدى هذه السفن إلى منفاه الاختيارى .

وفى هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح ، ونجح فى إقناع
« هرقل » بالبقاء ، وذهب « هرقل » مع الأسقف إلى قربان « سانت صوفيا » يعاهد الله تعالى
على أنه لن يعيش أو يموت إلا مع الشعب الذى اختاره الله له .

وبإشارة من الجنرال الإيرانى سين (Sain) أرسل « هرقل » سفيراً إلى « كسرى » طالباً
منه الصلح ؛ ولكن لم يكده القاصد الرومى يصل إلى القصر ، حتى صاح « كسرى » فى غضب
شديد : « لا أريد هذا القاصد ! وإنما أريد « هرقل » مكبلاً بالأغلال تحت عرشى ؛ ولن
أصالح « الروم » حتى يهجر إلهه ، الصليبي ، ويعبد الشمس إلهتنا ! » (١) .

• • •

وبعد مضى ستة أعوام على الحرب ، رضى الامبراطور الإيرانى أن يصالح « هرقل »
على شروط معينة ، هى أن يدفع ملك الروم :

« ألف تالنت (٢) من الذهب ، وألف تالنت من الفضة ، وألف ثوب (٣) من الحرير ،
وألف جواد ، وألف فتاة عذراء » .

ويصف « جين » هذه الشروط بأنها « مخزية » دون شك ، وكان من الممكن أن يقبلها
« هرقل » ، لولا المدة القصيرة التى أتاحت له لدفعها من المملكة المنهوبة ، والمحدودة الأرجاء ،
ولذلك أثر أن يستعمل هذه الثروة كمحاولة أخيرة ، ضد أعدائه .

• • •

(١) (ص - ٧٦ - ج ٥) .

(٢) Talent ، ميزان يونانى قديم ، حوالى ستة وعشرين كيلو جراماً ، لدى الأثينيين ،
وقد يطلق على كمية النقود الذهبية أو الفضية التى تزنه - المراجع .

(٣) الثوب : ثلاثون متراً من القماش تقريبا - المراجع .

وبينا سيطرت على العاصمتين الفارسية والرومية هذه الأحداث ، فقد سيطرت على شعب العاصمة المركزية في شبه الجزيرة العربية - وهي « مكة » المكرمة - مشكلة مماثلة : كان الفرس مجوساً من عباد الشمس والنار ، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح ، وبالوحي ، وبالرسالة ، وبالله تعالى . وكان المسلمون مع الروم - نفسياً - يرجون ظيهم على الكفار والمشركين ، كما كان كفار مكة مع الفرس ، لكونهم من عباد المظاهر المادية . وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزاً خارجياً للصراع الذي كان يدور بين أهل الإسلام وأهل الشرك في « مكة » . وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجى هي نفس مآل صراعهما الداخلى . فلما انتصر الفرس على الروم عام ٦١٦ م . واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم ، انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين ، قائلين : لقد غلب إخواننا على إخوانكم ، وكذلك سوف نقضى عليكم ، إذا لم تصطلحوا معنا تاركين دينكم الجديد ! ! وكان المسلمون بمكة في أضعف وأسوأ أحوالهم المادية ، وفي تلك الحالة البائسة ، صدرت كلمات من لسان الرسول صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيفلون . في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . - الروم : ١ - ٦ .

وتعليقاً على هذه النبوة يكتب « جين » :

« في ذلك الوقت ، حين تنبأ القرآن بهذه النبوة ، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً ، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة « هرقل » كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية^(١) . »

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لندن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال ، ومن بيده قلوب الناس وأقدارهم ، ولم يكذ جبريل يبشر النبي بهذه البشرى ، حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الإمبراطورية الرومانية ! !

ويرويه « جين » على النحو التالى :

« إنها من أبرز البطولات التاريخية ، تلك التى نراها في « هرقل » . فقد ظهر هذا الإمبراطور غاية في الكسل والتبع بالملفات وعبادة الأوهام في السنين الأولى والأخيرة من حكمته ، كان يبدو كما لو كان مفرجاً أبله ، استسلم لمصائب شعبه ، ولكن الضباب

الذى يسود السماء ساعتى الصباح والمساء ، يغيب حيناً من الوقت لشدة شمس الظهيرة ، وهذا هو ما حدث بالنسبة إلى هرقل ، فقد تحول « أرقادىوس »^(١) القصور « إلى « قصر ميدان الحرب »^(٢) ، فجأة ، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنها ضد الفرس . وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة ، تبياناً لأسرار هذه اليقظة والنوم ، وبعد هذه القرون التى مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة ، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية ، فقد انقطع عن كافة الملذات ، حتى إنه هجر ابنة أخته « مارتينا » - التى تزوجها لشدة هيامه بها ، رغم أنها كانت محرمة عليه^(٣) .

• • •

هرقل - ذلك الملك الغافل الفائد العزيمة - وضع خطة عظيمة لتقهر الفرس ، وبدأ فى تجهيز العدة والعنادر ، ولكن رغم ذلك كله ، عندما خرج هرقل مع جنوده ، بدأ لكثيرين من سكان « القسطنطينية » أنهم يرون آخر جيش فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية .

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضئيلة ، ولذلك أعيد بحريته للإغارة على الفرس من الخلف . وسار يمحوشه عن طريق البحر الأسود إلى « أرمينيا » ، وشن على الفرس هجوماً مفاجئاً فى نفس الميدان الذى هزم فيه الإسكندر جيوش الفرس ، لما زحف على أراضى مصر والشام . ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة المفاجئة ، فلابدوا بالفرار .

وكان الفرس يملكون جيشاً كبيراً فى « آسيا الصغرى » ، ولكن « هرقل » فاجأهم بأساطيله مرة أخرى ، وأنزل بهم هزيمة فادحة ، وبعد إحراز هذا النصر الكبير عاد « هرقل » إلى عاصمته « القسطنطينية » عن طريق البحر ، وعقد مائدة مع الأفاريين (Avars) ، واستطاع بتصرفهم أن يسد سبل الفرس عند عاصمتهم .

وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما شن هرقل ثلاثة حروب أخرى ضد الفرس فى سنوات ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ م . واستطاع أن ينفذ إلى أراضى العراق القديم (ميسوبوتانيا) عن طريق البحر الأسود ، واضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضى الرومية ، نتيجة هذه الحروب ، وأصبح « هرقل » فى مركز يسمح له بالتوغل فى قلب الإمبراطورية

(١) أرقادىوس (٣٧٧ - ٤٠٨ م) ، أحد أباطرة الرومان ، وهو الابن الأكبر لتيودوس الأول ، تولى العرش سنة ٣٩٥ م . واشتهر بالجن - المراجع .
 (٢) قصر أو « سيرا » (١٤٤ - ١٠١ ق . م .) قائد سياسى رومى عظيم .
 (٣) ص - ٧٦ - ٧٧ ، المجلد الخامس .

الفارسية ، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية - تلك الحرب التي خاضها الفريقان في « نينوا » على ضفاف « دجلة » في ديسمبر عام ٦٢٧ م .

• • •

ولما لم يستطع « كسرى أبرويز » مقاومة سيل الروم ، حاول الفرار من قصره الحبيب « دستگرد » ، ولكن ثورة داخلية نشبت في الإمبراطورية ، واعتقله ابنه « شيرويه » وزج به في سجن داخل القصر الملكي ، حيث لقي حتفه ، لسوء الأحوال في اليوم الخامس من اعتقاله ، وقد قتل ابنه « شيرويه » ثماني عشرة من أبناء أبيه (كسرى) أمام عينيه .

ولكن « شيرويه » هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر ، حيث قتله أحد أشقائه ، وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكي ، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم في غضون أربعة أعوام . ولم يكن من الممكن ، أو المعقول في هذه الأحوال السيئة ، أن يواصل الفرس حربيهم ضد الروم . . . فأرسل « قباد الثاني » ابن كسرى أبرويز الثاني يرجو الصلح ، وأعلن تنازله عن الأراضي الرومية ، كما أعاد الصليب المقدس ، ورجع « هرقل » إلى عاصمته « القسطنطينية » في مارس عام ٦٢٨ م ، في احتفال رائع ، حيث كان يمر مركبته أربعة أفيال ، واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير ، خارج العاصمة ، وفي أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون^(١) ! !

• • •

وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم في مدته المقررة ، أي في أقل من عشرين سنين ، كما هو المراد في لغة العرب من كلمة : « بضع » !
وقد أبدى « جين » حيرته وإعجابه بهذه النبوءة ، ولكنه كى يقلل من أهميتها ربطها برسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى « كسرى » .
يقول جين :

« وعندما أتم الإمبراطور الفارسي نصره على الروم وصلته رسالة من مواطن خامل الذكر ، من « مكة » دعاه إلى الإيمان بمحمد ، رسول الله ، ولكنه رفض هذه الدعوة ومزق الرسالة : وعندما بلغ هذا الخبر رسول العرب ، قال : سوف يمزق الله دولته يمزقها ، وسوف يقضي على قوته .

« وعحمد ، الذي جلس في الشرق على حاشية الإمبراطوريتين العظيمتين ، طار فرحا ، محاسن عن تصارع الإمبراطوريتين وقاتلها ، وجروا في إبان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة

أن يتنبأ بأن الغلبة تكون لراية الروم بعد بضع سنين . وفى ذلك الوقت ، حين ساق الرجل هذه النبوءة ، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعا ، لأن الأعوام الاثني عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تشي بنهاية الإمبراطورية الرومانية^(١) .

بيد أن جميع مؤرخى الإسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التى وجهها النبي إلى « كسرى أبرويز » ، لأن تلك الرسالة إنما أرسلت فى العام السابع من الهجرة ، بعد صلح الحديبية ، أى عام ٦٢٨ م ، فى حين أن أية النبوءة المذكورة نزلت بمكة عام ٦١٦ م ، أى قبل الهجرة بوقت طويل ، فيين الحدين فاصل يبلغ اثني عشر عاما^(٢) .

• • •

ثالثاً : القرآن والكشوف الحديثة :

والميزة الثالثة التى سوف أدرسها فى هذا الباب للإبانة عن صدق القرآن وحقيقته : هى أنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة ، لم يتمكن أحد من إثبات أية أخطاء علمية فيه ، ولو أنه كان كلاما بشريا لكان هذا ضربا من المستحيل .

• • •

كانت بعثة لطلبة الصين تدرس بجامعة كاليفورنيا منذ بضع سنين ، وقد ذهب اثنا عشر من هؤلاء الطلبة إلى كاهن « كنيسة بركلى » طالبين منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين المسيحى فى أيام الأحد ، وقالوا له بكل صراحة : إننا غير راغبين فى اعتناق المسيحية ، ولكننا نريد أن نعرف مدى تأثير هذا الدين على الحضارة الأمريكية ، واختار القسيس عالما فى الرياضة والفلك ، هو البروفيسور « بيتر و . ستونر » ، للتدريس لهؤلاء الشبان . وبعد أربعة أشهر من هذا الواقع اعتنقوا الدين المسيحى !

أما الدوافع وراء هذا العمل المدهش ، فلنسمعها من الأستاذ نفسه :

« لقد كان السؤال الأول أماى : ماذا أقول لهم عن الدين ؟ إنهم لا يؤمنون بالإنجيل إطلاقا ، وتدرس الإنجيل على الطريقة التقليدية لن يأتى بقائدة ما ، وفى ذلك الوقت تذكرت أنى أثناء دراستى كنت ألاحظ علاقة كبيرة بين العلوم الحديثة وسفر التكوين فى الإنجيل ، ولذلك رأيت أن أعرض هذا الكلام أمام هذه الجماعة من الشبان .

« وكنا — أنا والطلبة — نعرف بطبيعة الحال أن ما جاء فى هذا الكتاب عن بدء الكون قد كتب قبل آلاف السنين من كشوف العلوم الحديثة عن الأرض والسماء ، وكنا نشعر

(١) المرجع السابق ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(٢) أنظر : Encyclopaedia of Religion and Ethics ، ١٠/١٠٤٠٠٤٠٠ .

كذلك أن أفكار الناس في زمن موسى ستبدو لغواً باطلاً ، لو درسناها في ضوء معلومات العصر الحاضر .

« وقد أمضينا فترة الشتاء كلها ندرس في سفر التكوين ، وكان الطلبة يكتبون الأسئلة حول ما جاء في هذا السفر ، ثم يبحثون عن أجوبتها بكل جهد في مكتبة الجامعة . وعند انتهاء الشتاء أخبرني القسيس أن الطلبة حضروا إليه ليخبروه أنهم يريدون اعتناق المسيحية ، وقد أقرروا أنه ثبت لهم أن الإنجيل كتاب موحى من عند الله^(١) . »

• • •

وعلى سبيل المثال يقول سفر التكوين عن حالة الأرض في بداية الأمر :

« لقد غشى على الأسوار ظلام »^(٢)

وهذا هو أحسن تصوير لحالة التي وجدت في الأرض في ذلك الوقت ، كما عرفناها من العلوم الحديثة ، فكان سطح الأرض حاراً جليداً ، وتبخرت المياه بسبب هذه الحرارة ، ولم يصل النور إلى سطح الأرض ، لأن مياه بخارنا كانت معلقة في صورة سحب كثيفة ، في الفضاء ، وكان ظلام حالك يسود الأرض .

• • •

إننا نؤمن بأن الإنجيل والتوراة من الكتب الإلهية ، مثل القرآن الكريم ، ولذلك توجد فيها قياسات من العلم الإلهي ، ولكن النصوص الأصلية قد ضاعت ، وطراً فارق كبير بين الإنجيل الحقيقي والإنجيل هذا العصر ، بعد مضي ألبى عام حافلة بعمليات الترجمة من لغة إلى أخرى ، ثم بأعمال التحريف البشرى Human Interpolation الذي أصاب النسخة الإلهية أكثر ما أصاب ، على حد تعبير العالم الأمريكي « كريسي موريسون »^(٣) .

ولما كانت هذه الصحائف قد فقدت قيمتها ، نتيجة لما حدث ، فقد أرسل الله تعالى « طبعة جديدة » من كتابه إلى البشر ، وهذا الكتاب هو « القرآن الكريم » وهو يحمل ، من أجل صحته وكماله ، كل الميزات والخصائص التي لا توجد منها سوى لحات في الكتب القديمة .

(١) The Evidence of God, pp. 137-38.

(٢) نقول الترجمة المصرية للتوراة (المنقولة عن اليونانية) : « وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة . » الإصحاح : ١ - (المراجع)

(٣) Man Does not Stand Alone, p. 120. ومن الثابت أن الأناجيل لم تكتب في حياة المسيح ، ولا حتى بعد وفاته بنصف قرن كما أن التوراة آخر ما كتب من عصر السبي البابلي (٥٨٦ - ٥٣٨ ق . م .) (المراجع)

وسوف أستعرض هنا هذه الخاصة دليلاً ثالثاً من أدلتي على صدق القرآن الكريم ،
ولقد أنزل القرآن قبل عصر النهضة ، ولكن أحداً من الناس لم يستطع إبطال شيء مما جاء
به ، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر ، لعد ذلك ضرباً من ضروب الإحالة .

• • •

نزل القرآن في عصر لم يكن الإنسان يعرف فيه عن الطبيعة إلا القليل النادر ، وكانوا
يرون أن الأمطار تنزل من السماء ، وأن الأرض مستوية ، كالفراش ، وأن السماء سقف
الأرض ، وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من القضة مركبة في قبة السماء ، أو أنها قناديل
معلقة في الفضاء ! وكان أهل الهند الأقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرني
« البقرة الأم » ، وهي حين تقوم بنقل الأرض من قرن إلى آخر يحدث زلزال على
البسيطة^(١) . وكان العلماء يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك ، وأن الأرض تدور حولها ، إلى
أن جاء (كوبرنيك) (١٤٧٣/١٥٤٣ م) ، وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس .

• • •

وهكذا تقدم العلم رويداً رويداً ، إلى أن زادت قوة الملاحظة والدراسة لدى الإنسان ،
فكشفت عن أسرار كثيرة . والآن لا نجد جزءاً ما من معلوماتنا عن أجزاء الجسم ، وشعب
العلم المختلفة ، إلا وقد تغيرت نظرتنا إليه كلية ، وثبت بطلان عقائد العصر القديم .

ويدل هذا بكل صراحة على أنه لا وجود لكلام إنسانى تدوم صحته كلياً . . . لأن الإنسان
يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلوم في عصره ، إنه سوف يسرد ما وجدته في زمنه ،
سواء وقع كلامه في دائرة الشعور أو اللاشعور . ولذلك لا نجد كتاباً مضى عليه حين من
الدهر إلا وهو مملوء بالأغلاط والأخطاء من سائر نواحيه ، نظراً إلى الكشوف الجديدة في
كل الميادين .

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية ! فهو حق وصادق
في كل ما قال ، كما كان في القرون الغابرة . ولم يطرأ على مقاله أى تغير رغم مضي قرون
وعصور طويلة . وهذا في نفسه دليل على أن منبعه عقل جبار يحيط بالأزل وبالأبد علماً ،
وهو يعلم سائر الحقائق في صورها النهائية والحقيقية ، ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان
والمكان والأحوال . ولو كان هذا الكلام صادراً عن بشر محدودى النظر والعلم لكان الزمان
قد أبطله منذ عصور عتيقة ، كما يحدث لكل كلام إنسانى في مستقبله .

(١) شاعت هذه العقيدة الخرافية كذلك في أوساط العوام وأشياء المتعلمين في شرقنا العربى ،
وإن كان تيار المعرفة العامة الآن يقضى على مثل هذه الخرافات - (المراجع) .

إن المحور الحقيقي لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية ، فهو بذلك لا يدخل في دائرة أى من علومنا وفنوننا الحديثة . ولكن حيث إنه يخاطب « الإنسان » في حقيقة الأمر ، فهو يمس كل ما هو متعلق بالإنسان ، وهي مسألة دقيقة ، وموقف جد خطير . . لأن المرء حين يكون جاهلاً ، أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما ، ثم يتجرأ ليتكلم عن تلك المشكلة — ولو إجمالاً — فلا بد أن يكبو في حديثه ، وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا علاقة لها بالواقع والحقائق !

وعلى سبيل المثال : قال أرسطو استدلالاً على أسبقية الرجل على المرأة : إن فم المرأة يحوى أسناناً أقل عدداً من أسنان الرجل !! ومن المعروف أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم الأجسام ، بل هو يدل على أن صاحبه جاهل بهذا العلم ، فإن عدد الأسنان سواء لدى الرجل والمرأة . ولكن من المدهش حقاً أن القرآن — حتى فيما يمس أكثر العلوم الحديثة من ناحية أو أخرى — لا يحوى كلمة ما أثبت العلم فيما بعد ، أنها من صنع رجل جاهل بذلك الموضوع ، وهذا يوضح صراحة أنه كلام موجود فوق الطبيعة ، وهو على معرفة تامة بكل شئ على حين لم يكن أحد يعلم شيئاً ، وهو يعلم أيضاً كل ما يبهمه البشر في هذا العصر ، مع تقدم العلوم . .

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التي تدل صراحة على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التي لم نعرف إلا في عصرنا هذا ، وإن كانت إحاطته هذه ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها .

ويجب أن أقول ، تمهيداً لهذا البحث : إن مطابقة كلمات « القرآن » وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث ، فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية في ذلك الموضوع . ولو أن دراسة المستقبل في موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كلياً أو جزئياً فليس هذا بضائر مطلقاً صدق القرآن ، بل معناه أن المفسر أخطأ في محاولته لتفسير إشارة مجملة في القرآن ، ولأنني لعلني بقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحاً لإشارات القرآن ، وأكثر بياناً لمعانيه الكامنة .

• • •

نقسم آيات القرآن :

ونستطيع أن نقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب إلى نوعين :

الأول : ما عرف عنه الإنسان — حتى ذلك العصر — أموراً جانبية وسطحية .

والثاني : ما لم يعرف عنه ذلك الإنسان شيئاً ، مطلقاً .

إن هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية : وكانت معرفتهم هذه ناقصة جداً بالنسبة إلى المعرفة التي أتاحت للإنسان اليوم ، بفضل الاختراعات الحديثة . وقد واجه القرآن في هذا الصدد مشكلة كبرى ، فهو لم يكن كتاباً في العلوم والهندسة ، ولذلك لو أنه كان بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء في القرآن ، ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف الحقيقي من نزول القرآن ، وهو إصلاح العقل الإنسانى وتزكيته . فن إعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم ، قبل كشفه ، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم يستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم ، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث !

• • •

النوع الأول :

(١) ذكر القرآن الكريم قانوناً خاصاً بالماء في سورتين : هما الفرقان والرحمن . وجاء في السورة الأولى :

« وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج . وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا (١) » .

وأما الآية التى وردت في السورة الأخرى فهى تقول :

« مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » .

إن الظاهرة الطبيعية التى يذكرها القرآن في هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور ؛ وهى أنه إذا ما التقي نهران في ممر مائى واحد فاء أحدهما لا يدخل (أى لا يذوب) في الآخر . وهناك ، على سبيل المثال ، نهران يسيران في « تشانغام » بباكستان الشرقية إلى مدينة « أركان » ، في « بورما » ، ويمكن مشاهدة النهرين ، مستقلاً أحدهما عن الآخر ، ويبدو أن خيطاً يمر بينهما ، حداً فاصلاً ، والماء عذب في جانب ، وملح في جانب آخر . وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل ، فاء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث « المد البحرى » ، ولكنهما لا يختطان ، ويبقى الماء عذباً تحت الماء الأجاج . وهكذا شاهدت عند ملتقى نهري الكنج والجامونا ، في مدينة « الله آباد » ، فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما ، ويبدو أن خيطاً فاصلاً يميز أحدهما عن الآخر (٢) .

إن هذه الظاهرة ، كما قلت ، كانت معروفة لدى الإنسان القديم . . ولكننا لم نكشف

(١) الفرقان / ٥٣ .

(٢) الرحمن / ٢٠ - ٢١ .

(٣) وهوما كان يشاهد عند التقاء النيل بالبحر الأبيض ، قبل بناء السد العالى - (المراجع) .

قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين . فقد أكلت المشاهدات والتجارب أن هناك قانوناً ضابطاً للأشياء السائلة ، يسمى « قانون المط السطحي » Surface Tension ، وهو يفصل بين السائلين ، لأن « تجاذب » الجزيئات يختلف من سائل لآخر ، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله . وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون ، الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه : « بينهما برزخ لا يبغيان » . وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء ، كما لم تتعارض مع الملاحظة الحديثة ، ونستطيع ، بكل ثقة ، أن نقول : إن المراد من « البرزخ » إنما هو « المط أو التمدد السطحي » ، الذي يوجد في المائين ، والذي يفصل أحدهما عن الآخر .

ويمكن فهم هذا المط السطحي بمثال بسيط ، وهو : أنك لو ملأت كوباً بالماء ، فإنه لن يفيض إلا إذا ارتفع عن سطح الكوب قدرأ معيناً . . والسبب في ذلك أن « جزيئات » السوائل عندما لا تجد شيئاً متصل به فوق سطح الكوب ، تتحول إلى ما هو تحتها ، وعندئذ توجد « غشاوة مرنة » Elastic Film على سطح الماء ، وهذه الغشاوة هي التي تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة ، وهي غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها إبرة من حديد فلن تغوص ! وهذه الظاهرة هي ما يسمى بالمط السطحي ، الذي يحول دون اختلاط الماء والزيت ، والذي يفصل بين الماء العذب والملح .

• • •

(ب) وجاءت في القرآن بيانات مماثلة ، وعلى سبيل المثال :

« الله الذي رفع السموات ، بغير عمد ترونها »

وهذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم ، فإنه كان يشاهد عالماً كبيراً قائماً بذاته في الفضاء ، مكوناً من الشمس والقمر والنجوم ، ولكنه لم ير لها أية ساريات أو أعمدة ، والرجل الجديد يجد في هذه الآية تفسيراً لمشاهدته ، التي تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد في الفضاء اللانهائي ، بيد أن هنالك « عمداً غير مرئية » ، تمثل في قانون « الجاذبية » Gravitation Pull ، وهي التي تساعد كل هذه الأجرام على البقاء في أمكنتها المحددة .

• • •

(ج) وقد قال القرآن عن الشمس والنجوم :

« وكل في فلك يسبحون »

وكان الإنسان في العصر الغابر يشاهد أن النجوم تتحرك ويتعد عن أمكنتها بعد وقت

معين . ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشهم واستغرابهم ، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوباً جديداً ؛ فليس هنالك تعبير أروع ولا أدق من « السباحة » للدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف !

• • •

(د) وقال القرآن الكريم عن الليل والنهار :

« يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثاً »

إن هذه الآية الكريمة تشرح للإنسان القديم سر مجيئ الليل بعد النهار . . ولكنها تحوى إشارة رائعة إلى دوران الأرض محورياً ، وهو الدوران الذى يعتبر سبب مجيئ الليل والنهار ، طبقاً لمعلوماتنا الحديثة .

وسوف أذكر القراء — هنا — بأن من بين المشاهدات التى أدلى بها رجل الفضاء الروسى « جاجارين » ، بعد دورانه في الفضاء حول الأرض : أنه شاهد « تعاقباً سريعاً » Rapid Succession للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحورى حول الشمس . وهناك بيانات كثيرة جداً من هذا القبيل في القرآن الكريم . .

• • •

النوع الثانى من الآيات :

وأما النوع الثانى من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع ، فلم يعرف عنها الرجل القديم شيئاً مآ على الإطلاق . وقد تناول القرآن تلك الموضوعات ، كاشفاً الغطاء عن أسرار بالغة الأهمية ، ثبت صديقها بعد الدراسات الحديثة ، وسوف أعرض في الصفحات التالية بعض الأمثلة من مختلف فروع العلوم الحديثة .

• • •

أولاً : علم الفلك :

يطرح القرآن الكريم فكرة معينة ومحدودة المعالم حول بداية الكون المادى ونهايته ، وكانت هذه الفكرة غير معروفة لدى الإنسان الجديد قبل قرن من الزمان . . أما الإنسان القديم فلا مجال للقول بأنه كان من الممكن أن يتطرق عقله الصغير إلى هذه الفكرة أو أجزائها ، وجاء العلم الجديد ليشهد على ما جاء في القرآن الكريم .

يعبر القرآن عن بداية الكون على النحو التالي :

« أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما (١) » .

أما عن نهاية الكون ، فهذه يقول :

« يوم نظوى السماء كطلى السجل للكتب » (٢) .

فالكون ، بناء على تفسير هذه الآيات كان منفصلاً ومتناسكاً (الرق : منضم الأجزاء) ، ثم بدأ يتمدد في الفضاء ، ويمكن رغم هذا التمدد تجميعه مرة أخرى في حيز صغير .

وهذه هي الفكرة العلمية الجديدة عن الكون ؛ فقد توصل العلماء ، خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون ، إلى أن « المادة » كانت جامدة وساكنة في أول الأمر ؛ وكانت في صورة غاز ساخن ، كثيف ، متماسك . وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة قبل ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة على الأقل ، فبدأت المادة تتمدد وتباعد أطرافها . ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمراً حتمياً ، لا بد من استمراره ، طبقاً لقوانين الطبيعة ، التي تقول : إن قوة « الجاذبية » في هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجياً بسبب تباعدها (ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة) .

ويعتقد العلماء أن دائرة المادة كانت ١,٠٠٠ مليون سنة ضوئية ، في أول الأمر . وقد أصبحت هذه الدائرة الآن ، كما يقول البروفيسور « إيدنجتون » : عشرة أمثال بالنسبة إلى الدائرة الحقيقية . وهذه العملية من التوسع والامتداد مستمرة دون ما توقف . وكما يقول البروفيسور « إيدنجتون » :

« إن مثال النجوم والخيرات : كتقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط ، وهو ينتفخ باستمرار ؛ وهكذا تباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الذاتية ، في عملية التوسع الكوني (٣) » .

وأما الأمر الآخر ، فقد ثبت لنا صدقه ، كما ورد في القرآن . فكان الإنسان القديم يرى أن النجوم يعتمد بعضها عن بعض رأى العين ؛ ولكننا نراها متفاربة لبعدها المسائل عن الأرض وهي في حقيقة الأمر متباعدة بمسافات قياسية .

ولم يقف الأمر بنا عند هذا الحد ، بل عرفنا أيضاً أن تلك الأجسام والأجرام التي كنا نشاهدها في قديم الزمن ، وكنا نحسبها كاملة وسالمة ، أكثرها يحتوي على فضاء خال .

(١) الأنبياء / ٣٠ .

(٢) السابقة / ١٠٤ .

(٣) The Limitations of Science, p. 20.

وقد عرفنا أن كل جسم مادي يدور حول نظام له ، مثل النظام الشمسي الذي تدور حوله نجوم وسارات كثيرة . ومن أمثله نظام « الذرة » . فنحن نشاهد الفضاء الخالي في « النظام الشمسي » ، ولكننا نعجز عن مشاهدة فضاء « النظام النووي » لصغر حجمه المتناهي . . حتى إنه يستحيل مجرد مشاهدة هذا النظام^(١) . ومعنى ذلك أن كل شيء حتى لو بدا مناسكاً — يحوى حيزاً من الفضاء في داخله . ومثاله : أننا لو جردنا الفضاء أو المكان Space من الذرات المادية في الجسم الإنساني ، ذات الستة الأمتار ، فلن نجد إلا كمية قليلة جداً من المادة ، تكاد تكون متناهية الوجود .

وهكذا يرى علماء الطبيعة الفلكية (Astro-Physicists) أننا لو طوينا كل شيء في الكون بدون أن نترك للفضاء مكاناً ، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفاً من حجم الشمس !! ويمكن قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الإنسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين من السنين الضوئية عن النظام الشمسي .

• • •

٣ — لقد توصل العلماء ، خلال أبحاثهم ، إلى أنه لا بد في المستقبل القريب — وطبقاً لقانون دوران الأجرام السماوية — أن يقترب القمر من الأرض ، حتى ينشق من شدة الجاذبية ، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء^(٢) . وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناء على نفس القانون الذي يحكم المد والجزر في البحار . فالقمر هو أقرب جيراننا في الفضاء ، ولا يبعد عن الأرض غير ٢٤٠,٠٠٠ ميلاً ، وهذا القرب يؤثر على البحار مرتين يومياً ، حيث ترتفع فيها أحياناً أمواج يبلغ طولها ستين متراً ، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصات !!

إن المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماماً لصالح أهل الأرض . ولو نقص هذا الفاصل إلى خمسين ألفاً من الأميال — على سبيل المثال — فسوف يحدث طوفان شديد في البحار ، وسوف تغطي أمواجها أكثر مناطق الأرض المأهولة ، وسوف يفرق كل شيء ، حتى لتحطم الجبال من شدة تموج البحار ، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من وطأة الجاذبية !!

ويرى علماء الفلك أيضاً أن الأرض قد مرت بكل هذه الأدوار أثناء عملية التكوين ، حتى وصلت إلى بعدها الخالي من القمر ، بناء على قانون الفلك ، وهذا القانون هو نفسه سوف يأتي بالقمر قريباً من الأرض مرة أخرى . . ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل

(١) أنظر التفصيلات عن « الذرة » في الباب الرابع من هذا الكتاب .

(٢) Man Does not Stand Alone, p. 24.

بليون سنة^(١) . وعندئذ سوف ينشق القمر ، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض في صورة حلقة .

أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة الواردة في القرآن الكريم ، حول انشقاق القمر : حين تقترب القيامة^(٢) ؟
اقرأوا قوله تعالى :

« اقربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر^(٣) » .

• • •

ثانياً - علم طبقات الأرض :

١ - جاء في القرآن الكريم ، غير مرة ، أن الجبال أرسيت في الأرض حفاظاً على توازنها ، ومن ذلك قوله تعالى :

« وآتوا في الأرض رواى أن نמיד بكم^(٤) » .

ولقد ظل العلم جاهلاً بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية ، ولكن دارسى الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيداً تحت اسم « قانون التوازن » Isostasy . ولا يزال العلم الحديث في مراحل البدايات بالنسبة إلى أسرار هذا القانون ، ويقول الأستاذ إنجلان :

(١) هذا مجرد تمثيل عن الإمكان العلمى ، وحدوده الزمنية . وليس ببعيد أن تقع هذه الظاهرة في وقت أقل مما حدده الفلكيون ، وكلامهم لا ينفى هذا .

(٢) رويت معجزة « انشقاق القمر » في الصحيحين وكتب الحديث الأخرى ، يروايات صحيحة الإسناد ، ومنها ما رواه عبد الله بن مسعود (رضى الله تعالى عنه) ، وهو من الشهود العيان لذلك الحادث الخارق ، وبرغم ذلك لا تزال مسألة « انشقاق القمر » موضع خلاف شديد بين المفسرين والعلماء . فبرى الجمهور أنه قد حدث فعلاً ، « ... وقال بعض المفسرين : سينشق » . كما يرى صاحب التفسير « الكبير » ، ومن القائلين به الإمام الحسن البصرى ، وقد نقل عنه أبو حيان الأندلسى القول التالى : « إن المئى إذا جاءت الساعة انشق القمر بعد النفخة الثانية » . البحر المحيط ، ج - ٨ ، ص - ١٧٣ وهناك فئة ثالثة من العلماء تؤثر « اتوفيق » بين الرأيين ، فهم يرون أن معجزة شق القمر ، التى جاء ذكرها في الأحاديث وقعت أمام جمع من المسلمين والمشرىين « بمنى » في مكة ، المكرمة . ويرى الإمام القزالى والشاه ولى الله الدهلوى أنها وقعت « بتصرف البصر » . ومن الممكن أن تكون قد حدث فعلاً نتيجة انشقاق فلكى . وهكذا ستكون الواقعة الأولى آية أولية للأحداث التى سوف يجرى وقوعها قرب القيامة . وفيها يقول المفسر الهنلى الكبير العلامة شير أحمد الهمانى في تفسيره القرآن :

« لقد كانت معجزة شق القمر مثالا على أن كل شى سينشق هكذا عند اقتراب القيامة » .

(٣) القمر / ١ و ٢ .

(٤) لقمان / ١٠ .

« من المفهوم الآن أن المادة - الأقل وزناً - ارتفعت على سطح الأرض ، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية ، وهي التي نراها الآن في شكل البحار . وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض (١) » .

ويرى عالم آخر من باحثي الجغرافيا :

« وفي البحار ، أيضاً ، توجد وديان مثل وديان البر . ولكن وديان البحر أكثر غوراً وأبعد عمقاً من تلك التي توجد في البر ؛ كما أنها بعيدة عن المجال التجريبي للإنسان . وينبؤ أنه قد حدثت مغارات عميقة في البحار . (ويبلغ عمق بعض هذه الوديان ٣٥ ألف قدم عن سطح البحر ؛ وهذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعاً . ويبلغ من عمق هذه الوديان البحرية أحياناً أنه لو وضعت فيها قبة « إيفرست » ، من سلسلة جبال « الهملايا » ، والتي يبلغ طولها ٢٩,٠٠٢ ، فيكون سطح البحر فوقها بمسافة ميل كامل) !

« ومن الظواهر المغيرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السواحل البرية بدل أن توجد في أعالي البحار . ومن ذا يستطيع أن يعلم قدر ذلكم الضغط الهائل ، الذي أحدث هذه المغارات السحيقة في قاع البحار . ولكن قرب هذه الوديان من الجزر والبراكين يدل على أن هناك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية . . وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق (في أجزائها المختلفة) . ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر في المستقبل . وسببه أن الرواسب والمخلفات لكل من البر والبحر ترسب في هذه الوديان ، وقد سويت مناطق كبيرة من هذه الوديان بعد أن ملأها هذه الرواسب . ولهذا من الممكن - بناء على عدم التوازن الذي يحدث عن هذه العملية - أن تبرز جبال جديدة في أي وقت ، أو تظهر سلسلة جديدة من الجزر ، وبما يؤكد ذلك أنه قد وجدت آثار الرواسب البحرية في بعض الجبال الساحلية .

وعلى كل حال ، لا توجد نظرية - في ضوء المعلومات الحالية للإنسان - لتقوم بتفسير الوديان البحرية ، وهذه المغارات النائمة البرودة ، والتي توجد في ظلام حالك ، وتحت ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصة - لا زال ذلك كله لغزاً أمام الإنسان ، كالأغاز البحر الأخرى (٢) !!

٢ - وقد جاء في القرآن الكريم أنه قد مضى على الأرض زمن طويل سواها الله خلال ،

قال تعالى :

« والأرض بعد ذلك دحاجها . أخرج منها مائها ومرعاها (١) » .

وهذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدثت الكشوف العلمية ؛ وهو : « نظرية تباعد القارات » ، أو انتشارها (Theory of Drifting Continents) . رغبى هذه النظرية : أن جميع القارات كانت في وقت من الأوقات أجزاء متصلة ، ثم انشقت وبدأت « تنفذ » ، أو تنتشر من تلقاء نفسها ، وهكذا وجدت قارات تحول دونها بحار واسعة .

وقد طرحت هذه النظرية في العالم عام ١٩١٥ ، لأول مرة ، حين أعلن خبير طبقات الأرض الألماني الأستاذ « ألفريد واجنر » أنه لو قربت القارات جميعاً ، فسوف تتناسك ببعضها ، كما يحدث في ألعاب الألغاز التي تسمى Jigsaw Puzzle . ويمكن مشاهدتها في الأشكال الثلاثة ، التي تبين هذه النظرية « انظر ص ١٥٠ » .

• • •

وهناك شبه كبير يوجد على سواحل البحار المختلفة ؛ كأن نجد جبالا متائلة عمرها الأرضي (واحد) ؛ وكأن نجد فيها دواب وأسماكاً ونباتات متائلة أيضاً ! وهذا هو ما دفع عالم النباتات البروفيسور رونالد جود (Rand Good) في كتابه : جغرافية نباتات الزهور (Geography of Flowering Plants) — إلى أن تقول :

« لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متائلة في شتلف قارات العالم إلا إذا سلمنا بأن أجزاء الأرض هذه كانت متصلا بعضها ببعض في وقت من الأوقات » .

وقد أصبحت هذه النظرية علمية تماماً بعد تصديق « الجاذبية الحجرية » لها (Fossil Magnetism) ، فإن العلماء اليوم — بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة — يستطيعون تحديد موقع أى بلد وجدت به هضبة تلك الحجارة في الزمن القديم ؛ وقد أكدت هذه الدراسة في « الجاذبية الأرضية » أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة في القديم بالأمكنة التي توجد بها اليوم ، وإنما كانت في ذلك المكان الذي تحدده « نظرية تباعد القارات » ، وفي هذا الأمر يقول البروفيسور بلاكيت (٢) :

« إن دراسة أحجار المندتين أنها كانت توجد في جنوب خط الاستواء قبل سبعين مليون سنة ، وهكذا تثبت دراسة جبال جنوب إفريقيا أن القارة الإفريقية انشقت عن القطب الجنوبي قبل ثلاثمائة مليون سنة (٣) » .

• • •

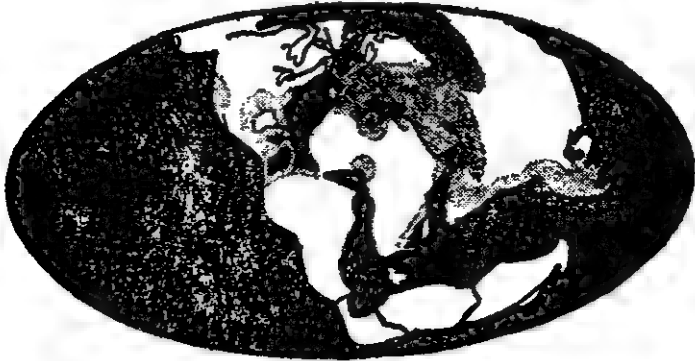
(١) التازعات / ٣٠ - ٣١ .

(٢) P.M.S. Blacket ، أستاذ (الطبيعة) في الكلية الملكية بلندن — المغرب .

(٣) أنظر التفصيل : ويندز دايمجت ، عند يونيه (حزيران) من عام ١٩٦١ .



الشكل الأول : يبين حالة الأرض في بداية أمرها ، قبل ثلاثمائة مليون سنة



الشكل الثاني : يبين حالة الأرض أثناء عملية انتشار وتباعد قاراتها .
وقد بدأت هذه العملية قبل خمسين مليون سنة



الشكل الثالث : يبين حالة الأرض بعد أن استقر أمرها ، قبل مليون سنة

لقد ورد في الآية المذكورة آنفاً لفظة « اللحم » ، ومعناه تسوية الشيء ونثره ، كما يقال : « دحا المطر الحصى عن وجه الأرض » ، وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الإنجليزية : « Drift » التي استخلت في التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة .

لسنا نملك أمام هذا التوافق المدهش بين ما ورد في الماضي البعيد ، وما اكتشف بالأمس القريب - إلا أن نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضي ، والحال ، والمستقبل ، على السواء .

• • •

ثالثاً - علم الأغذية :

إن قائمة الأغذية التي يقررها لنا القرآن الكريم تحرم (الدم) ، وكان الإنسان غافلاً عن أهمية هذا التحريم ، ولكن التحليلات التي أجريت للدم قد أكدت أن هذا القانون كان مبنيًا على أهمية خاصة بالنسبة إلى الصحة . فالتحليل يثبت أن (الدم) يحتوي كمية كبيرة من « حمض البولييك » Uric Acid ، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاء . وهذا هو السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها القرآن في ذبح الحيوانات . والمراد من « الذبح » في المصطلح الإسلامي هو الذبح بطريقة معينة حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان ، وهي أن تقطع الوريد الرئيسي . الذي يوجد في العنق ، فقط . وأن تمتنع عن قطع الأوردة الأخرى ، حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان ، لكيلا يكون سبب الموت الصدمة العنيفة التي وجهت إلى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية ، كاللماغ ، أو القلب ، أو الكبد ، والمقصود من هذا هو أن الدماء تتجمد في العروق ، وتسرى إلى أجزاء الجسم ، لومات الحيوان في الحال - على إثر صدمة عنيفة - وهكذا يتسم اللحم كله ، نتيجة سريان « حمض البولييك » في أنحائه .

ولقد حرم القرآن لحماً (الخنزير) ، ولم يعرف الإنسان في الماضي شيئاً عن أسرار هذا التحريم ، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضاً كثيرة ، لأنه يحتوي أكبر كمية من « حمض البولييك » بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض ، أما الحيوانات الأخرى ، غير الخنزير ، فهي تفرز هذه المادة بصقة مستمرة عن طريق البول . وجسم الإنسان يفرز ٩٠٪ من هذه المادة بمساعدة (الكليتين) . ولكن الخنزير لا يتمكن من إخراج « حمض البولييك » إلا بنسبة اثنين في المائة (٢٪) ، والكمية الباقية تصبح جزءاً من لحمه . ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل ، والذين يأكلون لحمه ، هم الآخرون ، يشكون من آلام المفاصل ، والروماتيزم (١) ،

(١) ليكن مفهومنا هنا أنه عند وصف تأثير أي غذاء ، لا يمكن إلا بيان تأثيره الذاتي من المنافع والمضار ، وليس مناه أن تأثير ذلك الغذاء سوف يكون واحداً لدى كل إنسان يأكله . والسبب في ذلك أن الإنسان لا يأكل شيئاً بمفرده ، وإنما يتعلمه مع مأكولات من أنواع عديدة ، ولذلك قد ينقص تأثير ذلك الغذاء ، أو يزداد في بعض الأحيان ، نتيجة ردود الفعل والأغذية المضادة لتأثير ذلك الغذاء ، وعلى رغم ذلك كله فلا يمكننا وصف تأثير أي شيء إلا بما عرف عنه بصفته الفردية .

وما إلى ذلك من الأمراض المماثلة^(١).

• • •

إن الباحث في القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها من هذا القبيل الذي أشرنا إلى بعضه في الصفحات الماضية ، وهي دليل قطعي على أن القرآن صادر عن عقل غير إنساني . وتؤكد البحوث التي اضطلع بها العلماء في العصر الحاضر بطريقة مدهشة صدق تكلم النبوة ، التي وردت في القرآن الكريم :

« سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق^(٢) » .

• • •

وسوف أختتم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشرقي ، وهو يقول :

« كان ذلك يوم أحد ، من أيام سنة ١٩٠٩ ، وكانت السماء تمطر بغزارة ، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما ، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جيتز - الأستاذ بجامعة كبريدج - ذاهبا إلى الكنيسة ، والإنجيل والشمسية تحت إبطه ، فدنوت منه ، وسلمت عليه ، فلم يرد علي ، فسلمت عليه مرة أخرى ، فسألني : « ماذا تريد مني ؟ » فقلت له : « أمرين ، ياسيدي ! الأول هو : أن شمسيك تحت إبطك رغم شدة المطر ! فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور . فقلت له : « وأما الأمر الآخر فهو : ما الذي يدفع رجلا ذائع الصيت في العالم - مثلك - أن يتوجه إلى الكنيسة ؟ » وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ، ثم قال : « عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عتدي » . وعندما وصلت إلى داره في المساء ، خرجت « لبيدي جيمس » في تمام الساعة الرابعة ، بالضيبط ، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرنني . وعندما دخلت عليه في غرفته ، وجلت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي . وكان البروفيسور منهمكا في أفكاره . وعندما شعر بوجودي ، سألني : « ماذا كان سؤالك ؟ » ، ودون أن ينتظر ردي ، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ، ونظامها المدهش ، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية ، وطرقها ، وملارئاتها وجاذبيتها ، وطوفان أنوارها الملتهلة ، حتى إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله . وأما (السير جيمس)

(١) لعل العلة الأخرى في تحريم الخنزير أساساً أنه حيوان قذر ، يأكل للنجاسات ، فإل جانب التحريم القطعي النصي له ، يمكن أن نلاحظ فيه علة تحريم (الجلالة) التي تأكل النجاسة ، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكلها أو شرب ألبانها . أنظر : بداية المجتهد لابن رشد - ٤٨١/٢ (المراجع) .

(٢) فصلت / ٥٣ .

فوجدت شعر رأسه قائماً ، والدموع تنهمر من عينيه ، ويداه ترتعدان من خشية الله ، وتوقف فجأة . ثم بدأ يقول : « يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي ، وعندما أركع أمام الله وأقول له : « إنك لعظيم ! » أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء ، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين . وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة ، أفهمت ، يا عناية الله خان ، لماذا أذهب إلى الكنيسة ؟ » .

ويضيف العلامة عناية الله قائلا : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانا في عقل ، وقلت له : « ياسيدي لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التي رويتها لي ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس ، فلومحتم لي ، لقرأتها عليكم ، فhez رأسه قائلا : « بكل سرور » ، فقرأت عليه الآية التالية :

« ومن الجبال جلد يبيض وحممر ، مختلف ألوانها وغرايب سود . ومن الناس والنباب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء » .. (١)

فصرخ السير جيمس قائلا :

ماذا قلت ؟ - إنما يخشى الله من عباده العلماء ؟ ! مدعش ! وغريب ، وعجيب جدا ! ! إن الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة ، من أنبا محمدا به ؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله .

ويستطرد السير جيمس جيزر قائلا :

لقد كان محمد أميا ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ، ولكن « الله » هو الذي أخبره بهذا السر .. مدعش .. ! وغريب ، وعجيب جدا (٢) ! !

(١) فاطر ٥٣ .

(٢) مجلة «نقوش» الباكستانية ، العدد الخاص بالشخصيات العالمية ، شخصية (المرحوم - العلامة عناية الله المشرق ص - ١٢٠٨ - ٩) .

- والعلامة « المشرق » هذا من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات ، ويتمتع بشهرة كبيرة في الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة ، وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية ، غير أنه ترك الميدان العلمي ، فخاض غمار السياسة نظراً لسهو حالة المسلمين في الهند (كان ذلك قبل الاستقلال) فأسس « حزب الخدام الإلهيين » Khaaksar Party ، وكان رجاله (المتطرفون) يؤمنون بوجوب إقامة الفرائض الدينية بالقوة ، واتخذوا من « الممول » شعاراً لحركتهم . ومن أهم مؤلفات العلامة : « التكلية » (لرسالة الإسلام) ! ، وقد طلبت منه « لجنة جائزة نوبل » أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية لإعطائه جائزة العلم ، ولكن العلامة رفض الفكرة بشدة قائلا :

« لست في حاجة إلى جائزة لا تتمرّف لجنّتها باللغة الأردية العظيمة ! » - العرب .

الباب الثامن

الدين ومشكلات الحضارة

التشريع

السؤال الأساسي الذي يفرض نفسه عند البحث في المشكلات الحضارية يكون دائماً عن التشريع أو الدستور . فهذه المشكلات تنشأ عن علاقة الفرد بغيره ؛ والتشريع هو الذي يحدد هذه العلاقة على أساس من العدل والإنصاف . ولكن من المذهل أن أقول : إن الإنسان لم يفلح إلى الآن في الكشف عن دستور حياته ! صحيح أن جميع الدول في العالم قائمة على أسس الدستور ؛ ولكن هذه الدساتير محفقة تماماً في الوصول إلى أهدافها ، بل لا يوجد هناك ما يسوغ وجود هذه الدساتير سوى أنها تنفذ بالقوة والإجبار .

ومن الحقائق المعروفة لرجال القانون أن جميع الدساتير الرائجة في هذا العصر تفقد أية أسس علمية أو نظرية تميز بقاءها . ويرى الأستاذ « فولر » L.L. Fuller أن « القانون لم يكشف عن نفسه بعد ! » . . . وفولر هذا هو الذي وضع كتاباً أسماه : « القانون يبحث عن نفسه The Law in Quest of Itself » .

• • •

وقد وضعت كتب لا حصر لها حول هذا الموضوع بالذات ، وبذلت عقول جبارة من علمائنا أوقاتها في سبيل البحث عن مقومات القانون . وكما يرى محرر « موسوعة تشامبرز » : « لقد أعطى القانون أهمية علم هام ، حتى رفع من شأنه إلى أقصى الحدود » . ولكن كل هذه الجهود لم توفق في الحصول على صورة متفق عليها من القانون . وقد تشعبت بهم السبل ، حتى قال خير في التشريع : « لو طلبت من عشرة خبراء أن يعرفوا القانون ، فعليك أن تستعد لسماع أحد عشر جواباً ! »

وقد انقسم خبراء التشريع إلى مدارس فكرية كثيرة ، ولكننا - رغم تعدد هذه المدارس - قد لا نجد لبعض كبار علماء القانون فيها مكاناً ! يقول البروفيسور

« باتون G.W. Paton » عن « جون آستين » : « إنه لا يصلح لأى من الأقسام العريضة Broad Divisions للقانون (١) » :

وأما السبب وراء هذا الاختلاف بين خبراء التشريع ، فهو عدم توصلهم إلى أساس صحيح يمكن إقامة صرح التشريع عليه . إنهم يحدون أن القيم التى يحاولون جمعها فى هيكل الدستور يستحيل وضعها فى ميزان واحد . ومثل رجل القانون فى محاولته هذه كمثل الرجل الذى يزن مجموعة من الضفادع بمجموعة أخرى مماثلة ، فكلما وضع مجموعة فى كفة وجد أن ضفادع الكفة الثانية قد وثبت إلى الماء مرة أخرى !!

ومن ثم باءت كل الجهود - التى استهدفت الحصول على الدستور المثالى - بالفشل الذريع . ويعبر الأستاذ « و. فريدمان » عن هذه المشكلة قائلاً :

« .. وإنها لحقيقة : أن الحضارة الغربية لم تجد حلاً لهذه المشكلة غير أن تنزلق من وقت لآخر ، من نهاية إلى نهاية أخرى (٢) ! »

• • •

وقد لاحظ « جون آستين » أن الدستور - أى دستور - لا يصبح نافذ المفعول إلا إذا كانت نسله قوة من ورائه ، فعرف « القانون » فى كتابه ، الذى نشر لأول مرة عام ١٨٦١ ، على النحو التالى :

« القانون هو الحكم الذى أصله « رجل رفيع المزية سياسياً لمن هو أدنى منه فى المرتبة السياسية (٣) » .

وقد أصبح التشريع بناء على هذا التعريف « مرسوماً لصاحب السيادة (٤) » ! وللتلك شن المحدثون من العلماء حملة شديدة على هذه الفكرة ، وقالوا : إنه لا يمكن منع انحرافات الحكام إلا إذا كان « رضا الشعب العام » دعامة أساسية فى التشريع . . وأنكروا أى قانون أو دستور لا يبرز رضا الجماهير ، وترتب على ذلك أن ضوابط كثيرة ، يجمع على صحتها وإفادتها جميع أهل العلم ومعلمى الأخلاق - لا يمكن تنفيذها ، لأن الشعب لا يوافق عليها . وعلى صيل المثال لم يتمكن الأمريكيون من إدخال مشروع قرار يحرم الخمر ، لأن الشعب لم يرض عنه . . كما اضطر البريطانيون إلى إدخال تعديلات هامة فى قانون عقوبة القتل ،

A Text Book of Jurisprudence, 1905, p. 5, (١)

W. Friedman, Legal Theory, p. 18. (٢)

A Text Book of Jurisprudence, p. 56. (٣)

(٤) المرجع السابق - ص - ٤ .

واضطروا إلى إباحة أنواع محرمة من العلاقات الجنسية ، على الرغم من ضجيج المثقفين ،
واحتراج علماء القانون !

• • •

وهناك مسألة أخرى اختلف حولها علماء القانون : هل القانون قابل للتغير أو لا ؟
لقد لقيت نظرية « القانون الطبيعي » رواجاً كبيراً في القرون الوسطى ، وفي العصور
التي تلتها ، ومؤداها أن الطبيعة البشرية هي المصدر الحقيقي للتشريع :
« فالطبيعة تطالب أن يكون حق السيطرة والحكومة المطالبها الطبيعية ودعائها الرائدة .
وقد أعطت الطبيعة هذه الدعائم للإنسان في صورة « العقل » ، ولذلك لا بد من إقامة حكومة
بقوة العقل (١) » .

وقد أعطت هذه النظرية أساساً كونياً للمشرعين ، فقيل : إنه لا بد من دستور موحد
صالح لكل العصور . وهذه هي نظرية علماء القرنين السابع والثامن عشر حول القانون .
ثم جاءت مدرسة أخرى ادعت استحالة معرفة الأسس الكونية للمستور . ويقول (كوهلير)
في هذا :

« ليس هناك دستور أبدي ، وأى تشريع يصلح لعصر ما ليس - بالضرورة - صالحاً لعصر
آخر . وليس لنا إلا أن نجهد أنفسنا في البحث عن دستور يلائم كل حضارة ، على حدة .
فقد يكون دستور ما خيراً لطائفة من الناس ، ثم يسبب هلاك طائفة أخرى (٢) » .
وقد قضت أفكار هذه المدرسة الأخيرة على تحكم القانون واستقراره ، فهي تدعو
الإنسان إلى فكرة التغير العمياء ، والنسبية Relativism ، وهي لن تنتهي إلى حد ما : حيث
إنها تفتقر إلى الأساس . وقد قلبت هذه الفكرة جميع القيم الإنسانية رأساً على عقب .

• • •

وهناك مدرسة أخرى تدعو إلى إحراز أكبر قدر من مقومات العدل في التشريع .
ويكتب « اللورد رايت » Lord Wright معلناً على فكرة « دين راسكو باوند » :
« إن راسكو باوند يدعو إلى فكرة - اطمأنت إلى صدقها بعد جميع تجاربي ودراستي
في القانون - وهي أن الهدف الأساسي والابتدائي للتشريع هو « البحث عن العدل (٣) » .

Boden Liener, Jurisprudence, p. 164. (١)

Philosophy of Law, p. 5. (٢)

Interpretation of Modern Legal Philosophies, (٣)

N.Y. 1947, p. 794.

فلذا سلمنا بهذه النظرية واجهنا سؤالاً هاماً هو : « ما العمل ؟ » ، وكيف يمكن تعيينه ؟ ، وهكذا مرة أخرى ، نرجع إلى « جون آستين » !

ومرة أخرى نقف أمام ظاهرة أن الإنسان لن يستطيع الكشف عن أساس واقعي للتشريع ، رغم الجهود الجبارة التي بذلت في هذا الحقل منذ مئات السنين ، ويزداد يوماً بعد يوم شعور بالمرارة وخيبة الأمل بين رجال التشريع ، لأن الفلسفة الحديثة قد فشلت في بحثها عن أهداف الدستور .

ويتساءل البروفيسور جورج وهيتكروم و باتون قائلاً :

« ما (المصالح) التي لابد للدستور المثالي أن يحافظ عليها ؟ إنه سؤال يتعلق « بالقيم » ، ويدخل في دائرة فلسفة التشريع . وما أكثر ما نرجو من الفلسفة أن تساعدنا ، ولكن ما أقل ما هي مستعدة لبذله في هذه السبيل . فقد فشلنا في الكشف عن « ميزان القيم » يمكن قبوله لدى جميع الأطراف .

والحقيقة أنه ليس هناك من أساس لشيء من النظم إلا للدين ، ولكن الحقائق الدينية تصلح كعقيدة ووجدان ، ولا يمكن قبولها على أساس الاستدلال المنطقي (١) .

وقد نقل البروفيسور « باتون » رأياً لبعض علماء التشريع — يقول : إن جميع محاولات الدراسة الفلسفية للبحث عن « الأهداف » في فلسفة التشريع قد انتهت إلى غير ما نتيجة (٢) . ويتساءل « باتون » : « هناك حقاً » قيم مثالية « تحدد الأسس عند تطوير التشريعات ؟ لم يتمكن المشرعون من التوصل إلى هذه القيم حتى الآن ، غير أنها لابد منها » . ويستطرد قائلاً :

« لقد استخرج أصحاب نظرية (القانون الطبيعي) القديمة أسسهم من الحقائق الإلهامية في الدين . ولكن إذا ما أردنا نحن أن تأتي بتشريع علماني ، فأين سنجد أساس القيم المتفق عليها (٣) ؟ »

وهذه التجربة المريرة تدعو الإنسان للعودة إلى الجهة التي انحرف عنها منذ قرون . فقد كان الدين يسهم إسهاماً فعالاً في وضع دساتير الزمن القديم . . ويرى خبير القانون المعروف السير هنري مين : أنه « لا يوجد مثال واحد في القوانين ، التي تم تسجيلها كتابة ، من قانون الصين إلى بيرو ، إلا وكان ذا علاقة بالطقوس الدينية والمبادئ منذ بداية أمره (٤) » .

• • •

(١) A Text Book of Jurisprudence, p. 104.

(٢) المصدر السابق : ص - ١٠٦ .

(٣) المصدر السابق - ١٠٩ .

(٤) Sir Henry Maine, Early Law & Custom, p. 5.

لقد آن الأوان أن نعترف بالحقيقة القائلة : بأن البشر لا يستطيعون وضع دستور لهم بدون هدى الله . وبدلاً من المضي في الجهود التي لا تأتي بنتائج مشمرة ، علينا أن نعترف بالواقع الذي يدعونا إليه « الدكتور فرويلمان » ، حين يقول :

« يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة أنه لا بد من هداية الدين لتقييم المعيار الحقيقي للعدل . والأساس الذي يحمله الدين لإعطاء العدل صورة عملية يتفرد هو به في حقيقته وبساطته^(١) . »

إننا نجد في الدين جميع الأسس اللازمة التي يبحث عنها المشرعون لصياغة دستور مثالي ، ولكي يتضح صدق ما نقوله ، نأتي بالدراسة الوجيزة التالية في أهم مشكلات التشريع الإنساني :

أولاً - مصدر التشريع

وأول الأسئلة وأهمها بالنسبة لأي تشريع هو البحث عن مصدر هذا التشريع : من الذي يضعه ! ومن ذا يعتمد عليه حتى يصبح نافذ المفعول ؟

لم يصل خبراء التشريع إلى إجابة عن هذا السؤال حتى الآن . ولو أننا خولنا هذا الامتياز للحاكم ، مجرد كونه حاكماً ، فليس هناك أساس نظري وعلمي يميز تمتعه - هو أو شركاؤه في الحكم - بذلك الامتياز ، ثم إن هذا التحويل من ناحية أخرى لا يجدي نفعاً ، فإن إطلاق أيدي الحكام ليصدروا أي شيء لتنفيذه بوسيلة القوقـأمر لا تطبقه ولا تحمله الجماهير .

ولو أننا خولنا سلطة التشريع لرجال المجتمع ، فهم أكثر جهالة وحمقاً ؛ لأن المجتمع - أي مجتمع - إذا نظرنا إليه ككل ، لا يتمتع بالعلم والعقل والتجربة ، وهي أمور لا بد منها عند التشريع . فهذا العمل يتطلب مهارة فائقة وعلماً وخبرة ، وهو ما لا تستطيع العامة من الجماهير الحصول عليه ؛ كما أنها ، وإن أرادت ، لن تجد الوقت الكافي للدراسة المشكلات القانونية وفهمها .

ولنفرج من هذه المشكلة توصل رجال القانون إلى حل وسط ، وهو أن يقوم (البالغون) من أفراد المجتمع بانتخاب ممثلين لهم ، وهؤلاء بدورهم يصدرون التشريعات باسم الشعب .

ومن الممكن أن ندرك حماقة هذا الحل الوسط ، حين نجد أن حزباً سياسياً لا يتمتع إلا بأغلبية ٥١٪ من مقاعد البرلمان يحكم على حزب الأقلية ، الذي يمثل ٤٩٪ من أفراد المجتمع البالغين . والأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل إن هذا الحل يحتوي على فراغ كبير جداً تفقد

منه « أقلية » لتحكم على أغلبية السكان . وعلى سبيل المثال ، فإن الحكومة التي تحكم الهند الآن ، قد وصلت إلى مقاليد الحكم عن طريق الانتخابات العامة الخمسية الثالثة ، التي أجريت في البلاد عام ١٩٦٢ . وقد فاز حزب « المؤتمر القوى » بنسبة ٧٠٪ من مقاعد البرلمان ، في حين أن نواب هذا الحزب لم يحصلوا إلا على ٤٠٪ من أصوات الشعب ، في الانتخابات . وهذا هو ما حدث في الانتخابات الخمسية الأولى والثانية ، التي أجريت قبل سنة ١٩٦٢ (١) ، وحصل حزب المؤتمر في كليهما على أقل من ٥٠٪ من مجموع الأصوات ! ولكنه رغم ذلك كان له الحق في تشكيل الحكومة ، لأن أصوات الناخبين الأخرى كانت موزعة بين نواب الأحزاب (المعارضة) . ولم تكن بطولة حزب المؤتمر إلا في أنه أحرز أصواتاً أكثر من أى حزب آخر « على حدة » !

ولا أستثنى من هذه القاعدة إلا الانتخابات المزعومة ، التي تجري في الدول الشيوعية ، فيفوز زعمائها بأرقام خيالية للأصوات !

وهكذا نقف مرة أخرى أمام ظاهرة البحث عن أساس القانون ومصدره . والذين يستجيب لهذا التحدى الخطير ، الذى قد يلعب سعادة البشرية كلها . إنه يقول : إن مصدر « التشريع » هو « الله » وحده ، خالق الأرض والكون ، فالذى أحكم قوانين

(١) أجريت الانتخابات العامة الأولى والثانية في عامى ١٩٥١ - ٥٢ ، وعام ١٩٥٧ ، كما أن الانتخابات العامة الرابعة أجريت في عام ١٩٦٧ ، أى بعد صدور هذا الكتاب ، وفي هذه الانتخابات « فقد المؤتمر ، لأول مرة في تاريخه ثمانى ولايات : غلبت فيها أحزاب أو مجموعة نيابية ائتلافية . وقد سبق في انتخابات سنة ١٩٦٢ (و ١٩٥٧) أن ألف الشيوعيون حكومة ائتلافية بالاستمانة ببعض الأحزاب السياسية في ولاية (كيرالا) . أما في انتخابات ١٩٦٧ فقد انهزم حزب المؤتمر هزيمة فادحة في ولايات : كيرالا ، ومدراس ، وأوريسا ، وبيهار ، كما لم يتمكن من إحراز أكرثية مطلقة (تمكنه من تأليف الوزارة) في ولايات : البنغال الغربية ، وأوتار براديش ، وراجستان وبنجاب . »

ومعناه : أن حزب المؤتمر فقد الحكم على نصف الولايات (البالغ عددها ست عشرة ولاية) ، ورغم ذلك تمكن هذا الحزب من تشكيل الحكومة الاتحادية (المركزية) ، لأن نوابه « الذين أحرزوا هذه المرة أقل من نصف مقاعد البرلمان ! » يمثلون الأغلبية بالنسبة إلى عشرات من الأحزاب الأخرى المتنازعة فيما بينها على المصالح والمناقشات الفقهية المقيمة ! ولو اتفقت هذه الأحزاب فيما بينها فكونت جبهة نيابية ائتلافية (كما فعله بعض الأحزاب في الولايات الإقليمية) لاحتلت مقاعد الحكم ولاضطر نواب حزب المؤتمر إلى الجلوس في مقاعد « المعارضة » !

ويتضح من هذا جلياً : « كيف تنفذ أقلية في الفراغ المستوى الموجود في تشريماتنا فتحكم على الأغلبية ! » -المرب .

الطبيعة هو وحده الذى يلقى أن يضع دستور حضارة الإنسان ومعيشته . وليس هناك من أحد غيره سبحانه ، يمكن تحريكه هذا الحق .

إن هذا الجواب معقول وبسيط للدرجة أنه يصرخ قائلاً ، لو استطعنا أن نسمع ندائه : هل هناك أحد غير الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يسوى هذه المشكلة المصيرية ؟

لقد وصلت بنا هذه الإجابة إلى مكانها الحقيقى من التشريع والمشرع ؛ بعد أن استحال علينا المضي خطوة ما فى ظلام الضلالة عن الهدى الحقيقى .

إنه لا يمكن قبول إنسان حاكماً ومشرعاً للإنسان ؛ ولا يتمتع بهذا الحق إلا خالق الإنسان ، وحاكمه الطبيعي : الله

ثانياً — العناصر الأساسية للتشريع

ومن أهم الأسئلة لدى علماء القانون تحديد عناصر التشريع . . هل هى كلها إضافية ، أو أن هناك عنصراً أو عناصر أساسية لا يمكن الاستغناء عنها فى أى دستور عند تعديله ، أو تجديده ، أو تغييره ؟ . .

لم يستطع خبراء التشريع الوصول إلى اتفاق فى هذا الصدد ، رغم البحوث الطويلة التى أجريت فى هذا الباب . وهم يسلّمون ، نظرياً ، بأنه لا بد من عنصر فى التشريع يتمتع بالدوام والأبدية ، مع عناصر أخرى تتصف بالمرور ، فيمكن الاستغناء عنها عند الضرورة . ويرون أيضاً أن افتقار الدستور إلى أحد العنصرين : « الأبدى والإضافى » سوف يكون مصدر شقاء دائم للبشرية . وقد عبر عن هذه الحالة أحد قضاة الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو القاضى كاردوزو Cardozo على النحو اتالى :

« من أهم ما يحتاج إليه التشريع اليوم : أن نصوغ له فلسفة للتوفيق بين الرغبات المتحاربة حول ثبات عنصر ، وتغير عنصر آخر^(١) . »

ويقول خير آخر فى شئون القانون ، وهو البروفيسور «راسكو باوند» :

« لا بد من عنصر التحكم فى التشريع ، ولكن هذا لا يعنى أن يصبح التشريع جامداً . والملك بدل الفلاسفة قصارى جهودهم للتوفيق بين مقومات التحكم والتغير فى هذا المجال^(٢) . »

والحق أنه لا يمكن التوصل إلى أساس يميز بين عناصر القانون الذى وضعه الإنسان ، بعضها وبعض ، فكل عنصر يدعى أنه صالح للدوام يلزمه أن يقدم دليلاً على ذلك ؛ وهو

عاجز تماماً عن الإتيان بذلك الليل ، فقد نرى اليوم عنصراً من الدستور صالحاً للدوام ، ثم يأتي رجال الغد يعلنون الاستغناء عن ذلك العنصر من دستورهم ، ما دام الدستور يصاغ بناء على رغبات الشعب ، فقد لا يعجبهم ذلك ، أو يرونه قد فقد صلاحيته بمضي الزمن

• • •

أما الحل الوحيد لمشكلتنا فهو « الشرع الإلهي » الذي يمنحنا جميع العناصر الأساسية الضرورية ، فهذا الشرع يضع جوانب أساسية جنسية ، ثم يترك الباقي مفتوحاً للاجتهادات المختلفة ، بحسب الزمان والمكان .

إنه يحدد العناصر الأساسية وغير الأساسية بالنسبة إلى دستور ما . ثم هو إلى جانب ذلك يتصف ويتمتع بدليل الترجيح والتفضيل لصالحه ، حيث إنه من عند الله سبحانه وتعالى ومن ثم لا بد لنا أن نعتبره حقاً ، وأن نمتدده الكلام الأخير في الموضوع ، الذي لا كلام بعده . وتلك ميزة هامة في التشريع الإلهي ، لا يستطيع الإنسان أن يأتي ببديل عنها .

• • •

ثالثاً — تحديد مفهوم الجريمة

وبما لا بد أن يتوفر لأي دستور أن يكون لديه ذنب معقول يستند إليه ، لاعتبار عمل ما « جريمة » . ويقول الدستور الذي وضعه الإنسان : إن الجريمة هي : « كل عمل يضر بالأمن العام ، أو نظام الحكم القائم » ، والتشريع الإنساني لا يحد أساساً غير هذا لاعتبار عمل ما جريمة . وقد دفع هذا الأساس القانون الجديد إلى إقرار أن جريمة « الزنا » ليست بجريمة ، إلا إذا تمت جبراً أو إكراهاً لأحد الطرفين . فالقانون الجديد لا يعتبر « الزنا » جريمة ، وإنما الجريمة الحقيقية عنده هي الجبر والإكراه الذي سبق « الزنا » .

إن الاستيلاء على أموال أحد المواطنين حرام ، وكذلك إهانة عصمتهم والنيل من عفتهم . ولكن أموال إنسان من الناس تصبح مباحة لرجل آخر ، إذا تم ذلك برضا (الطرف الأول) — صاحب المال ! وكذلك يرى القانون أن عصمة أحد الطرفين تباح للثاني ما دام راضياً ، فعند رضا الجانين يصبح القانون حامياً لهما ، ومدافعاً عنهما ، ولو حاول « طرف ثالث » التدخل في الأمر ، فهو الذي سوف يعد مجرمًا ، وليس الطرفان الأولان !

إن جريمة « الزنا » تفشى فساداً كبيراً في المجتمع ، فهي تخلق مشكلات أطفال الحرام (غير الشرعيين) ، وتضعف روابط الزواج ، وهي كذلك تنصل عن عقلية تفضل الذات السطحية في الحياة ، وتربى عقلاً خائناً ، وتخلق السرقة واللصوص ، وتروج الاغتيالات والانتحار والخطف ؛ ومن ثم تفسد المجتمع كله ، ولكن القانون — رغم ذلك — لا يستطيع تحريمها ، فهو لا يحد أساساً لتحريم « الزنا » الذي تم بالرضا المتبادل !!

• • •

ولم يستطع القانون الجديد أن يحرم « الخمر » ، لأنه يؤمن بأن الأكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للإنسان ، وهو حر في اقتناء كل ما يريد أن يأكله ويشربه ، وليس للقانون أن يتدخل في حقوق الطبيعة ، ومن ثم لم يكن شرب الخمر والسكر الذى يتبعه جريمة في الواقع ، إلا إذا اعتدى شارب الخمر على أحد المواطنين في هذه الحالة من السكر ، أو أخرج إلى الشارع وهو سكران ، فالجريمة ليست هي حالة السكر ، بل الاعتداء على الآخرين في تلك الحالة !

والخمر تضر بالصحة ، وتبدد أموال الناس ، وتؤدي بمدنها إلى كوارث اقتصادية محقة ، وتضعف الشعور الأخلاقي ، حتى إن الإنسان يتحول إلى حيوان رويداً رويداً . والخمر خير مساعد للمجرمين ، فهي تشل الإحساسات اللطيفة ، حتى يستطيع الإنسان اقتراف أية جريمة من السرقة والقتل ، وهدر العصمة . ولكن القانون الإنساني رغم هذه المعايير الشنيعة - لن يتمكن من تحريم الخمر ، لأنه لا يجد جواباً يسوغ تدخله في حق من حقوق الإنسان الطبيعية ! !

ولن نجد حلاً لهذه المشكلة إلا في قانون الله ، إن قانونه يبين رضا حاكم الكون ، فإن كون أى قانون قانون الله يحمل معه أولوية تنفيذه ، ولا يحتاج بعد ذلك دليلاً آخر . وهكذا يسد القانون الإلهي فجوة عميقة ، تتمكن بعدها من إحالة أى عمل إلى دائرة القانون .

• • •

رابعاً - القانون والأخلاق

لا يستطيع القانون أن يستقل بذاته في أى وقت من الأوقات ، بل لابد له أن يقترن بالأخلاق . ولتوضيح هذه النقطة نقول :

١ - لو طرحت قضية أمام القانون - على سبيل المثال - وتعتمد الفريقان وشهودهما الكذب فلم يبين الصديق أمام القاضي ، فسوف يقضى على العدل ، ولن يتمكن القاضي من الحصول عليه مهما حاول . ولذلك كان لابد من قانون آخر « وراء القانون » ، يحرك الناس ، ويحملهم على الإدلاء بالبيانات الصادقة للوصول إلى العدل . وقد اعترفت جميع محاكم العالم بهذا المبدأ ، حتى إنها تلزم كل شاهد (أن يقسم بالله أن يقول الحق) قبل الإدلاء بشهادته .. وهو دليل واضح يؤكد أهمية المعائد الدينية لصون حرمة القانون . بيد أن المجتمع الجديد قد قضى على أهمية المعتقدات الدينية ، حتى أصبحت أيمان المحاكم أضحوكة ، وتقليداً لا يأتى بنفع ، أى نفع !

٢ - وما لابد منه أن يكون أى « عمل » يعاقب عليه القانون (جريمة) في نظو المجتمع أيضاً ، وأى بند من قانون مكتوب لا يمكنه أن يخلق نفسية في المجتمع ، ترى في عمل ما جريمة ،

كما يراه القانون ، إذ لابد من أن يشعر مرتكب الجريمة بأنه « مذنب » ويعتبره المجتمع مذنباً .
ويقبض عليه رجال الشرطة بكل اقتناع ، ثم يصدر قاضى المحكمة - وهو فى غاية الاطمئنان -
حكماً ضد ذلك الرجل . ولذلك كان لابد أن تكون كل جريمة « ذنباً » أيضاً . وهذا هو
ما يراه أصحاب المدرسة التاريخية من رجال القانون :

« إن أى تشريع لن يصيب هدفه إلا إذا كان مطابقاً للاعتقادات السائدة عند المجتمع
الذى وضع له ذلك القانون ، ولو لم يطابق التشريع اعتقادات المجتمع ، فلا بد من فشله (١) »
هذا رأى الذى عبرت عنه « المدرسة التاريخية » لرجال القانون غير صائب فى مغزاه
الحقيقى الذى يرمى إليه إطلاقاً ، ولكنه ذو صدق خارجى .

• • •

٣ - إن خوف الشرطة والمحكمة لا يكتفى لردء الجرائم ، وإنما لابد أن يكون هناك وازع
فى المجتمع يمنع الناس من ارتكاب الجرائم ، لأن الرشاوى ، والمحسوبيات ، وخلفيات المحامين
البارعين ، وشهود الزور - كل هذه العوامل تكفى لحماية المجرم من أية شرطة أو محكمة إنسانية ،
والمجرم لا يرهب عقاباً ، أى عقاب ، لو استطاع أن يقلت من أيدي القانون .

إن الشرع الإلهى يستوفى كل هذه الأمور ، فعقيدة « الآخرة » ، التى يحملها الشرع
الإلهى ، هى خير وازع عن ارتكاب الجرائم ، وهى تكفى لتبقى إحساساً بالجريمة واللوم
يعتمل فى قرارة ضمير الإنسان ، لو أدلى بشهادة كاذبة أمام القاضى .

لقد أقيم فى فناء محكمة « ويسترن سركيت » نصب من حجر ، يذكر الناس ، بشاهد
أدلى بشهادة زور فى فناء الدار ، ثم قال : « وإن كنت كاذباً ، فليمتنى الله ، هنا ، فى الحال !
ولم تكذب هذه العبارة تخرج من فم الشاهد حتى سقط على ساحة الأرض ، ومات فى الحال (٢) !!
وهناك وقائع أخرى من هذا النوع حدثت لشدة إحساس أصحابها باللوم والذنب .

• • •

إن قرارات البرلمانات لن تخلق فى الجماهير شعوراً بشناعة فعل ما ، إلا إذا كانت
معتمدة من القانون الإلهى ، وراعية فى معتقدات المجتمع .

والوازع الذى يمنع من ارتكاب الجرائم ليس هو الدين فى حد ذاته ، فإنه لا يقدم لنا
تشريعاً فحسب ، وإنما يخبرنا أن صاحب هذا التشريع يشاهد كل أعمالنا من خير وشر ..
فنياتنا وأقوالنا وحركاتنا بأكملها تسجل بواسطة أجهزة هذا المشرع ، وسوف نقف بعد
المعات أمامه ، ولن نستطيع أن نفرص ستاراً على أدنى أعمالنا .

(١) A Text Book of Jurisprudence, p. 16.

(٢) Sir Alfred Denning, The Changing Law, p. 103, (1953).

ولو أننا استطعنا الهروب من عقاب محكمة الدنيا ، فلن نتمكن بالتأكيد — من أن نفلت من عقاب صاحب التشريع السماوى ؟

ولو أننا حاولنا نغادى عقاب الدنيا . سوف نذوق عذابا مضاعفا يوم القيامة ، يفوق عقاب الأرض ملايين المرات ، قسوة وعنفا .

• • •

خامساً - القانون والفرد

ورد فى التاريخ الإنجليزى أن الملك « جيمس الاول » أصدر مرسوما يقول بأنه (الملك) يستطيع أن يحكم البلاد مطلق العنان ، كما أن من حقه إصدار أحكام دون أن تخضع للمرافعة أو الاستئناف فى المحاكم .

وكان رئيس القضاة حينئذ هو القاضى الشير « اللورد كوك » ، وكان شديد التمسك بالدين حتى اعتاد أن يقضى ربع يومه فى الكنيسة وذهب اللورد كوك ليقول للملك « ليس من حقل أن تحكم فى أى شئ ولا بد لجميع القضايا أن تذهب إلى المحكمة للنظر فيها . »

فقال له الملك : « إننى أرى — وهو ما سمعته — أن القوانين قد وضعت على أساس العقل ، فهل أنا أقل من قضائك عقلا ؟ .

فأجابه رئيس القضاة : « إنه مما لا شك فيه أنكم تتمتعون بعلم وكفاءة مثالين ، ولكن القانون يتطلب تجربة طويلة ودراسة عميقة . وفوق ذلك هو الميزان الذهبى الذى يزن حقوق الرعية ؛ وهو الذى يصون شخصيتكم . »

فغضب الملك بشدة وقال : « هل أنا أيضا أخضع للقانون ؟ إن هذا المقال بمثابة تمرد وخيانة ! »

وكان جواب « اللورد كوك » أن ذكر الملك برأى « براكتون » Bracton ، الذى قال : « إن الملك لا يخضع لأحد من الناس ، ولكنه خاضع لله ولل قانون (١) » .

وهنا — لو جردنا القانون من « الله » ، فلن نجد أساسا معقولا للقول بأن : « الملك خاضع للقانون » — لأن الذين صاغوا القانون ، وأصدروه بإرادتهم ، يستطيعون — فى الوقت نفسه — تعديله وتغييره إذا ما أرادوا ذلك ، فكيف — إذن — سيخضعون لذلك القانون (٢) ؟ ..

(١) المرجع السابق : ص - ١١٧ - ١٨ .

(٢) ومن أمثله ما حدث فى الهند عقب الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧ ، بعد أن أفلحت مجموعات نيابية ائتلافية فى الحصول على مقاليد الحكم فى كثير من الولايات الإقليميه ، فعينته أجرت الحكومة المركزية (التى يحكمها حزب المؤتمر) تعديلات هامة فى كثير من المجالات ، لتفيد حركة الحكومات (المعارضة) ، ومنها — على سبيل الذكر — منع تقديم الهبات والمعونات المالية =

إن الإنسان إذا كان هو المشرع ، فهل يحل محل القانون والإله معا ، وحينئذ يستحيل احتواؤه داخل دائرة القانون ، بأى صورة من الصور .

وقد أدى هذا العيب في القوانين الحديثة إلى أنه — على الرغم من أن كل الجمهوريات تقر مبدأ المساواة المدنية — فإن هذه المساواة لا تنفذ فعلا في أية دولة ، فلو أنك كنت تريد أن تحاكم رئيس جمهورية الهند ، أو أحد حكام الولايات ، فلن تستطيع ذلك ، كما تستطيع أن تحاكم المدنيين العاديين ، إذ كان لابد لك من الحصول على موافقة الدولة . قبل الذهاب إلى المحكمة ، فقد أضفى الدستور الهندى (فى المادة ٣٦١) على رئيس الجمهورية ونائبه وحكام الولايات حالة امتياز ، بحيث لا يمكن محاكمتهم إلا بعد موافقة البرلمان المركزى . وكذلك لابد من الحصول على موافقة الحكومة ، لمحاكمة الوزراء !

والأمر لا يقف بنا عند هذا الحد ، بل تنص المادة ١٩٧ ، من (لوائح العقوبات الهندية) على : « أن قاضيا ، أو وكلا للنيابة العامة ، أو أحد الموظفين الحكوميين (من الذين لا يجوز فصلهم من الخدمة إلا بعد موافقة الحكومة المركزية) لو اتهم أحدهم بارتكاب جريمة ما ، فليس من شأن المحاكم النظر فى قضية أحدهم ، إلا بعد الحصول على موافقة الحكومة المركزية أو المحلية . التى تتعلق بها وظيفة المتهم المطلوب محاكمته » ! !

= إلى الأحزاب السياسية. وكانت هذه المعونات المقدمة إلى الأحزاب السياسية مضافة من الضرائب ، فضلا عن أن أصحابها كانوا يتمتعون بتسهيلات عديدة عند دفع الضرائب . وكان حزب المؤتمر ، كحزب حاكم يحصل على هذه الميزات بأكثر من ثمانين فى المائة ، بينما كانت الأحزاب الأخرى لا تتمتع إلا بنسب ضئيلة جدا من هذه المعونات ، ولكن بعد نجاح الأحزاب الأخرى فى الوصول إلى مقاعد الحكم فى كثير من الولايات تحولت مصالح الرأسماليين إلى الحكام الجدد فأغدقوا على أحزابهم المعونات ، مما آل بأضرار بالغة بالنسبة لحزب المؤتمر ، فنمت الحكومة المركزية التسهيلات التى كانت تقدم إلى أصحاب الميزات ، وبالتالي حرمت الأحزاب الأخرى من جنى فوائد كبرى ! لقد أصبح نفس الشيء الذى كان مباحا فى الماضى — محظورا فى الحال ، لأن مصالح واضعى الدستور (الذين يتمتعون بأغلبية ضئيلة تمكنهم من فرض آرائهم على الأقلية الكبيرة) لم يعد لها وجود ، بسبب تصاريף الزمن !

ومنها كذلك أن « الجمعية التشريعية » فى ولاية (أوريسه) الهندية أصدرت قانونا يحرم على المواطنين تغيير الديانة ، وهذا — كما هو واضح بكل جلاء — لمنع الهندوس ، وخصوصا المنبوذين ، من قبول الإسلام ! ! وهذا البند المستحدث يتعارض تعارضا كليا ، بل يصادم الدستور الهندى الذى يعطى للمواطنين الحرية الكاملة فى الشئون المماثلة . ولكن هذا التشريع الجديد جاء ليرضى الرجعيين الهنادك . وهؤلاء يشجعون ، علانية ، مثل هذه الحركات الشنعية ، لمنع الأهل من قبول الدعوة الإسلامية ، وهؤلاء الرجعيون هم المستولون عن الاضطرابات الطائفية التى يذهب ضحيتها الكثيرون من المسلمين المساكين ، ثم لا يقدم مثيرو الشغب والفساد إلى المحاكمة — إطلاقا — لتمتصهم بطف ووصاية الرجعيين (العرب) .

وبكلمة أخرى : لو أردت أن تحاكم سياسيا كبيرا ، أو أحد أعضاء السلطة التنفيذية العليا - فعليك أن تسأل هؤلاء أنفسهم : « هل تتيحون لنا محاكتكم ؟ » !

وليس هذا عيب الدستور الهندي بالمرة ، بل هو عيب القانون البشرى بعامة ، وهو عيب موجود . حيث يوجد هذا النوع من الدساتير الوضعية .

ليس من الممكن أن يتحقق العدل الكامل إلا في ظل القانون الإلهي ، حيث يكون كل إنسان مساويا للآخرين أمام الدستور . وحيث تمكن مقاضاة أية سلطة سياسية وتنفيذية ، كما يحاكم ابن الشعب ، لأن الحاكم في هذا القانون هو « الله » سبحانه وحده ، والمحكومون هم سائر أفراد المجتمع دون أدنى تمييز^(١) . . .

• • •

سادسا - القانون والعدل :

إن أهم وأكبر أساس في هيكل القانون هو « العدل » ، الذي يبحث عنه خبراء القانون من قرون طويلة ، وهو موجود في القانون الإلهي في أتم الصور وأكملها . والقول بأن : عدم اعتناء الإنسان إلى أساس العدل يرجع إلى أن بحوثنا لازالت ناقصة ، وتتطلب المزيد من البحث - قول باطل . فهذا الكلام يثبت أنه ليس في استطاع الإنسان أن يحصل على هذا الأساس أبدا .

لقد قطعنا شوطا كبيرا في مضمار البحوث الطبيعية بنتائج باهرة في كل مجال ، ولكننا ، رغم جهودنا المضاعفة في البحث عن القوانين المدنية ، لم نحجز نجاحا ، ولو بنسبة واحد في المائة من الدرجة المطلوبة . وهذه الخيبة تؤكد أن إخفاقنا لا يرجع إلى نقص الجهود ، وإنما سببه الحقيقي أن هذا الأمر خارج - على الإطلاق - عن نطاق بحث الإنسان .

• • •

لقد صور الإنسان أول صورة فوتوغرافية في عام ١٨٢٦ م . وقد بذل العالم الفرنسي ، الذي اخترع الجهاز ، ثمانى ساعات متواصلة لتصوير شرفة المنزل .. والآن تستطيع آلات

(١) لذلك أشلة رائدة في المصور الأولى لخلافتنا الإسلامية ، حين كان العاديون من أفراد الشعب يتكئون إلى القضاة ضد الخلفاء وعمال الأقاليم وكبار رجال الدولة . بل وهناك أشلة في اليهود القرية جدا ، ومنها ، على سبيل المثال وليس الحصر ، أن أفراد الشعب العاديين احتكوا إلى الحاكم - عدة مرات ضد الإمبراطور المسلم المفلول « جهانكير » - ابن الإمبراطور « أكبر » - الذي حكم الهند في القرن السابع عشر . - (العرب) .

أقول : ليس هذا أثرًا من آثار المبادئ الحميدة السامية ، وانمكاساً لقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدوية في صميم الزمان : « أتشفعون في حد من حدود الله ؟ » والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها . . . ؟ - (المراجع) .

تسجيل الأفلام أن تصور أكثر من ألفي صورة في الثانية الواحدة ، ومعنى ذلك أننا نستطيع اليوم أن نصور أكثر من ستين مليون صورة ، في نفس الوقت الذى استغرقت عملية التصوير الأولى ، أى أن سرعتنا قد زادت ستين مليون مرة ، في ١٤٠ سنة فقط !!

وعند بدء هذا القرن العشرين لم يكن يوجد فى شوارع الولايات المتحدة غير أربع سيارات ، على حين تمرق الآن على شوارعها الفسيحة عشرة ملايين سيارة .

ويمضى الإعجاز العلمى بالإنسان إلى أن يقسم الزمن إلى $\frac{1}{1,000,000,000}$ جزء من أجزاء الثانية ! وتستطيع المراصد العلمية أن تكشف عن أدنى فارق فى حركة دوران الأرض - حتى ولو بلغ فى مدته $\frac{1}{1,000,000,000}$!

لقد اخترعنا آلات حساسة يمكنها الكشف عن فارق الوزن الذى يطرأ على كتابة (حرفين) بالحبر ، على ورقة من أوراق موسوعة من ثلاثين مجلداً !
هذه هى حال الإنسان فى حقل البحث العلمى ، على حين لم يتمكن من إحراز أى تقدم - ولو بمقدار (بوصة) - فى مجال القوانين المدنية .

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة من مختلف مجالات الحياة ، لتبين مدى صدق القول : بأن الدستور الإلهى هو وحده الأساس الحقيقى ، الذى يصلح لأن يكون مصدراً لقوانين الحياة الإنسانية .

• • •

المرأة والمجتمع :

إن الإسلام لا ينظر إلى المرأة والرجل نظرة واحدة ، فهو يحرم العلاقات الحرة بينهما . وقد أخذ العلماء عند بدء العصر العلمى يسخرون من هذه القوانين ، وأطلقوا عليها : « مخلفات العصر الجاهلى » .

وقالوا بشدة : إن الرجل والمرأة متساويان ، ويريثان التسل الإنسانى بطريقة متساوية ، ولسوف تكون جريمة كبرى لو أقننا العقبات فى طريق علاقاتهما الحرة .

وقد أنتجت هذه الفكرة مجتمعاً جديداً فى الغرب . بيد أن التجارب الطويلة المبررة التى مرت بها الإنسانية بعد هذه الإباحة الجنسية هى أقسى ما عاناه البشر ، فقد ثبت بعد هذه التجارب أن المرأة والرجل لا يتساويان فطرياً ، ولا طبعياً ، وأى مجتمع يقوم على أساس مساواتهما سوف يسبب خراباً ودماراً عظيمين للحضارة البشرية .

• • •

(١) إن أول حقيقة في هذا الأمر هي أن الرجل والمرأة يختلفان كل الاختلاف في نوعية كفاءتهما الطبيعية ، واعتبارهما متساويين إنما هو مخالفة كبرى لقوانين الطبيعة في حد ذاتها .
كتب الدكتور « الكسيس كيريل » ، الحائز على جائزة نوبل للعلم - وهو يبين الفارق العضوي بين الرجل والمرأة - يقول :

« إن الأمور التي تفرق بين الرجل والمرأة لا تتحدد في الأشكال الخاصة بأعضائهما الجذ والرحم والحمل ، وهي لا تتحدد أيضاً في اختلاف طرق تعليمهما ؛ بل إن هذه الفوارق هي ذات طبيعة أساسية ؛ من اختلاف نوع الأنسجة في جسم كليهما ؛ كما أن (المرأة) تختلف عن (المرء) كلياً ، في المادة الكيميائية التي تفرز من مبيض الرحم داخل جسمها . واللين يتأدون بمساواة الجنس اللطيف بالرجل يجهلون هذه الفوارق الأساسية ، فيدعون أنه لا بد أن يكون لها نوع واحد من التعليم والمستويات والوظائف . ولكن المرأة في الواقع تختلف عن الرجل كل الاختلاف ؛ فكل خلية من جسمها تحمل طابعاً أنثوياً ، وهكذا تكون أعضاؤها المختلفة بل وأكثر من ذلك هذه هي حال نظامها العصبي .

إن قوانين ووظائف الأعضاء محدودة ومنضبطة بقوانين الفلك ، حيث لا يملك إحداث أدنى تغير فيهما بمجرد الأمنيات البشرية ، علينا أن نعلم بها ، كما هي ، دون أن نسعى إلى ما هو غير طبيعي ، وعلى النساء أن يقمن بتربية مواهبهن بناء على طبيعتن الطبيعية ، وأن يهجن عن تقليد الرجال » (١) .

ولقد صدقت التجارب العملية نتائج هذه الفوارق الطبيعية ، فقد فشلت المرأة في أن تحموز أبة مساواة مع الرجل في أى ميدان . . حتى إن الرجل يتقدم المرأة في الميادين التي كانت تعتبر حكراً على المرأة في الماضي . ومن ذلك أن المرأة فشلت في المساواة مع الرجل في حقل السينما . وليس الرجل هو الذى يدير اليوم كل ما هو متعلق بالسينما ، ومع ذلك فهو يتقاضى أجراً أكثر من المرأة . فمثل كبير يتقاضى اليوم ستة ملايين روبيه (٢) ، في السنة ، على حين لا يزيد دخل أعظم ممثلة هندية على أربعة ملايين روبيه ١١

• • •

(١) Man the Unknown, p. 93.

(٢) عملة هندية كانت تساوى عشرة منها جنيهاً مصرياً (عند صدور هذا الكتاب) ، وأما الآن فسته عشر (١٦) منها تساوى الجنيه المصرى الواحد ، بعد تخفيض قيمة العملة الهندية عام ١٩٦٦ ، وبالتالي قفزت دخول الممثلين الهنود إلى أرقام خيالية ، فبجاء في إحدى الإحصائيات الحديثة أن أكبر ممثل هندي (دليبه كومار ، واسمه الحقيقي يوسف خان) يتقاضى ١٠,٦٠٠,٠٠٠ روبية للاشتراك في فيلم واحد ، بينما أكبر ممثلة لا يتقاضى إلا أقل من نصف هذا الأجر ١ - المغرب .

وليس هذا هو كل ما في الأمر .. فإنتا لو أنكنا القوانين الطبيعية ، والضوابط العقلية ، وبدأنا نعمل على عكسها فسوف نكسر رؤوسنا بأيدينا . وهكذا جلب النظام الذي صاغه الإنسان - متجاهلا الحثيات الفارقة بين الجنسين - صنفاً من الأمراض والجرائم إلى داخل المجتمع . إن شباب هذا المجتمع الجديد يشكو أنواعاً من الأمراض الجنسية والحلقية والنفسية ، فضلاً عن العصمة التي أهلدها المجتمع ، نتيجة هذا الاختلاط المروع :

ومن الظواهر التي تتكرر مراراً أمام أطباء هذا المجتمع أن تدخل فتاة غرقه الطيب ، وهي تشكو من الصلداق وقلة النوم ، ومحفى بعض الوقت تتحدث عن هذه الآلام .. ثم لا تلبث أن تتكلم عن شاب التقت به صدقة منذ مدة .. وحينئذ يشعر الطيب أنها تتمر وتعلم في كلامها ، فيقول لها :

«Well, then he asked you to his flat, what did you say ?»

حسناً ! ثم دعاك إلى شفته ، فإذا قلت له ؟

وتقول الفتاة في دهشة :

« كيف عرفت ذلك ، لقد كنت أريد أن أقول لك ذلك حالا ! »

ومن الممكن قياس كل ما يستقبل الفتاة للطيب بعد هذا الحديث . وهذا هو الذي دفع علماء الغرب إلى الشعور بخيبة الأمل ، فاتهموا إلى أن الحفاظ على العفة والعصمة « كلام فارغ » في ظل مجتمع العلاقات الحرة . وقد قال طيب غربي :

« من الممكن أن يصل الرجل والمرأة إلى نقطة ، يستحيل عندها التحكم في الأعصاب ، والإحساس بالعواقب » .

وقد بدأت حملة شديدة ضد هذه الظواهر في صورة المقالات والكتب . وبدأ بعض علماء الغرب يشعرون بالكارثة التي تهدد حضارتهم . ولكنهم ، رغم ذلك كله ، غير قادرين على فهم جلور الموقف .

ولقد نشرت الطيبة المعروفة « ملويزن هيلارد » مقالا عنيفاً ضد الاختلاط الحسري . وقالت : « إنني لا أستطيع أن أسلم ، كطبيبة ، بأن العلاقات الطاهرة ممكنة بين رجل وامرأة ، يفردان برضاها وقتاً طويلاً » .

ولكن الدكتور « هيلارد » تستطرد قائلة :

« ولست على هذه الدرجة من الغباء ، حتى أنصح الشبان والفتيات أن يمتنعوا عن التقييل . ولكن أكثرية الأمهات لا تخبرن أولادهن أن القبلية لا تبرر العواطف ، وإنما تلهيها » (١) .

وتسلم الذكورة « هيلارد » ، بهذا القول ، بالقانون الإلهي الذي يحرم هذه الظواهر ، حتى لا يصل الإنسان إلى حافة الجرائم الجنسية القبيحة ؛ ولكن الطبيعة لا تعرف : كيف تحرم هذه الظاهرة التي تنتهي إلى الأعمال الشيطانية لا محالة ؟ !

• • •

(ب) لقد أباح مشرع الإسلام « تعدد الزوجات » ، وأثيرت ضجة كبرى ضد هذا التشريع ، وأطلق عليه - هو الآخر - أنه « تذكاء العصر الجاهلي » . ولكن جاءت التجارب العملية لتثبت أنه كان تشريعاً مناسباً للطبيعة الإنسانية ، لأن سد باب تعدد الزوجات إنما هو فتح لعشرات الأبواب الفاجرة ، غير الشرعية .

وسوف أشير هنا إلى النشرة الإحصائية التي نشرتها هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٥٩ . لقد أثبتت هذه النشرة بالأرقام والإحصائيات : أن العالم يواجه الآن مشكلة « الحرام أكثر من الحلال » more out than in في شأن المواليد ! وجاء في هذه الإحصائية أن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت إلى ستين في المائة . وأما في بعض البلاد ، وعلى سبيل المثال « بناما » فقد تجاوزت هذه النسبة الخمسة والسبعين في المائة ، أي أن ثلاثة عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد ! وأرفع نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة في أمريكا اللاتينية .

وتثبت هذه النشرة أيضاً أن نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل إلى « العدم » في البلدان الإسلامية . وتقول النشرة : إن نسبة هؤلاء الأطفال أقل من واحد في المائة في جمهورية مصر العربية ، مع أنها أكثر البلاد الإسلامية تأثراً بالحضارة الغربية .

فما الأسباب التي تحمي الدول الإسلامية من هذه البلية ؟

يقول محررو هذه النشرة الإحصائية : إن البلدان الإسلامية محفوفة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام « تعدد الزوجات »^(١) .

لقد استطاع هذا القانون الإلهي الحكيم أن يحمي بلادنا الإسلامية من كارثة محققة في هذا العصر .

فقد أكدت تجارب الإنسانية أن القانون الإلهي القديم هو الذي كان مبنياً على الحق ، والرحمة بالإنسانية^(٢) .

• • •

(١) جريدة Hindustan Times ، عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠ .

(٢) لم يستطع محررو النشرة الإحصائية أن يشيدوا بالدين الإسلامي وروحه (وذلك راجع إلى تعصبهم أو جهالتهم بالحقائق ، أو إلى الاتيين معا) ، فن مزايوا الإسلام أنه يحرم « الزنا » ، =

التمهيد :

شرع الإسلام القصاص ممن قتل عمداً ، إلا أن يرضى ورثة القتيل بالدية . ولقد تعرض هذا القانون لنقد شديد من جانب رجال القانون في العصر الحاضر ، وأهم ما يستدلون به : أن معنى هذا التشريع أن تضيق نفس أخرى ، بعد أن ضاعت الأولى بالفعل ، ودفعهم هذا إلى إلغاء نظام (الإعدام شنقاً) في كثير من البلاد .

إن القانون الذي يقرره الإسلام له فائدتان هامتان :

أولاهما : أن تستأصل جذور هذه الجريمة ، لأن أحداً من الآخرين لن يدفع إلى ارتكابها مرة أخرى نظراً للعاقبة الوخيمة التي لقيها أحد أفراد المجتمع^(١).

وأما الثانية : فهي « الدية » ، وقد راعى المشرع النتائج مراعاة تامة ، فلو قتل الابن الوحيد لشيخ ، فعلى القاتل أن يدفع لوالد المقتول مبلغاً من المال يرضيه ، فيعفو عن الجريمة لقاء المبلغ الذي تقاضاه . وقد جعل التشريع الإسلامى حقاً للدولة أن تأمر برفع مبلغ الدية ، إخماداً لنار « النار » .

إن هذا التشريع حكيم للدرجة عظيمة ، وتجربته تؤكد أن غريزة القتل قد قضى عليها في أى بلاد طبقت ، كما أكدت التجارب أيضاً أن أى بلاد ألغت هذا التشريع قفزت فيها جرائم القتل إلى نسب خيالية ، حتى إن نسبة الاغتيالات قد ارتفعت في بعض هذه الدول إلى اثنتي عشرة في المائة .

وهناك أمثلة أخرى عديدة : بلاد ألغت عقوبة القصاص ، ولكنها عادت فأقرته مرة أخرى ، نظراً للعواقب . فقد أصدر البرلمان السيلاني قانوناً سنة ١٩٥٦ يحرم القصاص في حدود سيلان ..

== وتجريمه هذا هو الذي يحمي المسلمين ، سواء أكانوا من متعمدى الزوجات أم من غيرهم ، وذلك لأن ظاهرة تعدد الزوجات آخذة في الاختفاء من المجتمع الإسلامى ، بسبب الحملات السخيفة التي تعرضت لها من جانب علماء الغرب ، والمتفرجين من أبناء الشرق المجهورين بالحضارة الغربية (والذين يطلق عليهم مؤلف هذا الكتاب كلمة « الإنجليز السود » المتحسسون للحضارة الغربية أكثر من أصحابها) . وترتبت على هذا الوضع مشكلات خطيرة - من عائلية واجتماعية إلى حضارية ، بسبب عدم اكتفاء الكثيرين من الأزواج بزوجة واحدة ، وكثرة الفتيات والأراامل الطالبات لزوج ، وقلة الشبان ، وهذه مشكلات يعاني منها مسلمو الهند وباكستان بشدة أكثر من اغوائهم العرب - المغرب (١) الدولة الوحيدة التي تطبق النظام الإسلامى في هذا المجال هي المملكة العربية السعودية ، ومن المعروف لكل المهتمين بالشئون السعودية لايزداد عن « بضع » حوادث ، وذلك راجع إلى العقوبة التي يلقاها المجرمون ، وكذلك تنعدم حوادث السرقة بهذه المملكة ، لسبب نفسه - المغرب .

فارتفعت نسبة جرائم القتل ارتفاعاً خفيفاً بعد صدور القانون ، ولم يستيقظ السيلانيون من سباتهم إلا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٥٩ ، عندما تسلل رجل مسلح داخل منزل رئيس الوزراء السيد بندرانايكه ، وقتله بكل جرأة في غرفته ، وكان أول ما فعله أعضاء البرلمان السيلاني بعد دفن جثمان رئيس الوزراء المأسوف عليه ، أن عقدوا جلسة طارئة استغرقت أربع ساعات ، وأعلنوا عند ختامها أن سيلان قررت إلغاء القانون ، وإصدار قانون جديد بنشره القصاص .

• • •

المعيشة :

إن النظام الذى يقره الإسلام فى المعيشة يسلم بالملكية الفردية لوسائل الإنتاج الزراعى ، وهيكمل المعيشة فى الإسلام يقوم على أساس الملكية الفردية . وقد راج هذا النظام عصوراً طويلة فى العالم^(١) . ثم تعرض بعد الثورة الصناعية لنقد قاس ، حتى إن المثقفين رضوا بإلغائه .

وقد راج فى أوربا ، فيما بين النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، شعور بأن الملكية الفردية أحد القوانين المجرمة التى تفشت فى عصر الجاهلية المظلم .. وأنهم قد استطاعوا الآن أن يكشفوا عن نظام « الملكية الجماعية » - التى هى أقوى أساس لتنظيم المعيشة .

ثم بدأت أول تجربة للنظرية الجديدة - الملكية الجماعية ، ونفذت على رقعة واسعة من الأرض ، وبدأت دعاية كبيرة فى شأنها ، وعقدت عليها آمال كبار ، ولكن التجربة الطويلة أثبتت أن هذا النظام ، رغم الجهود الضخمة التى بذلت فى سبيله ، لم يأت إلا بإنتاج أقل من الإنتاج الذى يأتى به نظام الملكية الفردية .

هذا ، فضلاً عن نقائصه الكثيرة التى تتلخص فى كونها غير طبيعية ، إلى استخدام العنف لتفيلها ، وأنها تمنع التقدم الإنسانى ، وأنها أكثر من الأنظمة الرأسمالية تركيزاً ، واستغلالاً ، ودكتاتورية .

• • •

وصوف أضرب هنا مثالا لروسيا ؛ لقد نفذت الحكومة الروسية نظام (الملكية الجماعية) فى جميع أنحاء البلاد ، والدولة تملك جميع الأراضى الزراعية ، فهى تقوم بزراعة أراضيها فى صورة « المزارع الجماعية » . وقد منح القانون الزراعى الذى أصدرته الدولة عام ١٩٣٥ الفلاح حقاً بملكية الثلث أو نصف القدان ؛ أو فدانين فى بعض الأحوال الاستثنائية ، وسمح له أن يربى بعض الأنواع من الحيوانات ، مثل الأبقار والأغنام والدجاج .

(١) نظام الملكية الفردية الذى راج فى العالم هو أثر من آثار الدين . ولذلك خالت « ماركس » واتباعه الأديان بشدة ، حتى يتمكنوا من طرد فكرة الملكية الفردية من أذهان الأفراد .

وتثبت الإحصائية الرسمية التي نشرت عام ١٩٦١ أن الأراضي الزراعية في روسيا في ذلك الوقت كانت ٢٠٤ مليون هكتار ، منها أراض قنرها ستة ملايين هكتار في حوزة الملكية الفردية ، أى ثلاثة في المائة من مجموع مساحة الأراضي الزراعية ، ولكن نسبة المحصول الزراعى للبساطس عام ١٩٦١ كانت كما يلي :

نسبة المحصول (بالطن)	نسبة الأراضي المزروعة (بالقدان)	
٣٠,٨٠٠,٠٠٠	٤,٣٥٢,٠٠٠	المزارع الجماعية
٥٣,٥٠٠,٠٠٠	٤,٥٢٦,٠٠٠	الأراضي الفردية

وتؤكد هذه الإحصائية أن المحصول الزراعى كان أحد عشر طناً من البساطس في الأراضي الفردية ، مقابل سبعة أطنان في الأراضي الحكومية . وهذه النسبة توجد كذلك في المحاصيل الأخرى ، على حين أن الأراضي الفردية لا تتمتع بتسهيلات الآلات الزراعية ، والسماد ، والكفاءات التي تتمتع بها المزارع الجماعية الحكومية .

وأما الماشية فهي أسوأ حالا في المؤسسات الحيوانية الحكومية ، فهي تموت بكثرة بسبب نقص الكلاء ، والاستهتار في الرعاية ، وقد مات ١٧٠,٠٠٠ من الرؤوس في إقليم واحد ، في مدة أحد عشر شهراً عام ١٩٦٢ .

وأما حيوانات الملكية الفردية فهي آخذة في الازدياد وانمو يوماً بعد يوم ، رغم العقبات العديدة ، وهي كذلك أكثر إنتاجاً من غيرها . فالمؤسسات الحكومية التي تملك سبعين في المائة من الحيوانات والدجاج لم تقدم للسوق من اللحوم إلا ما يزيد على عشرة في المائة بالنسبة إلى أصحاب الملكية الفردية ، الذين لا يملكون أكثر من ثلاثين في المائة من الحيوانات والدجاج ، ويقدمون إنتاجهم للحكومة ، وهو ما يبقى لديهم بعد استهلاكهم الذاتي . وقد تخلقت المؤسسات الزراعية الحكومية كثيراً في إنتاج البيض . ويمكن استنتاج هذه الفوارق من إحصائية رسمية لعام ١٩٦١ :

المحصول	النسبة الحكومية (بالطن)	النسبة الفردية (بالطن)
الحم	٤,٨٠٠,٠٠٠	٣,٩٠٠,٠٠٠
الدين	٣,٤٠٠,٠٠٠	٢٨,٥٠٠,٠٠٠
الصوف	٣٨٧,٠٠٠	٧٩,٠٠٠
البيض	٦,٣٠٠ (مليون بيضة)	٧٩,٠٠٠ (مليون بيضة)

إنه لمن الطريف أن يقوم الأفراد بسد حاجات حكومة مملك ، بل تحتكر كل وسائل الإنتاج ! إن الإحصائية تدلنا على أن إحدى الجمهوريات السوفيتية حصلت من الأفراد على ستة وعشرين في المائة من البطاطس ، وأربعة وثلاثين في المائة من البيض ، لسد احتياجاتها المحلية ، وهكذا اضطرت إلى شراء أشياء أخرى مماثلة من الأفراد ، لاستهلاكها عليها^(١) .

ومن العواقب الوخيمة لهذه الملكية الجماعية أن روسيا - التي كانت من بين الدول الكبرى المصدرة لإنتاجها الزراعي في عهد القيصرية - اضطرت إلى شراء خمسة عشر مليوناً من أطنان القمح ، من كل من : استراليا ، وكندا ، والولايات المتحدة الأمريكية . وهذه الحال مستمرة في التدهور ، فقد اشترت روسيا ١,٢٥٠,٠٠٠ طنّاً من القمح من الولايات المتحدة ، فيما بين ١٩٤١ - ٥٦ .. وهذا هو الذي يمرى في الصين الشيوعية^(٢) .

• • •

وتؤكد هذه التجارب القاسية التي خاضتها البشرية أن العقل الإلهي - الذي هو منبع القانون الحقيقي - هو أعرف بالطبيعة الإنسانية ، وأكثر فهماً لمسائلها ومشكلاتها .

إن في الدين جواباً محدداً لكل الأسئلة التي تؤرقنا في كفاحنا الحضاري . إنه يوجهنا إلى المشرع الحقيقي الطبيعي ، وهو يضع لنا الأساس النظري للقانون .. فهو يمنحنا أساساً صائباً لكل مسألة في الحياة البشرية حتى يمكن لها الوصول إلى أعلى درجات الازدهار والرقى ، وهو الصورة الوحيدة للمساواة الكاملة بين الحاكم والرهبة . وهو يهيئ الأساس النفسي ، الذي يصبح للقانون بدونه مشلولاً بلا حراك ، وهو يخلق لنا ذلك المناخ المناسب الذي لا بد منه لتطور أى مجتمع تطوراً حيوياً وفعالاً .

وهكذا يعطينا الدين كل ما نحتاج إليه لبناء الحضارة ، في حين لا يتيح لنا الإلحاد والكفر شيئاً ما ، سوى الضياع والفاقة ، فهو عقيم لا يجلى نفعاً .

• • •

الباب التاسع

الحياة التي ننشدها

كتب « فريدريك أنجلز » :

« لا بد للإنسان أن يجد لباساً يستر به جسده ، وخبراً يشبع به بطنه ، حتى يستطيع الخوض في الفلسفة والسياسة » .

والواقع أن الأسئلة الأولى التي يسعى الإنسان إلى معرفة جواب عنها في حياته هي :

من أنا ؟

وما هذا الكون ؟

وكيف بدأت حياتي ؟

وإلى أين تنتهي ؟

إنها أسئلة الفطرة الأساسية . فالإنسان يفتح عينيه في عالم يحوى كل شيء ، غير جواب هذه الأسئلة ، فالشمس توصل إليه الحرارة اللازمة ، ولكن الإنسان غافل عن حقيقتها ، وعن أسباب قيامها بهذه العملية لتخلته ، والهواء يعطى الحياة للإنسان ، ولكن الإنسان غير قادر أن يؤثر فيه ليجيب عن السؤال : من أنت ؟ ولماذا تقوم بهذا العمل ؟

إنه يعم في وجوده ، ولكنه لا يفهم من هو ؟ ولماذا جاء إلى هذه الدنيا ؟ .

والذهن الإنساني غير قادر على وضع إجابات هذه الأسئلة الأساسية في حياة البشر ، ولكنه لن يتخلى عن بحثه ، ولن يمل هذا البحث عن جواب .

هذه الأسئلة ، وإن وردت ألقاظاً على ألسنة الجماهير ، فإنها تؤلم روحها ، وهي ترد أحياناً بطريقة يصاحبها الانفعال ، حتى يصبح الإنسان مجنوناً .

• • •

لقد عرفنا « أنجلز » مفكراً ملحداً ، ولكن إلحاده أتى عن طريق المجتمع المصاب بالبلية وعدم الاستقرار . لقد كان شغوفاً بالدين ، وكان يقضى وقتاً طويلاً في الكنيسة ؛ ولكنه بعد

ما كبر وتوسع نظره في الدراسة أعرض عن الدين التقليدي . وهو يكتب أحوال هذه الفترة في خطاب له إلى أحد أصدقائه ، قال :

« إنني أدعو كل يوم ، وأقضي اليوم كله داعياً أن تتكشف لي الحقيقة . لقد أصبح الدعاء هوائى ، منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبي ، إنني لا أستطيع أن أقبل عقائدكم . إن قلبي يفيض بالدموع الغزارة وأنا أكتب هذه السطور ، قلبي يبكي ، عيني تبكي ، ولكنني أشعر أنني لست بطريد من رحمة الله ، بل أمل أن أصل إلى الله الذي أتمنى رؤيته بكل قلبي وروحي . وأقسم بجانبي أن عشتي ويحظى هذا لمعة من روح القدس . ولن أقطع عن تفكيري هذا ، ولو كذبته الإنجيل المقدس عشرة آلاف مرة !! »

لقد أفلقت غريزة البحث عن الحق روح « أنجلز » الشاب ، ولكن الدين المسيحي التقليدي لم يمنحه السكينة التي كان ينشدها ، فانتقلب متمرداً عليه ، وانغمس في الفلسفات السياسية ، والمادية الإلحادية .

• • •

وجذور هذه الغريزة الإنسانية هي إحساس البشر بحاجتهم إلى الرب الخالق ، ففكرة : « الله خالقي وأنا عبده » منقوشة في اللاشعور الإنساني ، وهي ميثاق سرى مأخوذ على الإنسان منذ يومه الأول ، وهو يسرى في كل خلية من خلايا جسمه ، وعندما يفقد إنسان ما هذا الشعور يحس بفراغ عظيم ، وتطالبه روحه من أعماقه أن يبحث عن إله الذي لم يره قط ، والذي لو وجده لخبر راكمًا على ركبتيه ، ثم ينسى كل شيء .

وليس الاهتمام إلى معرفة الله غير الوصول إلى المنبع الحقيقي لهذه الفطرة الإنسانية ، والذين لا يهتمون إلى المعرفة يقبلون على أشياء أخرى . فإن كل قلب يبحث عن يهدي إليه خير أمانيه .

• • •

وعندما رفف العلم الوطني لأول مرة على الأبنية الحكومية في الهند بدلا من العلم البريطاني : « اليونان جاك » ، في صباح يوم ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ - اغرورقت عيون كثيرة بالدموع ، وهي ترى الصورة التي طالما حلت بها . وكانت هذه الدموع مظهرًا لملاحة أصحابها « بالمعبودة : الحرية » ، التي ضحوا من أجل الحصول عليها بخير أيام حياتهم .

وهكذا عندما يذهب زعيم وطني إلى ضريح « أبي الوطن » ويضع عليه إكليل الزهور ، ثم يقف أمامه لحظة مطأطأ رأسه ، فهو حينئذ يباشر نفس العمل الذي يقوم به المؤمن أمام معبوده ، حين يركع ويسجد .

وحين يمر شيوعي أمام تمثال « لينين » ويرفع قبعة عن رأسه ، ويعطى في سيره ، يكون

هو الآخر ، مثل رجل الدين ، يقدم أحسن تمنياته إلى إلهه . فكل إنسان مجبور على أن يتخذ شيئاً ما إلهاً له ، ويقدم له قرايين أمانيه الصادقة .

ولكن الإنسان إذا قدم هذه القرايين لغير الله ، فهو يشرك بمن يستحق وحده العبادة . . .
و « إن الشرك لظلم عظيم » (١) ، والظلم أن تضع الشيء في غير موضعه ، فلو كنت تريد أن تتخذ من غطاء الوعاء قبة فهو « ظلم » ، والإنسان عندما يميل إلى غير الله ملء فراغه النفسى ويتخذ من غير الله ملجأ له ، فهو ينحاز عن مكانه الصحيح ، ويتخذ من غريزته أسراً أسباب الفلال .

ولما كانت هذه الغريزة فطرية ، فلها تظهر دائماً في صورتها الطبيعية متجهة إلى الله ، ولكن المجتمع ، وأحوال البيئة ، يعطيان هذه الغريزة اتجاها مغايراً ، فتبدأ الشكوك تساور الإنسان في أول الأمر ، ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه الشكوك ، عمداً أو عفواً ، لأنه يتمتع بجمرية أكثر في الحياة الجديدة ، فيرضى بها ولو ظاهرياً .

• • •

لقد كان «برتراند رسل» شديد العلاقة بالدين في أول حياته ، وكان يواظب على حضور صلوات الكنيسة باهتمام ، وفي يوم من الأيام سأله جده : ما تكون دعواتك المفضلة يا «برنى» ؟

فأسرع الشاب برتراند رسل يقول : « لقد شمت الحياة ، وأنا مدفون تحت وطأة ذنوبي - يا إلهي ! » وعندما جاوز برتراند الثالثة عشرة من عمره بدأت خواطر التردد تراود ذهنه ، بفعل البيئة التي أحاطت به ، إلى أن تحول ذلك الطفل المواظب على صلوات الكنيسة فأصبح من بعد برتراند رسل الفيلسوف الملحد ، الذي لا يؤمن بالحقائق السماوية . وقد أجرت الإذاعة البريطانية حديثاً معه عام ١٩٥٩ ، وعندما سأله « فريمان » - المعلق السياسى بالإذاعة - : « هل وجدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات والفلسفة يمكن أن تحل محل المشاعر الدينية عند الإنسان ؟ » ، أجاب « رسل » قائلاً : « نعم ، لقد وهنت في سن الأربعين إلى الطمأنينة التي قال عنها « أفلاطون » : إنه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات . إنها عالم أبدي ، حر ، لا يقاس بزمان . ولقد حظيت في هذا العالم بسكنية تشبه تلك التي يحصلون عليها في الدين » .

لقد أنكر هذا المفكر البريطاني حقيقة المعبود السماوى ، ولكنه لم يستطع الاستغناء عن ضرورتها القصوى ، بسبب الغريزة الفطرية التي ولد بها الإنسان ، فجاء بالرياضيات والفلسفة ، وأجلسهما في المقعد المخصص لله وحده . بل اضطر أيضاً أن يتطلع على الرياضيات والفلسفة

نفس الصفات التي يغرد بها الله سبحانه ، وهي : الأبدية ، والتحرر من أبعاد الزمن ،
والسر في ذلك أنه لا يمكن الحصول بدلونها على الطمأنينة التي يبحث عنها الإنسان .

• • •

« جواهر لال نهرو في حالة الركوع » : لو كانت الصحف قد نشرت هذا الخبر في يوم
من الأيام لما صدقها الناس ! ولكن الصورة التي تحملها الصفحة الأخيرة من جريدة
« هندوستان تيمس » ، الصادرة في دلي يوم ٣ أكتوبر من عام ١٩٦٣ ، تصدق هنا
الخبر . وقد ظهر في تلك الصورة رئيس وزراء الهند الأسبق في حالة ركوع ، واقفا أمام ضريح
المهاتما غاندي في ذكرى ميلاده ، وهو يقدم تمنياته إلى « أبنى القومية الهندية » !

إن مثل هذه الأحداث تقع كل يوم في كل مكان من العالم ، وآلاف من الناس الذين
يتكرون وجود الله يركعون أمام معبوداتهم ، تسكيناً لغريزتهم التعبدية ، وذلك لأن « الإله »
ضرورة فطرية للإنسان . وهذه المظاهر كافية لتأييد هذه الغريزة على أنها طبيعية ، لأن
الإنسان يضطر إلى الركوع أمام آخرين كثيرين ، إذا ما امتنع عن السجود أمام « الله الواحد » ،
أي أن فطرته لن تمكن من ملء الفراغ الذي يخلو عند إنكار وجود الله ، والإلحاد .

• • •

وليس الحقيقة أن يتخذ الإنسان آلهة آخرين عند الكفر بالله ، فليسكن غريزته ، بل
سوف أقول : إن الذين يتخذون من غير الله إلها محرومون من الاستقرار والطمأنينة
الحقيقيين ، كالطفل اليتيم الذي يحاول أن يتخذ من مصنوعات البلاستيك « أمما » له .
وكل ملحد ، مهما بدا له ، أو للآخرين ، أنه ناجح ، يتعرض في حياته لمواجهة لمحات ،
يضطر لإزائها أن يفكر فيما إذا كانت الحقيقة التي قبلها - مصطنعة وزائفة ؟

• • •

وعندما ختم « جواهر لال نهرو » سيرته للذاتية سنة ١٩٣٥ ، أي قبل اثني عشر عاماً
من استقلال الهند ، كتب في خاتمتها قائلاً :

« إنني لأشعر أن فصلاً من حياتي قد انتهى ، وأن فصلاً آخر على وشك البدء ،
نرى ماذا سيحوي هذا الفصل ؟ لا يستطيع أحد أن يتنبأ به ، فإن أوراق الحياة القادمة
مغمومة » .

وعندما ظهرت الأوراق الأخرى من حياة نهرو ، وجد نفسه رئيساً لوزارة ثالث كبريات
دول العالم ، يحكم سلس المعمورة بدون شريك . ولكن « نهرو » لم يقتنع بهذا ، بل
مازال يشعر ، وهو في أوج بروزه السياسي ، أن هناك فصلاً آخر من كتاب حياته لما افتتح

لقد كان يعتمل في قرارة ذهنه نفس السؤال الذى يولد معه الإنسان ، وقد قال نهرو ، وهو يخاطب مؤتمر المستشرقين الذى انعقد في دلهي في يناير من عام ١٩٦٤ الذى اشترك فيه ألف ومائتان من الممثلين من جميع أرجاء العالم ، قال :

« إننى سياسى ، ولا أجد وقتاً كثيراً للإيمان والتفكير . ولكننى أضطر في بعض الأحيان أن أفكر : ما حقيقة هذه الدنيا ؟ ومن نحن ؟ وماذا نقوم به ؟ إننى على يقين كامل أن هناك قوى تصوغ أقدارنا » (١) .

وهذا هو الشعور بعلم الطمأنينة الذى يسيطر على أرواح الذين يكفرون بالله معبوداً لهم ، ويخيل إليهم في غمرة الملذات الموقفة والأعمال النديوية الشاغلة - أنهم قد ظفروا بالاستقرار .. ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا مرة أخرى بأنهم محرومون من الطمأنينة والسعادة والاستقرار . وهذه الحالة التى تتعلم فيها الطمأنينة والاستقرار لدى القلوب المحرومة من رحمة الله ليست مسألة أيام هذه الحياة الموقفة وسنيتها . وإنما هي أهم من ذلك بكثير . إنها مسألة أزلية وأبدية ، تتمثل فيها آثار الحياة المعتمة الخالكة ، التى يقف على حافتها هؤلاء الأصحاب .

إنها البادرة الأولى لحياة الخلق الأبدية ، التى سوف يواجهونها بعد موتهم دون شك . إنها أجراس التنبيه الأولى في حياتهم ، تنذرهم بالأحوال الرهيبة ، والظروف المروعة التى سوف تمر بها أرواحهم .

وهي دخان من الحميم الذى لا بد لهم أن يخلدوا فيه .

ولو أن النيران شبت في منزل أحدهم ، فقد ينبهه الدخان الذى سيدخل في أنفه إلى الخطر الوشيك ، وهو يستطيع أن ينقذ نفسه لو استيقظ في الوقت المناسب ، ولكن حين تمسك السنة النيران بسريره فسيكون الأوان قد فات . ولات حين مناص ، بل هو الهلاك الذى يحيط به من كل جانب ، فقد قرر له أن يحترق في النيران ، لبلادة حسه ، وجهالته من أمره . ترى ، هل يستيقظ الناس في إبان النجاة ؟ فإن اللحظة النافعة هي التى تكون قبل فوات الأوان ، والليظة عند الهلاك والدمار لا تمنح صاحبها غير القرار في قاع البوار .

• • •

كتب البروفيسور « مايكل بريغشر » ترجمة لحياة جواهر لال نهرو - وقد سأل المؤلف نهرو في لقائه له معه بنيودلهي في ١٣ يونيو من عام ١٩٥٦ :

« ما القومات اللازمة لبيئة صالحة — طبقاً لفلسفتكم الأساسية في الحياة ؟ » .

وأجاب رئيس الوزراء الأسبق قائلاً :

« إنني أؤمن ببعض المعايير ، قل : إنها (المعايير الأخلاقية) ، ولا بد لكل فرد وبيئة من اتسك بها ، وعند القضاء على هذه المعايير لا يمكنك الوصول إلى نتائج مفيدة ، رغم إحراز التقدم المادى المائل ، وأما (سبل) إقامة هذه المعايير والاحتفاظ بها في المجتمع ، فإنني لا أعرفها ، وهناك نظرة دينية لإقامة هذه المعايير ، ولكنها تبدل في ضيقة جداً مع كل طقوسها وطرقها ، فأنا أهتم اهتماماً كبيراً بالقيم الأخلاقية الروحية ، بعيداً عن الدين ، ولكنني لا أعرف كيف يمكن الحفاظ على هذه القيم في الحياة الجديدة . إنها لمشكلة (١) .

وهذا السؤال وجوابه يبينان بوضوح الفراغ الذى يواجهه الإنسان بشدة في حياته ، فهذه إقامة القيم والمعايير الأخلاقية من أهم ضرورات كل مجتمع ، حتى يتاح له جو الاستقرار لمواصلة مسيرة الحضارة . ولكن الإنسان ، بعد أن خذل الإله ، أخذ يخطو خطاً عشوائياً بحثاً عن هذه المعايير ، وسبل إقامتها في حياة أفراد المجتمع . ولا يزال الإنسان ، رغم مئات السنين التى مضت ، في أولى مراحل بحثه عن هذه المعايير المبردة عن الدين . . .

إنهم يحتفلون ، مثلاً ، بأسبوع الكرم Courtes week لإذابة الحواجز بين الشعب والحكام ، ولكن العقيلة البيروقراطية لا تنوب عند المسئولين ، رغم كل الجهود التى تبذل في هذه المناسبات باسم « الأخلاق » .

ويعلقون على المحطات وداخل عربات القطارات لافتات كبيرة تقول : « إن السفر بدون تذكرة جريمة اجتماعية » — ولكن نسبة السفر بدون التذاكر لا تقل ، بل تزداد يوماً بعد يوم . وذلك يثبت أن عبارة « جريمة اجتماعية » غير كافية لتحريك ضمير الفرد ، والحفاظ على النظام (٢) .

إنهم يبذلون جهوداً ضخمة للتغيير من الجرائم ، عن طريق الصحافة ، قائلين مثلاً : « الجريمة لا تفيد » Crime does not pay . ولكن النسبة المرتفعة للجرائم ، يوماً بعد آخر ، دليل على أن « عواقب الجريمة » في الدنيا ليست رادعة ، حتى يمنع المجرمين من القيام بجرائمهم .

(١) Nehru — A Political Biography, pp. 607-8.

(٢) كل ما يقدمه المؤلف من أدلة لتدليل على إفلاس افلسفات المادية الإلحادية ، غريبة وشرقية ، موجود بوفرة في بلاد شرقنا العرب ، وتوحى شواهد الواقع أن الأمور تزداد كل يوم سوءاً ، نتيجة سيطرة المنحليين والملاحدة على أجهزة التنجيم من بنجاب ، وقسود رجال الدين عن أداء رسالتهم من جانب آخر ، ولا حل للمشكلة إلا بمودة الأمة إلى الله مرة أخرى — (للمراجع) .

وكثيرا ما طبعوا على جدران المكاتب عبارات تقول : « إن تقديم الرشوة ، وقبولها ذنب » ، ولكن المرء ، عندما يشاهد أن جرائم الرشوة تمضى في طريقها على قدم وساق ، بمشهد من هذه العبارات نفسها ، يضطر إلى أن يعترف بأن الدعاية الحكومية لن تستطيع أن تمنع هذه الجريمة الاجتماعية القبيحة .

إنهم يكتبون في كل عربة من عربات القطار : « إن القطارات ملك للشعب ، وإلحاق أى ضرر بها جريمة ضد الشعب . » ، ولكن المسافرين في نفس هذه العربات يسرقون لمباتها الكهربائية الرخيصة ، ويحطمون زجاجها ، وربما يثرون فيشعلون فيها النيران . وهو دليل على : أن فائدة الشعب ليست بأقوى من فائدة الفرد

إن كبار الزعماء والسياسيين يعلنون في خطبهم : أن استغلال الوسائل الحكومية لصالح الأغراض الفردية خيانة في حق الشعب والدولة . ولكن المشروعات الكبرى تفشل في تحقيق أهدافها ، لأن النسبة الكبرى من الميزانيات المقررة تأخذ طريقها إلى جيوب المسؤولين القائمين بأمر هذه المشروعات ، بدلا من إنفاقها في مكانها الصحيح . وهكذا اختفت المعايير والقيم من الحياة القومية ، رغم كل الجهود التي بذلت من جانب المصلحين والزعماء ، وباعت كل الوسائل التي استخدموها بالتفشل الذريع ^(١) .

هذه الظواهر هي في الواقع دلائل على أن الحضارة الإلحادية قد انتهت بركب البشرية إلى الوحل ، وقد ضللتها عن طريقها ، التي لم يكن منها بد لمواصلة المسيرة ، ولا حل لهذه الأزمة إلا بالرجوع إلى الله ، والتسليم بأهمية الدين للحياة ، فهو الأساس الوحيد الذي يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه ، وليست هناك من أسس أخرى .

• • •

كتب البروفيسور تشستر باولز ^(٢) ، السفير الأمريكي الأسبق لهند ، يقول :

(١) إن الأمثلة التي ذكرها المؤلف هنا - من أسبوع الكرم إلى التلاعب في أموال الدولة - أمور عادية جداً في الهند ، وهي تحدث كل مسع ومشهد من الجمهور والمسؤولين ، وترتب على ذلك أن الحالة الأخلاقية للشعب الهندي آخذة في التدهور بشكل يخيف السياسيين من عواقبها على المدى البعيد ، وهؤلاء (الوثنيون منهم أو الملحدون) لا يعرفون كيف يمدون هذا السيل الخطر ، فغالبيتهم المنطى تجرئ وراء مصالحها الذاتية ، ولذلك قد تقضى للفساد ومنت الرشوة وسادت اعتبارات المحسوبة في كل وسط ، من أدناه إلى أرقاه - وهي حال تدمى قلوب الساسة الوطنيين المخلصين ، ولكنهم مفلوون على أمرهم

(٢) Chester Bowles. هومن أشهر الخبراء الاقتصاديين في الولايات المتحدة

المعرب .

الأمريكية

« إن الدول النامية تواجه مشكلات من نوعين ، في طريق نهضتها الصناعية . والنوعان معقدان غاية التعقيد . فأما أولهما : فهو مشكلات الحصول على رأس المال ، والمواد الخام ، والخبرة الفنية ، وطرق استخدامها أفضل استخدام . وأما النوع الثانى من هذه المشكلات فيتعلق بالشعب والإدارة الحكومية . فعلىنا قبل المضي في ثورتنا الصناعية أن نتيقن من أن هذه الصناعة لن تخلق مشكلات أكثر مما تقضى عليه (من المشكلات) فعلا . ومن كلمات المهاتما غاندى : إن المعلومات العلمية والكشوف سوف تزيد من شراة الإنسان ، على حين أن الإنسان هو الشيء الأهم من كل الأشياء^(١) . »

فالشعب مجتمع يخضع للبرامج التقدمية ، ولكن عناصر التقدم ، وهى رأس المال والخبرة الفنية ، لا تجدى نفعا في مجتمع يسوده الفراغ السياسى والحضارى^(٢) .

ما الطريق إلى سد هذا الفراغ لبناء مجتمع يضطلع فيه الشعب والحكام . كل يواجهه ، لرفع شأن البلاد ؟

إنه سؤال بدون جواب لدى المفكرين المحدثين ، والحق أن الإنسان لن يستطيع الوصول إلى جوابه في ظل المجتمع الإلحادى . فكل مشروع تقدمى يصاب بتناقض مثير ، يتجلى في أن العقائد الشخصية لدى أفرادها تخالف العقيدة الاجتماعية . فبرنامج التقدم الاجتماعى مثلا يهدف إلى إقامة مجتمع دهاى يتمتع بالأمن والسلام ، ثم يقول المفكرون : « إن هدف الإنسان الأساسى هو الحصول على السعادة المادية ! » فهم بذلك يتكرون المبدأ الأول لبرنامجهم ، لأنهم يحرضون الأفراد على عمل هو عكس ما يحتاج إليه المجتمع .

ويرجع هذا التناقض إلى أن برنامجا من هذا النوع لم يحقق أهدافه إلى يوم الناس هذا ، وفشلت جميع الفلسفات المادية للنهوض بالحياة الاجتماعية .

إن معنى الحصول على السعادة المادية هو أن يسعى الإنسان بكل قواه إلى تحقيق كل ما تصبو إليه أمانه ، ولكن تحقيق الأهداف الشخصية ، في هذا العالم المحدود ، لا طريق إليه دون التأثير على الآخرين . ولذلك ، فعندما يسعى الفرد إلى تحقيق مطالبه يتحول إلى رزء بالنسبة للآخرين .. فأمنية الفرد تنمر أمانى المجتمع . وحين يجد فرد ، يتقاضى مرتبا بسيطا ، أن موارده لا تكفى لتحقيق سعادته الشخصية فإنه يسعى إلى تحقيق ذلك بكل الصور الممكنة ، حتى ليقدم على السرقات . والرشاوى ، والغش ، والتزوير ، والاستيلاء على حقوق الغير بالقوة .. وعندئذ يبدأ المجتمع في أن يعانى نفس المشكلات التى كان يعانى منها أحد أفراده .

• • •

The Makings of a Just Society, Delhi 1963, pp. 68-69. (١)

(٢) المرجع السابق : ص - ٣١ .

إن العالم الحديث يعاني من مشكلة ، لم يجربها الإنسان طوال تاريخه هي مشكلة « جرائم الأطفال » ، التي أصبحت جزءاً من المجتمع الحديث ! من أين يأتي هؤلاء المجرمون الصغار ؟
لأنهم ضحايا « السعادة المادية » .. فكثير من الفتيان والفتيات يأسون حياة الزواج بعد وقت قليل ، وحينئذ يبدأون في البحث عن وجوه وأجساد جديدة ، ويحصلون على الطلاق ، بيد أن المجتمع هو الذي يدفع ثمن الطلاق ، حين يلزم في رحابه « أطفالاً يتامى في حياة آبائهم وأمهاتهم » ، وما دام المجتمع المنحل هو الآخر لا يستطيع أن يهيئ لمولاء الأطفال الطعام واللباس والمأوى ، فهم أحرار من كل قيد ، وهم يثرون على المجتمع الذي أنجبهم . وتبدأ هذه الحال بالصلصلة ، ثم تنتهي إلى الجرائم القذرة التي كانوا ثمرتها .

ولقد صدق السير الفريد ديننج في مقاله : « إن أكثرية المجرمين الأطفال غير البالغين تخرج من أنقاض « أسر محطمة » (١) »

هذا التناقض بين الفلسفة الاجتماعية وأهداف الأفراد هو أصل كل المشكلات الاجتماعية . فجميع الحوادث التي نسميها في قواميسنا « جريمة وذنبا » هي محاولة قوم للحصول على أمانهم الذاتية في الحياة ، بعد أن أخفقوا في تحقيقها لسبب أو آخر . وهذه الحوادث تظهر في أغلب الأحيان في صور : الاغتيل ، والخطف ، والتدليس ، والتزوير ، والقرصنة ، والحروب ، والزنا ، وما إلى ذلك من الجرائم التي تعاني منها الإنسانية :

وهذا التناقض يبين بجلء أن هدف الحياة الأساسي هو الحصول على رضا الله في الآخرة ، لا غير . إنه هو الهدف الوحيد الذي يمكنه إتقاذ المجتمع والفرد من التناقض الكبير ، والسير بهما في طريق الرخاء والسعادة المتبادلة ، لأن الفرد في هذا الهدف لا يصادم أمانى المجتمع ، بل يشترك في كفاحه بطريقة إيجابية فعالة .

فميزة نظرية (الآخرة) تأكيدها على أنها هي الأساس الوحيد لنجاح المشروعات الاجتماعية في حين تبين في نفس الوقت ، أنها هي الهدف الوحيد للإنسان الفرد أيضاً ، لأن أى شيء لا علاقة له بالواقع لا يمكنه أن يصبح بهذا القدر العجيب من الأهمية ، والموافقة لأهداف البشرية .

• • •

لقد تقدم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما في هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : « إن العلم يستطيع القضاء على كل مرض ، غير الموت والشيخوخة » ! ! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب ، وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » التي هي نتائج أعراض التناقض الشديد الذي يمر به الفرد والمجتمع .

لقد حاول العلم الحديث أن يفتدى كل الجوانب المادية في الجسم الإنساني ، ولكنه

فشل في تغذية الشعور ، والأمان ، والإرادة ، وكانت حصيلة ذلك جسما طويلا القائمة بمنزلة للنواحي ، ولكن الجانب الآخر من الجسم ، وهو أصل الإنسان ، أصبح يعاني من أزمات لاحدها .

لقد أكدت إحصائية : أن ثمانين في المائة من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضا ناتجة عن الأعصاب ، من ناحية أو أخرى . ويقول علماء النفس الحديث : إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية : الكراهية ، والحقد ، والجريمة ، والخوف ، والإرهاق ، واليأس ، والترقب ، والشك ، والآثرة ، والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله .

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقينا جبارا ، حتى يستطيع مواجهة أعنى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد في سبيل هدف سام أعلى ، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القلقة . إن الإيمان بالله يعطي الإنسان محركا هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة ، العقيدة التي عبر عنها « السير وليام أوسلر » William Osler بقوله : « إنها قوة محركة عظيمة ، لا توزن بأي ميزان ، ولا يمكن تجربتها في المعامل » .

إن هذه العقيدة هي سر مخزن الصحة النفسية الموفورة ، التي يتمتع بها أصحابها ، وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهي إلا بالأمراض ، أقسامها وأعانتها .

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبدلون كل ما يمكنهم من الجهود في الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم في نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه الأمراض . وهذه الظاهرة تثير شعورا كئيبا بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا في الميدان الأخير ، ولذلك أكبوا على الميدان الثاني ، يسترون خيبتهم ، ويظهرون بطولتهم أمام العالم !

وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلا : « إن علماء الطب النفسي يبدلون كل جهودهم في كشف أسرار العقل الدقيقة الذي سوف يفتح علينا كل أبواب الصحة ! »

فانجتمعت الجديدي يسير في اتجاهين في وقت واحد . فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكماليات المادية ، على عين يتسبب - لتركه الدين - في خلق أحوال تجعل من الحياة جحما . إنه يعطيك دواء الشفاء من التهم . ويحققك السم في العضل !

وسوف أنقل هنا شهادة لهذه الظاهرة رواها الدكتور بول أرنتست أدولف ، يقول : « تعرفت أثناء دراستي بالكلية الطبية على التغيرات التي تطرأ على أنسجة الجسم بعد الإصابة بالجراح ، وشاهدت أثناء التجارب بالمنظار المكبر أن أعراضا محددة تطرأ على هذه الأنسجة ، مما يؤدي إلى اندمال الجروح وشفائها ، وعندما أصبحت طبيبا بعد إتمام دراستي

كنت جد مقتنع بكفائي وأنتى أستطيع أن أحقق نتيجة موفقة بالتأكيد ، باستعمال الوسائل الطبية اللازمة ، ولكن سرعان ما أصبت بصلمة كبيرة ، حيث فرضت على الظروف أن أشعر أنتى أعرضت عن أهم عنصر فى علم الطب ، ألا وهو : الله .

« كانت بين المرضى الذين كنت مشرفا على علاجهم فى المستشفى ، عجوز فى السبعين من عمرها ، أصيب أعلى فخذها بصلدم ، وأكدت صور الأشعة أن أنسجة جسمها تلتئم بسرعة ، فقدمت لها تهتاتى لسرعة شفائها ، وأشار لى كبير الجراحين : أن أطلب منها العودة إلى بيتها بعد أربع وعشرين ساعة ، لأنها استطاعت أن تمشى دون أن تستند إلى شئ »

« وكان ذلك يوم أحد ، حين جاءت ابنتها تزورها على عاداتها الأسبوعية ، فقلت لها : إن والدتك تتمتع بصحة جيدة الآن ، وعليك أن تحضرى غدا لترافقيا إلى البيت . ولم تلفظ الفتاة بشئ أمامى ، بل توجهت إلى أمها ، وقالت لها : إنه تقرر بعد مشورة زوجها أنهما لن يستطيعا تدبير عودتها (الأم) إلى بيتها ، وخير لها الآن أن تنظم لها سكنى بإحدى «دور المعجزة» .

وبعد بضع ساعات مرتت بسرير العجوز ، فشاهدت أن أنهارا سريعا يطرأ على جسمها ، ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى ماتت العجوز ، لا بسبب فخذ مكسور ، بل جراء قلب كبير .

« وقد حاولت أن أقوم بجميع الإسعافات اللازمة لإنقاذها ، ولكن حالتها لم تتحسن . كانت عظام فخذها المكسورة ، قد تحسنت كثيرا ، ولكننى لم أجده علاجا لقلبها الكبير .. أعطيتها كل ما عندى من الفيتامينات ، والمعادن ، ووسائل التثام العظم المكسور ، ولكن العجوز لم تستطع أن تنهض مرة أخرى ، لقد انجبرت عظامها دون شك ، وكانت تملك فخذنا قوية . ولكنها لم تقو على الحياة ، لأن أئزم عنصر لحياتها لم يكن الفيتامينات ، والمعادن ، ولا انجبار العظم ، وإنما كان (الأم) ، الأمل فى أن تعيش على نحو معين ، فتى ذهب الأمل فى الحياة ، ذهبت معه الصحة » .

« وكان لهذا الحادث تأثير عميق فى نفسى ، لإحساسى بأن هذا الحادث كان من المستحيل وقوعه ، لو كانت هذه العجوز تعرف «إله الأمل» ، الذى أوئمن به لكونى مسيحيا^(١) »

هذا المثال يعطينا صورة من التناقض الذى يعانى منه العالم فى كل جانب من جوانب حياته ، فالعالم يحاول اليوم بكل قوة أن تجمي الأحاسيس والمشاعر الدينية من قلوب الناس ، وهو فى هذه المحاولة يسعى إلى نهضة الإنسان ، مثبها (الروح) ، عنصره الأصلى .

ومن نتائج هذه المحاولة أن الطب يستطيع أن يجبر عظام فخذ مكسورة ، ولكن حرمان الإنسان من العقيدة الإلهية يقضى به إلى الموت ، رغم كون جسمه فى صحة جيدة .

لقد دمر هذا التناقض الإنسانية تدميرًا ، فالأجسام تحت الأثواب البراقة أبحج ما تكون إلى الهدوء والسعادة الحقيقيين ؛ والأبنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة ؛ والمدن المتلألئة يريق الحضارة هي بوثر الجراثيم ، ومصانع المصائب ، والحكومات الجبارة مصابة بالذئب الداخلية وعدم الثقة ؛ والمشروعات الضخمة تبوء بالفشل نتيجة لحياة القائمين بها .. لقد أصبحت الحياة غير مرغوب فيها رغم التقدم المادى الهائل ، وكل هذا وذاك يرجع إلى حرمان الإنسان من نعمة الإيمان بالله ، لقد حرمتنا أنفسنا من المنبع والأساس الذى هياها لنا خالقنا والكنة .

إن سبب الأمراض النفسية ، التى أشرت إليها ، حقيقة واضحة جليلة اعترف بها علماء النفس ، وقد تلخص عالم النفس الشهير البروفيسور يانج C.G. Jung تجاربه عنها فى الكلمات التالية :

« طلب منى أناس كثيرون ، من جميع الدول المتحضرة ، مشورة لأعراضهم النفسية ، فى السنوات الثلاثين الأخيرة . ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى - الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم ، وهو ما بعد ٣٥ سنة - إلا الحرمان من العقيدة الدينية . ويمكن أن يقال : إن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيء الذى تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها فى كل عصر ، ولم يشف أحد من هؤلاء المرضى إلا عندما استرجع فكرته الدينية^(١) »

« إنها لكلمات جليلة : « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد^(٢) » .

ولو أردنا المزيد من الإيضاح ، فلسوف أقتبس من الأستاذ (ا . كريسي موريسون ، رئيس أكاديمية نيويورك (سابقا) ، قوله :

« إن الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الأخلاق ، والقيم والمشارع السامية ، وكل ما يمكن اعتباره « تفحات إلهية » - لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد .

« فالإلحاد نوع من الأنانية ، حيث يجلس الإنسان على كرسي الله .

« لسوف تلمح هذه الحضارة بدون العقيدة والدين .

« سوف يتحول النظام إلى فوضى .

« سوف يتعلم التوازن ، وضبط النفس ، والتمسك .

« سوف ينفض الشر فى كل مكان .

« إنها حاجة ملحة أن نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله^(٣) » .

(انتهى)

Quoted by C.A. Coalson, Science & Christian Belief (١)
p. 110.

(٢) ق : ٢٧ .

Man Does not Stand Alone, p. 123: (٢)

الفهرس

صفحة

٧	مقدمة الطبعة العربية بقلم الدكتور عبد الصبور شاهين
١٩	تمهيد

الباب الأول

٢٥	قضية معارضى الدين
٢٧	الأساس الأول - البيولوجيا
٢٨	الأساس الثانى - علم النفس
٢٩	الأساس الثالث - التاريخ

الباب الثانى

نقد قضية المعارضين

٣١	أولاً : حقيقة الطبيعة
٣٤	ثانياً : اللاشعور ودليل علم النفس
٣٧	ثالثاً : الاستدلال بالتأريخ والاجتماع

الباب الثالث

طريقة الاستدلال العلمى

٤٥	حقيقة التجربة والقياس
٤٩	نظرية التطور العضوى
٥٠	مشكلة تعيين حقائق الأمور
٥١	حقيقة النظريات العلمية

الباب الرابع

٥٣	الطبيعة تشهد بوجود الله
٥٣	أولاً : نظرية التشكيك فى الوجود
٥٤	الوجود والخلق

٥٥	الأزلى - الخالق أم المادة ؟
٥٦	ثانياً : الكشف الفلكية
٥٩	الأنظمة المعقدة
٦١	تقليد الطبيعة
٦٢	ثالثاً : روح الكون الغريبة
٦٢	التوازن المدهش في الأرض
٦٦	قانون الضبط والتوازن
٦٨	السنن الرياضية المحكمة
٦٩	نظام العناصر والدورية
٧٠	خصائص حكيمة
٧٢	صدقة أم عمليات حكيمة

الباب الخامس

٧٦	دليل الآخرة
٧٦	أولاً : إمكان الآخرة
٧٦	مسألة الموت
٨١	ظواهر وأمثلة طبيعية
٨٣	الحياة بعد الميت
٨٦	ثانياً : ضرورة الآخرة
٨٧	مسألة القول
٨٩	مسألة العمل
٩١	ثالثاً : الحاجة إلى الآخرة
٩١	الجانب النفسى
٩٥	الضرورة الأخلاقية
٩٧	مشكلة السلوك
٩٩	الضرورة الكونية
١٠٠	رابعاً : الشهادة التجريبية
١٠٢	خامساً : البحث النفسى
١٠٣	سادساً : البحوث الروحية

الباب السادس

١٠٧	إثبات الرسالة
١١٠	أولاً : ضرورة الرسالة
١١٢	ثانياً : مقياس الرسالة

الباب السابع

١٢٣	القرآن - صوت الله
١٢٣	أولاً : إعجاز القرآن
١٢٧	ثانياً : نبوءات القرآن
١٣٨	ثالثاً : القرآن والكشوف الحديثة
	تقسيم لآيات القرآن :
١٤١	النوع الأول من الآيات
١٤٤	النوع الثاني من الآيات
١٤٤	أولاً : علم القلک
١٤٧	ثانياً : علم طبقات الأرض
١٥١	ثالثاً : علم الأغذية

الباب الثامن

١٥٥	الدين ومشكلات الحضارة
١٥٩	التشريع
١٥٩	أولاً : مصدر التشريع
١٦١	ثانياً : العناصر الأساسية للتشريع
١٦٢	ثالثاً : تحديد مفهوم الجريمة
١٦٣	رابعاً : القانون والأخلاق
١٦٥	خامساً : القانون والفرد
١٦٧	سادساً : القانون والعدل
١٦٨	المرأة والمجتمع
١٧٢	التمدد
١٧٣	المعيشة

الباب التاسع

١٧٧	الحياة التي ننشدها
-----	--------------------

